السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الأول



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

الرياض، ١٤٢٩هـ.

٤ مج.

٢٦٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

١-٥٢٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

١. السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

ردمـــــك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

١-٥٢٧-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الثالثة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

الرياض-شارع العليا العام-جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١/ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

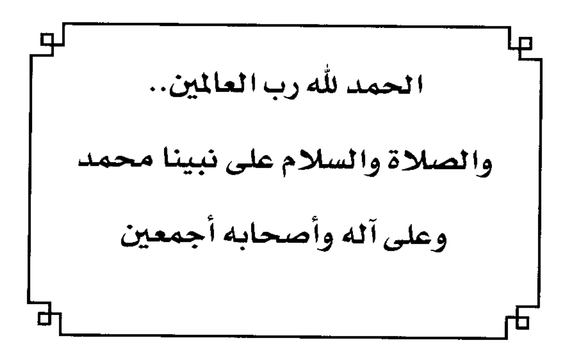
التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤/ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥




الحمد لله رب العالمين..
والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين

هذه القصة

قصة طفل طهور كالبرد.. ولد يتيماً.. واستمر اليتم يلاحقه ويلاحق طفولته في طرقات مكة ودروبها.. يذيقه المرارة.. يفجعه بأهله وأحبابه..

ويكبر محمد ﷺ وتكبر غربته.. ويكتشف في دروب الحياة يتماً أكبر من يتمه.. وهمّاً أثقل من همِّه.. فالأرض كلها يتم.. والبشرية تئن هماً وحزناً يعصر قلبها..

الجزيرة العربية كانت غابةً من الأصنام.. وأوديةً تسيل دماءً بريئة.. تسيل عادات بالية وتقاليد محيرة..

ماذا يفعل أمامها.. وماذا بيديه حيالها.. ماذا يفعل سوى الغربة مهرباً وملاذاً.. يناجي بها ربه ويعج إليه بالتوحيد والدعاء.. وفي غربته الشعورية تلك تهبط عليه الرسالة.. فيحمل الأمانة وينحدر بها نحو مكة.. نحو أمته فينطق بها بهجة وبشرى لهم.. وينتظر الإجابة.. وتأتي الإجابة على غير ما يتمنى ويحب.. تأتي الإجابة سياطاً وشتائم وتكذيباً له وهو الذي يلقب بالأمين.

فماذا فعل الأمين ﷺ مع هؤلاء؟

الإجابة كانت أكثر من خمسين عاماً من فنِّ التعامل مع الغير.. نقشها ﷺ في قلوب من حوله وقلوب غيرهم ممن دبَّ على هذه الأرض إلى قيام الساعة.

الإجابة سيرة لم تكن ماضياً أبداً.. بل شعلة توقد شموس الحياة.. ودماء تتدفق في عروق المستقبل والأجيال.

سيرته ﷺ في مكة هي واقع هذه الصحوة التي تهز أركان الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. ولا بد لهذه الصحوة من أن تشرب من النبع الذي شربت منه في مكة.. لا بد لها من أن تتقد بشعلتها الخالدة وإلا تحولت إلى رماد تذروها الرياح والأهواء.

أحاول في هذه السيرة - القصة أن أبسط ما أمكن.. أن أجعل هذه الأحداث سهلة في متناول الجميع.. خاصة من لا يبحثون عن التعقيد أو التفريع.. لذلك صغتها وربطت بين أحاديثها الصحيحة، لتكون قصة لا روايات أحداث متفرقة فقط.

فالحمــد لله حمداً يليق بجلاله وعظمته إن كنت قــد وفقت في ذلك.. فالتوفيق منه وحده.

وأرجوه الصفح والغفران إن كنت قد زللت..

محمد الصوياني

جده عبد المطلب

لا أدري من أين أتى..

ربما صعد جبلاً أو منه انحدر..

ربما هبط وادياً؛ أو كان يرعى الغنم..

لا أدري..

لكنه كان متعباً يقتلع خطاه..

يسحب جسده الثقيل نحو الكعبة..

حيث ألقى بذلك الجسد في الحجر..

وتردى في هوة سحيقة من النوم..

ليجد في قعرها هاتفاً يطالبه بعمق أكثر..

فيقول له: (احفر طيبة)[1].

لم يمهله عبد المطلب.. لقد عاجله قائلاً: وما طيبة؟

ولـم تأت إجابة.. وأطبق الصمت، والهاتف اختفى ولـم يرد. وفي الغد رجع عبد المطلب إلى مرقده ذلك عله يجد لذلك الحلم تفسيراً، وما إن غاص في سباته حتى سمع ذلك الصوت الخفي يناديه مرة أخرى: (احفر بره)[2].

(يقول عبد المطلب: قلت: وما بره؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه.. فجاءني فقال: احفر زمزم.

قلت: وما زمزم؟

قال: لا تنزف أبداً ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل..

---

(١) اسم من أسماء زمزم.

(٢) اسم من أسماء زمزم.

فلمـــا بيّن لعبد المطلب شـــأنها، ودل على موضعها وعرف أنـــه قد صدق، غدا[1] بمِعْوَلِــه ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليـــس لـه يومئذ وليد غيره.. فحفر فيها، فلمـــا بدا لعبد المطلـــب الطي[2] كبَّر[3]. فعرفت قريش أنه قـــد أدرك حاجته.. فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً.. أشركنا معك فيها.

فقـــال عبد المطلب: ما أنا بفاعـــل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأُعطيتُه من بينكم.

فقالوا: أنْصفنا فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها.

قال عبد المطلب: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

قالوا: كاهنة بني سعد هذيم. قال عبد المطلب: نعم.

وكانت – هذه الكاهنة – بأشـــراف الشـــام. فركب عبد المطلب، ومعه نفر من بني أميـــة، وركب من كل قبيلة من قريش نفـــر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز[4]، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة فاستسقوا من معهم، فأبوا عليهم. وقالوا: إنا بمفاوز.. وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القـــوة، فكلما مات رجل، دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً)[5]

لقد كان ذلك الرأي سقيماً.. إنه انتحار بطيء، سببه تلك الخصومة والضيق الذي لا مبرر لـه، إلا حب الرياسة والشرف عند أولئك القوم.

---

(١) انطلق في الصباح.

(٢) طي البئر وهو من الحجارة.

(٣) قال: الله أكبر.

(٤) أي أن الأرض صحراء مهلكة لا ماء فيها.

(٥) ما بين الأقواس خبر صحيح الإسناد إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر ما بعده.

صــاح عبد المطلب بتلك الجثــث الملقاة في اللُّحُود قائلا: (والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفســنا؛ لَعَجْزٌ.. فعســى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد: ارْتَحِلُوا.

فارتحلــوا، حتى إذا بعث[1] عبد المطلــب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشــرب وشــرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش، وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال. فقال: هلموا إلى الماء، فقد ســقانا الله، فجاءوا فشــربوا واستقوا كلهم. ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة[2] هو الذي ســقاك زمزم، فارجع إلى ســقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم)[3].

رجع عبــد المطلب بفضل الله وحده لا بهمهمات الكاهنــة وتمتماتها، وأرجع الله بذلــك النبع الحياة إلى جثث التحفــت بقبورها، وقادتهم ناقة عبــد المطلب إلى مكة يحملون على عيســهم بعض الماء، ويحملون التســليم بحق عبد المطلب ببئر زمزم، إنه الآن يتولى سقاية بئر جده إسماعيل عليه السلام..

جده إسماعيل صاحب البئر الأول، وأول من شرب منها رغم أنه لم يحفرها، لكنها من أجله تفجرت..

جده إسماعيل هو أول من سكن مكة.. عندما وصل إليها كان طفلاً محمولاً.. كان رضيعاً، لكن مكة كانت أكثر طفولة...

كانت أرضاً عراء.. جدرانها جبال، كانت وادياً بلا شجر بلا حياة.. بلا بشر، تمر بها

---

(١) دفعها للنهوض.

(٢) الأرض التي لا ماء فيها.

(٣) ما بين الأقواس خبر صحيح عن علي رضي الله عنه وهولم يدرك جده، فهو مرسل ربما سمعه من أحد أعمامه أو غيرهم.، رواه ابن إســحاق دلائل النبوة ١-٩٣ : حدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الله بن زرير، أنه ســمع علي قال: قال عبد المطلب بن هاشــم: إني لنائم في الحجر، إذ أتانــي آت فقــال لي: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عنــي، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمــت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قلــت: وما المضنونة... إلخ يزيد ثقة التقريب ٦٠٠، ومرثد ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن زرير تابعي ثقة رمي بالتشيع التقريب ٣٠٢.

القوافــل فلا تتوقف، والرياح أيضاً كانت تمر فلا تتوقــف، لكن رفقة طيبة توقفت، رفقة طاهــرة قادمة من البعيد البعيد، تعلو مع الدروب وتنخفض، تعبر الفيافي والقفار، وتعبر المفاوز والرمال، وتشق أمواج السراب.

امــرأة طاهرة.. اســمها: هاجر.. جــاء بها زوجها الخليل عليه الســلام جاء بها إبراهيم وبابنها إســماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت[١] عند دوحة[٢] فوق زمــزم في أعلى المســجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها مــاء، فوضعهما هنالك، ووضــع عندهما جراباً فيه تمر وسِــقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيــم منطلقاً، فتبعته أم إســماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شــيء؟ فقالت لـه ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهــا، فقالت لـه: الله أمرك بهذا؟ قال: نعــم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثــم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه اســتقبل بوجهــه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفــع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[٣].

وجعلت أم إســماعيل ترضع إسماعيل وتشــرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في الســقاء عطشــت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه، يتلوى، يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظــر إليه فوجدت (الصفا)[٤] أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم اســتقبلت الــوادي تنظــر هل ترى أحــداً، فلم تر أحــداً. فهبطت من الصفا حتــى إذا بلغت بطن الوادي[٥] رفعت درعها[٦] ثم ســعت سعي الإنســان المجهود، حتى جاوزت الوادي ثم أتت (المروة)[٧] فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

---

(١) قبل أن يبنى. والمقصود هنا موقع البيت الحرام - الكعبة.
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.
(٤) هو جبل الصفا الذي يبدأ الحاج منه السعي.
(٥) وهو ما بين العلامات الخضر الموجودة داخل المسعى الآن.
(٦) درع المرأة هو قميصها.
(٧) جبل آخر.

فلما أشــرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه.. فإذا هي بالملك عند موضع زمــزم، فبحث بعقبه - أو بجناحه- حتى ظهر المــاء، فجعلت تحوضه[1]، وتقول بيدها هكذا.. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إســماعيل، لو تركــت زمزم - لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشــربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيــت مرتفعاً مــن الأرض كالرابية، تأتيه الســيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رِفْقَةٌ من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم[2]، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطير ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرســلوا جرياً أو جريين[3]، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إســماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إســماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرســلوا إلى أهليهــم فنزلــوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم» وشــب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إســماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بِشــرٍ، نحن في ضيق وشدة وشــكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شــيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وســألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد

---

(١) تجمعه.

(٢) جرهم حي من اليمن نزلوا مكة، تزوج فيها إســماعيل، ومع مرور الســنين ألحدوا فأبادهم الله (لســان العرب).

(٣) الجري هو الرسول.

وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه: فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم.. فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: ما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه».

فهما لا يخلو عليهما[1] أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه: يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته.. فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم. وهو يقرأ عليك السلام. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك به ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: «فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً.. وأشار إلى أكمة[2] مرتفعة على ما حولها».

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له.. فقام عليه وهو يبني.. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلم»

---

(١) أي اللحم والماء.

(٢) الأكمة الموضع الذي هو أشد ارتفاعاً مما حوله.

فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

«ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»[1]

هذه هي قصة قدوم إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عليهم الصلاة والسلام، وهذه هي بداية الكعبة المشرفة التي أمر الله ببنائها، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

وكان لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قصة أخرى.. ليس فيها بناء، بل فيها الصبر والدماء.

فقد رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فكانت هذه الأحداث التي يقول الله عنها: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

وكان هذا الذبح كبشاً افتدى الله به نبيه إسماعيل، وحفظ به نسله من الانقطاع.

---

(١) رواه البخاري ٣ – ١٢٢٧ عن ابن عباس موقوفا مع وجود فقرات مرفوعة.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٥-١٢٩.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

ســافر إبراهيم، وماتت هاجر، وبقي إســماعيل في مكة حتــى مات ودفن هناك، ومرت الأيام على بيت الله وكعبته، وســلالة إسماعيل تحيط بها وتجلها وتحترمها، ولا تلوثها بالشرك والأصنام، وتحج بيته الحرام لا تشرك به شيئاً.

كانت مكة نقية.. طاهرة من الشرك، حتى خرج ذلك المخرب.. ذلك الشيطان المسمى بـ: "عمرو بن لحي"، فبدأ بغرس الشرك في أرض مكة وقلوب أهلها، فانحرف بهم وبغيرهم عن توحيد الله الذي من أجله بعثت كل الرســل، وأنزلت كل الكتب الســماوية.. شيطان بشري اسمه: (عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب وبحر البحيرة)[1] والسوائب: شياه وبهائم تترك للآلهة، لا تُمَسُّ ولا تُحْلَب.

غصَّت مكة بالشــرك والأصنام، وانحرف أهلها عن عبادة الواحد الأحد وهن ملة أبيهم إبراهيم، إلى عبادة أخشــاب وأحجار يصنعونها بأيديهم.. كانت الكعبة تئن مما نصب على ظهرها، أما أهل مكة فتناســل الشــرك في قلوبهم وعقولهم، وكان آخرهم حفيد إبراهيم عليه السلام: عبد المطلب الذي حاز الزعامة والشرف، وحاز بئر زمزم، ولكنه لم يحز حتى كل أحلامه، لقد كان يحلم وينذر.

كان يحلم بعشرة وذبيح

تَلَفَّــت عبد المطلب فوجد النــاس تنظر إليه.. تحبه وتجلــه، وتحمله في قلوبها، وتَلَفَّت ثانية وثالثة ونظر وراءه، فلم يجد خلفه إلا ابنه الحارث، فرفع رأسه إلى السماء يخاطب خالقها الكريم، الذي ســاق له المجد أن يقر عينه بأخوةٍ للحارث، وظل يدعو ويدعو.. يخاطب الناس حوله.. يشــهدهم ويقول لهم إنه: (قد نذر إن توافى له عشرة رهط[2] أن ينحر أحدهم.

فحقق الله له ما أراد، ولما توافى العشــرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب - وكان أحب الناس إلى عبد المطلب.

فقــال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة مــن الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل)[3]

---

(١)حديث صحيح رواه البخاري ٣ - ١٢٩٧ ومسلم ٤- ٢١٩٢.

(٢) أي إن رزقه الله عشرة أبناء.

(٣) إسناده حسن رواه الطبري في تاريخه ٢- ٢٣٩ حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا =

إن الله يعطي بلا ثمن ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو ليس بحاجة لدماء ذلك الطفل البريء، لكن والده شـــدد، فشـــدد الله عليه، فأصابه بأغلى ولده، فلم ينجه من ورطته إلا مائة من الإبل.. انتشـــلت ذلك الصغير من السكين، ليعيش بقية عمرٍ قصيرٍ منقوشاً في التاريخ.. ما بقيت الجبال على ثباتها.

عاش ذلك الطفل وكبر ذلك حتى بلغ سن:

الزواج

تربـــى عبـــد الله ذلك الطفل الوديع فـــي قلب عبد المطلب وتربـــع فيه، وبلغ مبلغ الرجـــال دون أن يعرفه قومه بطيش أو ســـفه، كأني به هـــادئ كثير الصمت والتأمل.. مليء بالانتظار.. ليس في حياته ما يثير، كان كالعالم من حوله ينتظر وينتظر، ويبحث عـــن زوجة لـه في بيوتات مكة ويســـأل، فكانت فتاة يقـــال لها "آمنة بنت وهب بن عبد مناف" هي الحبيبة وهي الإجابة.

تزوجا.. فـــكان الحب، وامتلأ بيتهما الصغير بالبهجة، وبالشـــباب الغض الحالم بحياة بيضاء فسيحة.. مليئة بالربيع والأطفال والجمال، ولم يكن هذا الشاب يدري أن القضاء أقوى منه، ومن فدية أبيه، لم يكن يدري أن تلك الأحلام الراقصة في مخيلته كانت لغيره..

إنها للعالم أجمع، أما هو فتوشـــك أن تدلف بيته الصغير ســـحابة سوداء مشبعة بالحـــزن والدمـــوع والنواح، فعبد الله الذي فر من الموت بمائة من الإبل.. يســـعى إلى حياضـــه علـــى واحد منها.. امتطى راحلتـــه وتوجه نحو يثرب.. حيـــث كان الموت في انتظاره، ليسكنه في أحد مقابرها.. بعيداً عن عبد المطلب بعيداً عن مكة.. بعيداً عن آمنـــة الحزينة، التي كانت تحمـــل أمانة عبد الله وأحلام عبد الله.. جنيناً تيتم قبل أن يرى هذه الدنيا.

كانت مكة تتساءل: أحقاً مات عبد الله؟

= يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة، يونس ثقة، وشـــيخه ثقة حافظ عابـــد التقريب ٦١٣، وابن يزيد ثقة التقريـــب ٦١٤، لكن في روايته عن الزهري وهماً قليلاً يجعل حديثه حسناً لذاته. انظر التهذيب ١١-٤٤٧.

كأني بعبد المطلب والفاجعة أفقدته صوابه.. يسأل القادمين من يثرب فرداً فرداً.. يعترض قوافلهم.. يتعلق بأزمة مطاياهم، علّه يسمع تكذيباً لما سمع، علّ أحد المسافرين يصيح بوجهه فيقول: أبشر فعبد الله لم يمت ما زال حياً، وهو قادم إليك.

لكن صمت القوافل كان يحمل أنفاس عبد الله الأخيرة تودع هذه الدنيا، وتودع عبد المطلب، لينثني ذلك الشيخ الكظيم طاوياً حرقته بين أضلاعه.. يحاول دفع ما به من حزن فتفضحه عيناه أمام آمنة المفجوعة، فتبكي حبيبها الذي قبض بعيداً عنها، وفارقها في وقت كانت تحترق لعودته وتشتاق لرجوعه محملاً بالحب والهدايا وحكايات السفر.

ملأت الحيرة والوجوم مكة لهفاً على عبد الله، لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد جاء:

الفيل يمزق السكون

لم يطل ذلك الوجوم في مكة، فسرعان ما تفجر الخوف من جبالها وانتفضت بطحاؤها هلعاً.. مكة اليوم تئن تحت أقدام فيل مخيف وحراب جيش ضخم زاحف لهدم بيت الله الحرام وكعبته، كان ذلك الجيش يرج مكة من أقصاها إلى أقصاها، ومن عبيدها إلى ساداتها، كأنما كان يدحرج أمامه جبال اليمن وسد مأرب، فتطاير أهل مكة فوق ذرى الجبال وتفرقوا بين الشعاب، فالأمر فوق ما يحتملون، ولكن سيد قريش عبد المطلب لم يهرب.. لقد ثبت لهم، وحمل روحه بين كفيه لمساءلتهم. فقال لملكهم[1]:

(ما جاء بك إلينا، ما عناك يا ربنا، ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا آمن، فجئت أخيف أهله. فقال عبد المطلب: إنا نأتيك بكل شيء فارجع. فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب، فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت. وأَهَلَّ ثم قال:

---

(١) لم ترد تسمية هذا الملك، ربما كان أبرهة كما جاء في بعض الروايات الضعيفة عند ابن إسحاق، وأبي نعيم في الدلائل (١٤٤) وغيرهما، وقيل: إن أبرهة بعث رجلاً اسمه سمبر مصفود على عشرين ألفاً... ليس لدي ما يرجح رواية على رواية.

اللهم إن لكل إله حلال فامنع حلالك

لا يغلبن محالهم أبداً محالك

اللهم فإن فعلت فأمر ما بدالك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾[1]. فجعل الفيل يعج[2] عجاً.. فجعلهم.. كعصف[3] مأكول)[4].

كانت حجارة حقيقية لا تخطيء أهدافها، وكان عذاباً سماوياً مبيداً لطاغوت من الطواغيت.

أما في مكة فكان هناك من لم يستطع الهرب.. آمنة تعاني من آلام الوضع، ترى هل أقعدتها تلك الآلام.. هل تركها أهلها وحدها لتلد ابنها (في يوم الفيل)[5] وحيداً.. تفرق قومه ومات أبوه، والموت رعب وسيوف تحيط ببلده؟ لا أدري ربما.

لكن الذي حدث أنها ولدت طفلاً.. ولدت حياة للعالم، وموتاً للهمجية والضلال، وُلد محمد، ومات أصحاب الفيل، وعادت قريش لتجد البيت آمناً.. تحميه الملائكة.. وأسراب الطيور.. (ولدت آمنة هذا اليتيم بعدما توفي أبوه)[6][7]، وكانت ولادته

---

(١) حجارة من طين.

(٢) العج: رفع الصوت.

(٣) العصف هو الورق اليابس على ساق الزرع فيتفتت.

(٤) كما ذكرت وردت روايات ضعيفة لا تتسق مع منهج الكتاب، ولا أستطيع الجزم بصحتها، فاكتفيت بما كان قوي الإسناد كهذه الرواية، التي رواها الحاكم ٢-٥٣٥ من طريق إسحاق بن راهويه، أنبأنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، فقال لملكهم:... إسحاق ثقة حافظ التقريب ٩٩ وشيخه ثقة التهذيب ٢-٥٧ وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف رغم قول الحافظ: فيه لين، فجرحه غير مفسر، قال ابن معين: ثقة جايز الحديث إلا أن ابن أبي ليلى جلده الحد، وقال الساجي: ليس بثبت، يقدم علياً على عثمان، جاء إلى ابن أبي ليلى فشهد عليه عنده في قضية تحمل عليه ابن أبي ليلى فضربه. وهذا جرح غير قادح. وقال يعقوب: ثقة، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال العجلي: كوفي لا بأس به. وللخبر شواهد تقويه.

(٥) إسناده جيد رواه ابن سعد ١-١٠١ من طريق ابن معين أخبرنا حجاج، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل)، يونس حديثه حسن. الكاشف ٢-٣٠٣ وحجاج كذلك وسعيد وابن معين أعلام.

(٦) رواه مسلم (٣-١٣٩٢) وهذا الجزء من الحديث مرسل لكن له شواهد تقويه.

(٧) أما كم بين ولادته ووفاة والده فالأحاديث التي وصلت في ذلك ضعيفة الإسناد متضاربة فأعرضت عنها.

(يوم الاثنين)[1] أحد أيام (شـــهر ربيع الأول)[2] مـــن عـام الفيل، وذلك قبل الهجرة بـ (٥٣) عاماً.

أساطير ومولد

مولـــد محمـــد ﷺ حدث ما زال يهز الدنيا.. هو بشـــرى للقلوب وفرحة للأرواح، وبداية الإنقاذ لهذه البشـــرية من التيه والظلمة، وتحويل هذه الجموع العطشى وردها إلى النبع الذي أضاعته وفرطت فيه، لكن ذلك لا يعني أن تتشـــقق المحبة في القلوب عن أساطير تتنامى وتتنامى، حتى تعمى الأبصار وتحطم العقول.

لقد أعمى الحب بعض الســـذج، فصاروا يســـقون حدث المولود بأمطار الأكاذيب، فأنشأوا حوله الأساطير والخرافات، وجاءوا بالروايات الملفقة التي كادت تشوه سيرته الطاهرة[3].

كذبـــوا فقالـــوا: إن محمداً وهو طفل رضيع كان يناغي القمر، فحيثما أشـــار إليه اتجـــه، وكأنه يلعب به في مســـاحات الليل والفضاء، وكذب آخـــرون فقالوا: إن النجوم دنـــت من الأرض عند مولـــده، ولفقوا فقالوا: أنه كان هناك لوح من الذهب كتبت عليها أشـــعار عند رأس أمه يوم مولده. لقد أســـرف أولئك وتجنوا على الأجيال التي تنتظر الحقيقة.. تنتظر الحدث كما حدث. لكن تلك الغيوم الأســـطورية لم تستطع أن تحجب شـــمس الحقيقة، فلقد بقيت الأحداث الحقيقية كما هي دون تحريف.. دون مســـاس، وكان منها:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (٢-٨١٩) حيث قال ﷺ: «ذاك يوم ولدت فيه»..

(٢) كونه ولد في شـــهر ربيع الأول هو الصحيح، فقد ورد في ذلك حديثان يقوي بعضهما بعضاً، الأول: عند ابن أبي شيبة وفيه انقطاع (سيرة ابن كثير ١-١٩٩) والآخر: رواه مالك وعقيل ويونس وهو مرسل محمد ابـــن جبيـــر بن مطعم (ابن كثير ١-١٩٩) لكن تحديد أي يوم هل هو الثامن أو الثاني عشـــر من ربيع، فلم أعثـــر على خبر صحيـــح لكن ابن كثير يقول: إن جمهور العلماء يرجحون يـــوم (١٢) لكن ترجيحهم يبقى دون سند صحيح.

(٣) لولا فتح الله لعباقرة هذه الأمة وأساتذتها بمنهج النقد العلمي للروايات والأسانيد، فميزوا الصحيح من الضعيف. وقد حاولت جمع تلك الأساطير والأكاذيب في موسوعة السيرة.

طلوع نجم أحمد

هناك رآه بعض المنتظرين بشوق.. هناك في يثرب، حيث يرقد عبد الله تحت أطباق الثرى.. وقف رجل يتأمل السماء.. يتأمل النجوم. كان يهودياً، وربما كان فلكياً.

صرخ الرجل بقومه قائلاً: (يا معشر اليهود. فاجتمعوا إليه. قالوا: ويلك ما لك؟

قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)[1].

كادت تلك الصرخة اليهودية أن تتلاشى بين النجوم.. كادت أن تختفي في سراديب اليهود المظلمة، لولا وجود طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ساقه الله إليه وساقته أقدامه إلى موقع الحدث لينقله لنا بعد أن كبر وشاخ، غلام صغير من أهل يثرب اسمه حسان بن ثابت.

إذاً فاليهود كان لديهم علم بمخرج نبي، وكانوا يعرفون تاريخ مولده مقروناً بحدث فلكي يظهر في السماء، بل كانوا يعرفون مكان خروجه.. فقد أخبرتهم التوراة أنه سيسكن أرضاً ذات نخل في جزيرة العرب، وهي قريبة من جبال "فاران" كما في التوارة، وجبال فاران هي جبال مكة، لذا سكن اليهود كل أرض ذات نخل في جزيرة العرب ومنها: خيبر وهجر وتبوك، ولكن أكثرهم سكن يثرب، ومن القبائل التي سكنت يثرب: قريضة والنضير وقينقاع. وهذا الرجل الذي رأى النجم أحدهم.

لم يكن هذا اليهودي هو الوحيد الذي رأى هذا النجم، ففي مكة رجل حيران.. يقال له: زيد بن عمرو بن نفيل، كان يحدق في الأصنام.. يتأملها وهي منصوبة فوق بيت الله، فلا تزيده الأيام إلا اقتناعاً بتفاهتها، وتخلف عقول أتباعها وعابديها. إنها في نظره لا تعدو كونها حجارة صماء بكماء خرساء.. لا تقدم ولا تؤخر.

---

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ٦٢ سماعاً من صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسان بن ثابت قال: (إني لغلام يفعه ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غدات...) وهو إسناد قابل للتحسين، فصالح ويحيى ثقتان، وابن إسحاق لم يدلس، والتابعون لم يتهموا وربما كانوا صحابة وللحديث شواهد تقويه منها ما رواه ابن إسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة لكن ابن إسحاق عنعن ومنها ما بعده وغيره أيضاً.

ضاقت بها مكة وضاق زيد بها، فبحث له عن فسحة بين الفيافي والبطاح يتنفس فيها الحرية والتوحيد.. يبحث عن الحقيقة.. يفتش عنها أديرة العباد، وصوامع الرهبان.. يسأل ويسأل، ولا يكف عن السؤال، حتى قذف به الطريق بين يدي حبر من أهل الشام، فأمره بالعودة إلى مكة وقال: (قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع وصدقه واتبعه)[1].

أما في يثرب فـ(كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي، وأنه لا نبي بعده، واسمه أحمد، مهاجره يثرب) [2].

كان اليهود يحملون علماً غزيراً وعظيماً،لكنهم لا يمررون منه إلا ما يخدمهم ويحكم قبضتهم، وما سوى ذلك يخفونه خلف ألف قفل وباب.

إذا فقد ولد محمد فمن سماه.

التسمية

قبل عبد الله، وقبل عبد المطلب، وقبل مئات السنين، كان هذا المولود حروفاً.. وعداً يتلفظ به الأنبياء ويبشرون، ويوصون أممهم به.. عيسى بن مريم جاء إلى خراف بني إسرائيل الضالة ليهديهم، ويقول لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾[3].

كشف الله هذا الغيب وبشر به وذكر اسمه في الإنجيل، وفي التوراة من قبل الإنجيل، ولهذا يقول ﷺ: «سميت أحمد»[4]، ولا أدري من هو الذي حقق هذا الغيب

---

(١) إسناده حسن، رواه ابن حبان وأبو نعيم (ابن كثير ٢١٢/١) قالا: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن محمد عن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد عن زيد بن عمرو. وهب ثقة التهذيب (١٥٩/١١) وخالد بن عبد الله الطحان ثقة، التهذيب (١٠٠/٣) وابن عمرو حسن الحديث، ويحيى تابعي ثقة وللحديث شاهد عند البيهقي في الدلائل (٩١/١) بسند جيد.

(٢) حسن بشواهده وسنده ضعيف رواه أبو نعيم (ابن كثير ١-٢١٤) من طريق النضر بن سلمة وهو ضعيف، عن إسماعيل بن قيس بن وهو ضعيف. اللسان (٤٢٩/١)، لكن يشهد له ما سبق، وما في دلائل البيهقي ٩١/١ وما عند البيهقي أيضاً (٨٩/١).

(٣) سورة الصف: الآية: ٦.

(٤) سنده حسن رواه ابن سعد ١-١٠٤ من طريق أبي عامر العقدي وهو ثقة اسمه: عبد الله بن عامر القيسي،=

ووفقــه اللــه لهذا الأمر، أهو جده عبد المطلب، أم أمه آمنة بنت وهب؟ ربما كان هاتفاً من السماء هتف باسمه لأمه ربما، ولكنه في النهاية سمي محمداً، أما:

رضاعه وحضانته

فكانت أمه آمنة هي أول من أرضع ابنها اليتيم.. تشــاركها حضانته امرأة تدعى (أم أيمن) واسمها (بركة بنت ثعلبة بن عمرو)، وهناك امرأة ثالثة شاركت في رضاعه، وهي أَمَةٌ لعمه أبي لهب، واسمها: ثويبة. وقد (أرضعت ثويبة رسول الله ﷺ، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي)[1].

هذا في بداية الأمر، وبعد فترة من الزمن غشــيت مكة مجموعة من نساء البادية يلتمسن الرزق عن طريق إرضاع أطفال قريش، وكانت أقدامهن تتزاحم على أبواب من يبسط يديه بالعطاء الأكثر.

ربما كان باب عبد المطلب من الأبواب السخية التي تملأ الأكف بالدراهم، وربما كان فقيراً لا يســتطيع منافسة غيره في الانتقاء والاختيار لحفيده من بين تلك المرضعات، وقــد يكون بيت آمنة لا يغري المرضعــات على التوجه نحوه، فيجتمع لهذا الصغير يتم مرير وفقر موجع[2]. لم يدم الأمر فسرعان ما أصبح الطفل بعيداً عن أمنة.

محمد في هوازن

وأخيراً اســتقر محمد اليتيم في أحضان امرأة طيبة من هوازن اســمها (حليمة الســعدية).. شغفها حباً، وحملته على راحلتها ليســترضع في مضارب (بني سعد بن

= وقد حدثه بهذا الحديث شــيخه زهير بن محمد التميمي وهو حســن الحديث إذا روى عنه غير شــامي. وهذه رواية بصري وهي مســتقيمة كما قال الإمام أحمد. التهذيب (٢/٣٤٨) وشيخه عبد الله بن محمد ابن عقيل حسن الحديث، وشيخ هذا هو محمد بن علي بن أبي طالب، عن والده.

(١) متفق عليه بغير هذا اللفظ.

(٢) الذي يجعلني لا أجزم بفقر محمد ﷺ أو غناه هو تضارب الروايات بالإضافة إلى ضعف إسنادها، هناك روايــة تقول: إن حليمة لم تجد طفلاً ســوى محمد ﷺ ، ولو عدنــا إلى بعض إلى روايات الفيل الضعيفة لوجدنــا عبد المطلب غنياً يملك قطيعاً من الإبــل، كما مر معنا رواية صحيحة تقول: إن عبد المطلب ذبح مائــة مــن الإبل فداءً لابنه عبد الله بعــد أن وقع عليه النذر، فهل كانت تلك الإبــل هي كل ما يملكه الله أعلم؟!

بكر)[1] قوم حليمـــة وأهلها، وفي تلك المضارب بدأ محمد الصغير بالحبو، ثم الوقوف على قدميه الصغيرتين، وبدأ يلثغ ببعض الحروف والكلمات، ويتعثر في بعضها بطريقة محبوبة، ثم صار يمشي ويتحدث ويرعى الغنم.

كان طفلاً طاهراً كأنفاس الصباح.. كحبات المطر. اعتاد الخروج مع أخيه يسوقان الغنمـــات ويمرحان ويلعبان، وعندما يقرصهما الجوع يُخرجان ما أعدته أمهما حليمة من زاد ليأكلانه، فيســكن ما بهما من جوع ويعــاودان اللعب في مراتع البراءة.. كانت أياماً تشع بالبراءة والجمال والبهجة، لم يعكر صفوها سوى صراخ أخيه الصغير ذات صباح قائلاً:

إن محمداً قد قُتِل

فمـــا الذي حدث، ولماذا يقتل طفل.. من الـــذي يقوى على اغتيال تلك البراءة في مرعى الغنم الأخضر؟

مـــا حدث هو أن الصباح أيقـــظ الطفلين، فخرجا من الخباء خلف أغنامهما، ولم يذكـــرا أنهما بلا زاد إلا عنـــد وصولهما إلى المرعى، وهناك التفت محمد الصغير ﷺ إلـــى أخيه فقال: (يـــا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنـــا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم)[2].

لقد أصبح هذا اليتيم بين البهم وحيداً في المرعى فهل حدث له شيء؟

نعم شُقَّ صدره

لقد جرى لهذا اليتيم شيء لا يجري لغيره.

دعونا نســتمع إليه وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طســت من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشـــقا بطني، ثم

---

(١) حديث حسن رواه أحمد ٤ – ١٨٤ حدثنا حيوة ويزيد بن عبد ربه قالا ثنا بقية حدثني بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد الســلمي انه حدثهم. وعبدالرحمن مجهول لكن يشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة التي تخالف الصحيح، لكنه حسن بعمومه.

(٢) جزء من الحديث السابق ويشهد له ما بعده. وفيه بعض الألفاظ الضعيفة.

اســتخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقة ســوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلــك الثلــج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشــرة من أمته. فوزنني. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة. فوزنتهم.

ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف. فوزنتهم.

فقال: دعه عنك، لو وزنته بأمته لوزنهم)[1].

لقد شُقَّ صدر هذا الصغير بين غنماته حقاً، كان ينظر ما يفعله الملكان به، ثم رأت أمه حليمة أثر الشق ورآه أصحابه، كانت الطريقة التي تمت بها هذه العملية معجزة لا تحدث للبشر. أحد أصحابه الذين رأوا أثر تلك العملية يقول: (إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاســتخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بمــاء زمــزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يســعون إلى أمه -يعني ظئره حليمة- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاســتقبلوه وهو منتقع اللون)[2] أي متغير اللون. ويواصل حديثه مؤكداً ذلك: (وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ)[3].

نعم لقد رآه، ولقد صدق، ولقد حدث، وهذا ما جعل حليمة بعد ســماعها للقصة تعيد محمداً ﷺ لأمه خوفاً عليه، لم يكن حلماً.. أتراها تعيده من أجل حلم أو رؤيا، ثم هؤلاء الصبية الذين أقبلوا يقولون: إن محمداً قد قتل.. هل كانوا في الحلم..؟![4].

---

(١) هذا الحديث صحيح وقد مر معنا، عند الحديث عن اســترضاع رســول الله ﷺ في بني ســعد بن بكر، وعند الحديث عن المولد والأساطير بصيغة أخرى وهي في الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (٤٧/١). هذا ما حدث لمحمد الصغير ﷺ .. ولقد ازداد إعجاب بعض الناس بهذه الحادثة فصاروا يلفقون حولها الأكاذيب ظناً منهم أنهم يحيطون نبيهم بشيء من التكريم والتعظيم.. مثل ما لفقه قاص ضعيف يدعى الغلابي. كما شــطح علــى الطرف الآخر أناس تطرفوا فقالوا: إن هذا الشق كان حلماً وليس حقيقة، فبم يفسرون لنا قول أنس السابق: من أنه رأى أثر المخيط..؟

(٤) هناك أمثلة كثيرة طالما كذبها أناس من المستخفين بالسنة، منها حديث البخاري أنه ﷺ أرشد أن الذباب إذا وقع في شــراب أحدكم فليغمســه كله في الشــراب ثم يخرجه فيرميه لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، هرب بعض أبناء المسلمين من هذا الحديث وحاربوه واتهموا الإمام البخاري بالكذب، واستغل بعض الشــيعة هداهم الله ذلك فصار يطعن في الأحاديث وفي الســنة -وهم لا يؤمنون بالأحاديث التي =

عاد محمد الصغير إلى أحضان آمنة ترعاه وتحنو عليه.. تحدثه ويحدثها.. تلاعبه ويلاعبها، وتقص عليه وتملأ دنياه ويملأ دنياها، فأي براءة كانت تشع في عيني ذلك الطفل الطاهر.. المغسول بالثلج في مرابع حليمة. لا شيء كالأطفال براءة، فتخيل براءة محمد ﷺ وهو صغير.. يا لبهجة آمنة وسعادتها به، ويا لشقاءه بها وحزنه عليها، بعد أن أخذته معها متجهة به نحو أخواله في (يثرب)، حيث قضى وقتاً هناك يمرح في طرقاتها ويتأملها وكأنه يقول: انتظريني يا يثرب، فسأعود لأضع لك اسماً جميلاً خالداً كجمال التوحيد وخلوده.

وبعد رحلة حميمة زارا فيها أخواله الكرام الطيبين بني النجار رجعت آمنة بصغيرها إلى مكة، تضمه بين أحضانها وتلاعبه وتقص عليه، وترد على أسئلته التي تعن له في الطريق، وأحيانا يبكي فتلجأ لكل الحيل والألعاب لإرضائه.. تطعمه وتهدهده، وتعبث بشعره الناعم بأناملها، فيغفوا بين ذراعيها كملاك صغير، وينهض في اليوم التالي فتغمره بقبلاتها، وتمرغ وجهها في صدره حتى تملأ ضحكاته الجميلة قلبها وأجواءها وطريقها، وفي مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة شعرت آمنة بأوجاع مضنية، فتوقفت المطايا، ونزلت آمنة عن ظهر الراحلة ونزل صغيرها وقد تعلقت عيناه بها، وهي تتوجع وتئن أمامه، ويشتد وجعها فلا يستطيع منحها ما يخفف ألمها، سوى نظرات حائرة خائفة.. نظرات حزينة.. تزيد آلامها فيزيد أنينها ورحمتها بهذا الطفل البريء، ثم تضعف آمنة وتذبل وتموت وهو ملتصق بها، يبكيها ويناشدها أن تفيق.. أن ترد عليه، لكنها لا ترد ولا تفيق، بل تؤخذ من بين يديه وهو يمسك بثيابها التي بللها بدموعه، وتدفن أمام عينيه الغارقتين بالدموع.. يمسحهما بيديه الصغيرتين وهو ينظر إليها وإلى الرجال وهم يهيلون التراب على قبرها.. بعيداً عن مكة، بعيداً عن عبد المطلب، بعيداً عن أعمامه.

تؤخذ آمنة منه وتوارى تحت أكوام التراب، فيعود باكياً وحيداً حزيناً على الراحلة، ينتبه من نومه أثناء الطريق فلا يجد أمنة تحتضنه أو تقبله أو تسأله هل هو جائع،

= نقلها الصحابة- فماذا كانت النتيجة؟ لقد جاءت الشهادة بصحة هذا الحديث من أرقى وأحدث المختبرات العلمية في العالم وأكدوا صحة هذا الحديث علمياً ومخبريا، انظر كتاب الدكتور خليل إبراهيم خاطر (الإصابة في صحة حديث الذبابة). ومن أراد الدهشة فليراجع موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الإنترنت، فستذهله معجزاته صلى الله عليه وسلم.

منظـــره يذيب القلـــب.. طفل صغير زائغ العينين، تتمايل بـــه الراحلة والأقدار، ويصل مكـــة وقد تيتم مـــرة أخرى.. يعود إلى ذلك البيت الصغيـــر، ويجول ببصره في أركانه الصامتة، هنا كانت ترقد آمنة، وهنا كان يخبيء ألعابه، وهنا كانت تعد له طعامه، أما هنا فكان يســـتحم بيديها، وهنا كانت تلاعبه وتســـعى لإضحاكه عندما تقوده خطواته الصغيرة إليها باكياً.

كان بيتا كالدموع.. تجول فيه الذكريات وبقايا آمنة الحبيبة.

بيت صامت كالحداد.. لم يعد فيه صوت.. لم يعد فيه أم.. لم تعد إليه آمنة، إنها ترقد هناك بالأبواء، فيا للوعته ولهفه ويا حر قلبه عليها.

ربمـــا تنبه ليلة فلم يجدها بقربـــه ففاضت عيناه بالدمع، وألجمه الحزن والحنين إليهـــا، أو ربما كان يســـأل جده وأعمامه أو عماته عنهـــا فيتجرعون الصمت، وتفيض أعينهم شفقة عليه وحزناً، فتتيه عنهم الإجابة.

إن للطفل أســـئلة ملحة ومحرجة، فكيف بأسئلة طفل مفجوع أصابه الدهر بأبيه وأمه.. يســـأل عنها إلى أين ذهبت ومتى ســـتعود، وهل ســـتتركه وحيداً أم ســـيذهب إليها...؟ أسئلة كلها بث وانكسار متى ما حاصرتك خفضت رأسك وفاضت عيناك.

لقد تعلق بها رغم أنه لم يحظ بقربها إلا سنوات قليلة.. مر ذات يوم بقبرها فرئي له بكاء لم يبكه من قبل.

يقول أحد أصحابه: (انتهى النبي ﷺ إلى رســـم قبر فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأســـه كالمخاطب، ثم بكى فاســـتقبله عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه، فقال: يا رســـول الله ما يبكيـــك؟ فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، اســـتأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واســـتأذنته في الاســـتغفار لها، فأبى عليها، وأدركتني رقتها فبكيت. فما رؤيت ســـاعة أكثر باكياً من تلك الساعة)[1]. وذات مرة زار (قبر أمه فبكى وأبكى من حوله)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ١-١٨٩من طرق عن سفيان الثوري، عن علقة بن مرثد عن سليمان بريدة، عن أبيه. سليمان تابعي ثقة وعلقمة ثقة أيضاً التقريب ٢٥٠و٣٩٧، ورواه ابن حبان ٣-٢٦١وغيره بسند حسن لولا عنعنة ابن جريج فيه ويشهد له ما بعده.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧١ .

وماذا يملك محمد لأمه سوى الدموع؟ إنه مجرد نبي مرسل، والأمر كله لله وحده فعليه الصبر والاحتساب، كما صبر في صغره على مرارة اليتم ووحشته، لكن ما قد يخفف بعض معاناته كونه الآن في:

في بيت عبد المطلب

بعد رحيل آمنة امتدت يد جده عبد المطلب تفيض حناناً، فحمله إلى بيته حيث تربى في كنفه.. في كنف هذا الرجل الكريم الطباع.. صاحب الشرف وساقي الحجيج، فكانت أولى خطواته في درب الرجولة. شب محمد اليتيم يتحمل المسؤولية، وكأن اليتم علمه أن الحياة قاسية، لكن لها جمالاً لا ينال إلا بالكفاح. لقد أحبه عبد المطلب وهو يرى الرجولة تشع من إهابه، فلم يرسله في حاجة إلا جاء بها، ولم يأمره بأمر إلا قام بتنفيذه على الوجه الأكمل، إلا في يوم من أيام الحج، حيث الأصابع تشير إلى عبد المطلب ساقي الحجيج، وزعيم قريش وسليل الأنبياء، لكن عبد المطلب وسط الزحام مشغول.. مذهول يهرول نحو بيت الله لا يلوي على شيء، وما أن أصبح بجوار الكعبة حتى رفع عقيرته يناجي ربه:

(ربي رد إلي راكبي محمداً يا رب رده واصطنع عندي يداً[1]

شاهده أحد الحجاج الذين لا يعرفونه إلا بما تحمله الرواحل من أخبار.. لم يكن قد رآه من قبل، ولا يعرف من هو، لكن حالته كانت تثير التساؤل، فقال ذلك الغريب لمن حوله:

(من هذا؟ فقالوا له: عبد المطلب بن هاشم، ذهب إبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه، فما برحت حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبد المطلب لمحمد: يا بني لقد حزنت عليك حزناً، لا تفارقني أبداً)[2].

---

(١) ما بين الأقواس حديث جيد، رواه البيهقي (٢-٢٠) من طرق عن خارجة ابن مصعب، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهذا إسناد حسن مشهور، لولا خارجة قال الحافظ: صدوق، وقد اعتمد على توثيق ابن حبان الذي سكت عنه في الثقات (٨-١٣٣) لذلك فحديثه جيد في المتابعات، وللحديث طريق أخرى تقويه، عند البيهقي أيضاً.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لـم يفارق هذا الشـاب الصغير جده، ولـم تكن أيامهما كلها رخاء وسـعة، فلقد (تتابعت على قريش سـنون جدبـة[١] أقلحت[٢] الجلد وأرقـت[٣] العظم) وبات الناس في شـظف من العيش، بواد غير ذي زرع، كثير الحصى محاصر بالجبال، وفي أحد أيام تلك السـنين الشـاحبة.. كانت هناك طفلة صغيرة تسـوق غنماً لأهلها، فيجري لها أمر غريب، وتسـمع صوتا أغرب.. هاهي تتحدث عنـه فتقول: (بينا أنا ومعي صنوي[٤] أصغر مني، معنا بهمات[٥]لنا وربا، وأعبد، يردن على السـحق[٦]، فبينا أنا راقـدة - اللهم - أو مهمومة، إذا أنا بهاتف صيـت، يصرخ بصوت صحل[٧]، يقول: يا معشـر قريش، إن هذا النبي مبعوث منكم، وهذا أبان مخرجه[٨]، فحي هلا[٩] بالخير والخصـب، ألا فانظروا منكم رجلاً طوالاً، وعظاماً، أبيض بضاً[١٠]، أشـم العرنين[١١]، له فخر يكظم عليه[١٢]، وسـنة تهدي إليه، ألا فليخلص هو وولده، وليدلف[١٣] إليه من كل بطن رجلاً، ألا فليشـنوا[١٤] من الماء، وليمسـوا من الطيب إليه، وليستلموا الركن، وليطوفوا بالبيت سـبعاً، ثم ليرتقوا أبا قبيس[١٥]، فليستسق الرجل، وليؤمن القوم، ألا وفيهم الطاهر الطيب لذاته، ألا فغنمتم إذا ما شئتم وعشتم.

قالـت رقيقة: فأصبحت - علم الله - مفؤودة، مذعـورة، قد قف[١٦] جلدي، ووله

---

(١) أي سنون لم ينزل بها مطر.

(٢) القلح هو الوسخ، والصفرة في الأسنان لعدم تعاهدها.

(٣) جعلته ليناً.

(٤) الصنو: الأخ الشقيق.

(٥) البهمة ولد الضأن سواء كان ذكراً أم أنثى.

(٦) أي معها عبيد يلاحقن ما هرب من الغنم والسحق هو البعيد.

(٧) صوت فيه بحة أو ليس بحاد الصوت.

(٨) أي هذا وقت بعثته وخروجه.

(٩) أي أقبلوا مرحبا بكم لتنالوا الخير.

(١٠) البض من البشرة هي الرقيقة النضرة.

(١١) الشمم ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها،كناية عن الرفعة والعلو والشرف.

(١٢) أي له فخر لا يظهره ولا يبديه.

(١٣) يمشي.

(١٤) يصبوا والمراد الاغتسال به.

(١٥) جبل في مكة.

(١٦) اقشعر. والمفؤود المذعورة الخائفة المضطربة، ووله عقلي أي ذهل عقلي مما سمعت.

عقلي، فاقتصصت رؤياي، فنمت في شعاب مكة، فو الحرمة والحرم، وإن بقي بها أبطحي، إلا قال: هذا شيبة.

وتنامت عنده قريش، وانفض[1] إليه من كل بطن رجل، فسنوا، وطيبوا، واستلموا، وطافوا، ثم ارتقوا أبا قبيس، وطفق القوم يرفون حوله[2] ما إن يدرك سعيهم مهله حتى قر لذروته[3]، ما ستكفوا جنابيه، ومعهم رسول الله - وهو يومئذ غلام قد يفع أو كرب- فقام عبد المطلب فقال: اللهم ساد الخلة[4] وكاشف[5] الكربة، أنت عالم غير معلم، مسول غير منحل[6]، وهذه عبداؤك، وإماؤك بعذرات حرمك - يعني أمنة حرمك- يشكون إليك سنتهم[7] التي أقلحت الظلف[8] والخف، فاسمعن اللهم وامطرن غيثاً مريعاً مغدقاً. فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها، وكظ[9] الوادي بثجيجه، فلسمعت شيخان قريش، وهي تقول لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء - هنيئاً.. أي بك عاش أهل البطحاء، وفي ذلك تقول رفيقة بنت صفي:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاء بالماء جوني له سبل	ودان فعاشت به الأمصار والشجر
سبيل من الله بالميمون طائرة	وخير من بشرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به	ما في الأنام له عدل ولا خطر)[10]

---

(١) انفض الجمع أي تفرقوا.

(٢) رف الطائر إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، ومعناه أحاطوا وأحدقوا.

(٣) أي لم يمر وقت قصير حتى امتلأ المكان بالناس.

(٤) يقال للميت: اللهم اسدد خلته أي الثلمة التي ترك والفراغ الذي خلف.

(٥) مزيل.

(٦) أي أنك تعطي ولا يعطيك أحد.

(٧) السنة، الجفاف والقحط وقد جاء في الحديث الصحيح عنه ﷺ تعريف دقيق وجدير بالانتباه للسنة حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا... وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئاً» رواه مسلم ٤-٢٢٢٨.

(٨) الظلف: الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبي وغيرها.

(٩) ضاق الوادي من كثرته.

(١٠) هذا الخبر ليس بحديث وهو حسن، رواه الطبراني ٢٤-٢٥٩ وابن أبي الدنيا في مجابوا الدعوة ٥٦ والبيهقي من طريقين: الأول: عبد الرحمن بن حميد الخلال، حدثنا يعقوب بن محمد بن عيسى، حدثنا عبد العزيز بن =

عادت الحياة خضراء في مكة، واهتزت الأرض وربت بفضل ربها، وضحك الربيع للجميع، لكن السعادة لم تدم لمحمد، فها هو بعد مدة ليست بالطويلة يبكي خلف سرير عبد المطلب بحرقة ومرارة، لقد مات عبد المطلب جده وآخر آبائه لينتقل ربما[1]:

إلى بيت أبي طالب

حـــن أبو طالب بن عبد المطلب على هذا الحزن القابع خلف الســـرير، ورق لحاله وكربه وبثه، ورعاه كأنه من صلبه.. ينســـيه وحدته ويتمه بمعاملة تذوب رحمة وحناناً، فكان يلازمه ويرافقه في بعض الرحلات. وكانت رحلات قريش الشتوية تقصد اليمن، والصيفية تتجه نحو الشـــام، وللرحلتين أمن كأمن مكة، ذكره الله فقال ســـبحانه: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[2]، وفي إحدى تلك الرحلات جرت قصة لمحمد وهو في طريقه نحو الشام بين:

بحيرى والقافلة

في صيف حار تحركت الركائب نحو الشـــام ومعها (خرج أبو طالب إلى الشـــام، وخرج معه رســـول الله صلى الله عليه وســـلم وأشـــياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهـــب هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب – وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت – فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا سيد العالمين.. هذا رسول رب العالمين.. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

= عمران عن ابن حويصة، حدثني مخرمة بن نوفل، عن أمه رقيقة... والطريق الثاني: زكريا بن يحيى الطائي، حدثني زحر بن حصين عن جده حميد بن منهب، قال عمي عروة بن مضرس، يحدث عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفي ...وفي الأول ابن عمران، اختلط ففحش غلطه، وهو غير متهم، والآخر يعقوب بن محمد؛ فيه ضعف يسير التقريب ٣٥٨و٦٠٨ وفي الثاني الطائي، وهو ضعيف، وشيخه زحر مجهول. المغني (٢٣٨/١) (٢٤٠/١). ورواه ابن سعد من طريق الكلبي، وتوبع الكلبي عند البلاذري -أنساب الأشراف ٨٢.

(١) أقول ربما لأنني لم أجد حديثا أو خبرا صحيحا يحدد عند أي أعمامه انتقل بعد وفاة جده.

(٢) سورة قريش.

فقال له أشـياخ من قريش: ما علمك؟ قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة، لم يبق شـجر ولا حجر إلا خر سـاجدا، ولا يسجد إلا لنبي، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع صنع لهم طعاما فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - قال: أرسـلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظله. قال: انظروا إليه عليه غمامة تظله. فلما دنا من القوم وجدهم قد سـبقوا إلى فيء الشـجرة عليه، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم: أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم لو رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه.

فالتفت فإذا هو بتسـعة نفر قد أقبلوا من الروم فاسـتقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالـوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشـهر فلم يبق فـي طريق إلا قد بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا. فقال لهم: ما خلفتم خلفكم أحداً هو خير منكم؟

قالـوا: لا، إنما أخبرنا خبره فبعثنا لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه، وهل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه.

وأقاموا معه، فأتاهم فقال: أنشدكم بالله أيكم وليه؟

قال أبو طالب: أنا. فلم يزل يناشـده حتى رده أبـو طالب)[1] إلى مكة خوفاً عليه بعـد أن تأكد من وجود صفة النبي المنتظر فيه، ليعود محمد إلى مكة، ويمارس عملا يرسخ به صفة أخرى فاق بها كل الناس.

الأمين والغنم

لم يكن محمد ﷺ شاباً خاملاً تتعثر به الحياة.. يقتات من نسبه ويتسول بشرفه. لقد كان حياة للحياة.. يحمل فأسـه لصخورها، ويشـق طريقه بذراع مفتول، وجبين مرفوع وشـباب متجدد. تعاملت معه قريش كلهـا حتى اقتطع منها لقباً طغى على كل

(١) ليس بحديث لكن إسـناد قوي، رواه ابن أبي شـيبة ٧ - ٣٢٧ وأبو نعيم - ١٢٩ والترمذي ٢- ٢٨٩ وغيره حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: وكلهم ثقات إلا يونس حسن الحديث التهذيب (١١/٤٣٣).

اســم هو له، ولم يكن ليحصل على ذلك اللقب لو كان قد رضي بالوقوف على أطلال آبائه وأجداده.. يُذكِّر من يمر بها ويكتفي. لقد دخل عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة، فقالوا بصوت واحد: (أتاكم الأمين)[1].

(الأمين) هذا هو اللقب - الاسم.. انتزعه من قلوبهم قبل أن يبذلوه له بألسنتهم، لقد جربوه وخبروه، والأمانة لا توهب إلا بعد التجارب، وليس لدى محمد الشــاب ما يبذله من مال أو ســلطة ليرغمهم على قول ذلك، لا ســيما وهو من أصغرهم سناً، بل وربما كان أفقرهم.. ألجأه الفقر إلى أشــقى المهن وأبســطها. كان يســير طوال نهاره خلف الغنم (يرعاها على قراريط لأهل مكة)[2] .. مهنة شاقة تمارس بأجر بخس، لكن أول شرط لممارستها (الأمانة).

مهنة البســطاء وقادة الأرض والعظماء، وهل هناك أعظم من نبي. ومع ذلك (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم)[3] ربما لأن صورة القطيع من الماشــية تشــبه ســير سواد الشــعوب في العالم، وهم يبحثون عن لقمة العيش، ومهمة الراعي تتطلب البحث عن أوفر المراعي عشــباً وكلأً، وإن شــق عليه ذلك، وليســت وظيفته أن يبحث عن راحته ورفاهيته. كما تتطلب تلك المهنة حماية القطيع من أعدائه ومفترسيه، إن الرعي بقدر ما يولد من القســوة والخشــونة في حياة الراعي.. يهب له قلبــاً عطوفاً على رعيته، والأنبياء قادة تتوفر فيهم هذه الصفات، فربما كان لهذه المهنة تأثيرها في ذلك.. ربما. لكن بعيداً عن مهنة الرعي القاسية.. حيث العواطف والغرائز والأحلام، ماذا عن:

الشباب والنساء

كان الأمين يخالط الشــباب ويعيش بينهم، ويســمع بمغامراتهم في ارتياد كهوف البغاء، والقصف في الخمارات، لكنه كان يرتفع عما يسيء إلى اسمه ورجولته، ولو كان ذلك مما لا تحرمه أعراف قريش، والأمر عنده لا يتعدى دائرة حديث النفس والأماني، لا أكثر، يمر عليه مرور سحاب الصيف الذي يمر ولا يمطر، فهو شاب كغيره، لكن رقيه يحجز بينه وبين تلك الأشياء.

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا تحت عنوان (يبني الكعبة ويضع الحجر).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٨٩ بلفظ: (كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٢- ٧٨٩

إنــه يتحدث عن تلك الأمور التي خطرت له عندما كان يمســك بعصاه يهش بها على غنمه فيقول: (ما هممت بشـــيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا ليلتــين، كلتاهما عصمنـــي الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعــض فتيان مكة - ونحن في رعاية غنم أهلنا - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى.

فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، ســمعت عزفــاً بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أســمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي ســمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب اللــه على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشــمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر.

فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته)[1].

إن شــبابا وشــيباً تعلوهم الغرائز وتلوي أعناقهم الشهوات، فيجهدون في الحصول عليها، دون أن يوقفهم نداء ناصح أو زجر زاجر، يبذلون الأموال كالخطوات، حتى يظفروا بسويعات حمراء وخيمة العواقب، فهل سيوقفهم صوت دف أو مزمار، لكن محمداً أوقفته حفلة عرس، وهدهدته حتى نام، لأنه مهذب أتعبته هموم العمل، والتزام الوظيفة.. تشققت قدماه من صخور الجبال، وأدمتها أشواك الصحاري، فأمسى مكدود البال منهك القوى.. يبحث عن ساعة يتنفس فيها بهجة ومرحاً، فلاحَ له من حديث رفاقه الشباب ما قد يهب لــه ذلــك، فلما مر بذلك الزفاف وجد فيه من اللهو البــريء ما أزاح ركام الهم عن قلبه،

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ١-٣١٥ وابن حبان زوائده ٥١٥ وأبو نعيم ١٨٦: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي. قال ابن حجر : إســناده حســن متصل ورجاله ثقات. لكن أحد رجال هذا السند؛ هو ابن قيس من رجال الشــيخين؛ إلا أن الحافظ قال في التقريب: (مقبول) أي عند المتابعة، وله شاهد ذكره الذهبي في سيرته -٤١ من طريق مسعر بن كدام عن العباس بن ذريح عن زياد النخعي، حدثنا عمار بن ياسر. وفيه جهالة زياد،سكت عنه في (الجرح والتعديل ٣- ٥٣٦ ولم يعرفه الدارقطني. المغني ٢- ٢٤٣

ليبقى مشرعاً للسرور والابتهاج، ومع ذلك لم تكن المرأة بعيدة عن خياله وأحاسيسه، فقد كان - كأي شاب سوي - بحاجة إلى فتاة تملأ بيته وحياته بالحب والعفاف، وتمسح عن جبينه هموماً تقذف بها يوميات مكة المتعبة، لكنه لم يجد فتاةً بل وجد:

خديجة

بنت خويلد بن أسـد بن عبد العزى بن قصي.. امرأة ذات نسب وجمال، ولها من المال شيء وفير. سمعت بمحمد بن عبد الله فشدها ما سمعته: أمانة ورجولة واتزان، فتمنته زوجاً رغم كبر سنها بالنسبة إليه، ورغم زواجها من قبل، وتم لها ما أرادت، إلا أن أباها كان عقبة دون هذا الزواج الذي تتمناه كل فتاة، لكن حب خديجة وذكاءها كانا أكبر من تخريفات عجوز لا يدري ما يخرج من رأسـه.. لقد ملك محمد شغاف قلبها، فأعدت لوالدها حلاً لا ثاني له، وفخاً لا يستطيع الفكاك منه.

يقول أحد أبناء عم النبي: (إن رسول الله ﷺ ذكر خديجة - وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه[1]، فصنعت طعاماً وشـراباً، فدعت أباها وزمراً من قريش، فطعموا وشربوا حتـى ثملوا، فقالـت خديجة لأبيها: إن محمـد بن عبد الله يخطبنـي فزوجني إياه. فزوجها إياه. فخلقته، وألبسـته حلة - وكذلك كانوا يفعلون بالآباء - فلما سـرى عنه سـكره، نظر فإذا هو مخلق وعليه حلة، فقال: ما شـأني هذا؟ قالت خديجة: زوجتني محمد بن عبد الله.

قال: أُزَوِّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري، فقالت: أما تسـتحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سـكران، فلم تزل بـه حتى رضي)[2] وأذعن للأمر الواقع، أما محمد ﷺ فلم يكن صاحب شهوة عارمة، وإلا لكان له في صغيرات قريش ما يريد، لا سـيما وهو حلم كل فتيات مكة ، وسمعته تعطر الطرقات والأندية، كم من فتاة حسدت خديجة على فتاها...

---

(١) أي يرفض تزويجه.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ١-٣١٢ من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار وحديثه حسـن، انظـر التقريب (٤٨/١)، عن ابن عبـاس. وقد وردت أحاديث كثيرة وضعيفـة، تذكر أن خديجة كان عمرها في الأربعين وهو في الخامسـة والعشـرين عند زواجهما، وذكرت أحداث أخرى تجدها في (موسوعة السيرة) لكنها ليست بصحيحة.

تزوج لأنه كان يريد بيتاً واســتقراراً وحياة زوجية ســعيدة.. تزوج محمد وواصل حياته يشارك قومه في نشاطاتهم، ومن أهمها:

بناء الكعبة
ووضع الحجر الأسود

لما بلغ محمد عليه الســلام الخامســة والثلاثين من عمره، كانت الكعبة في هيئة تحتاج إلى ترميم وإصلاح، فقد كانت (مبنية بالرضم[١]، ليس فيها مدر[٢]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[٣]، وكانت غير مســقوفة، وإنما توضع ثياب عليها، ثم تســدل سدلاً عليهــا، وكان الركن الأســود موضوعاً على ســورها، بادياً، وكانــت ذات ركنين، كهيئة هذه الحلقة[٤]، فأقبلت ســفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قرباً من جدة انكســرت الســفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشــبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب، أعطاهم إياه، وكانت الســفينة تريد الحبشــة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا بالخشب، وقَدِمُوا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيت ربنا.

فلما أن أرادوا هدمه، إذا هُمّ بحية على ســور البيت، مثل قطعة الجائز، ســوداء الظهــر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنــا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته ســعت إليه فاتحة فاها، فاجتمعت قريش عنــد الحرم، فعجوا[٥] إلى الله، وقالوا: ربنا لم نرع، أردنا تشــريف بيتك وترتيبه، فإن كنــت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل. فســمعوا خواراً[٦] في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر.. أسود الظهر، وأبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق يجرها، وذَنَبُها أعظم من كذا، وكذا، ســاقط حتى انطلق بها نحــو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلــوا يبنونها بحجارة

---

(١) الحجارة يجعل بعضها على بعض.
(٢) المدر هو الطين اللزج.
(٣) أي أن جدارها قصير لدرجة أن العناق تستطيع اقتحامها، والعناق أنثى أولاد الماعز.
(٤) مثل حرف D.
(٥) رفعوا أصواتهم بالدعاء إلى الله.
(٦) الخوار هو صوت البقر والغنم والظبا والسهام.

الوادي.. تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السـماء عشرين ذراعاً)[1] وذلك بعد أن أخذوا الحجر الأسـود، وكان محمد ﷺ يشـاركهم في ذلك البناء، وكان ممن ينقل الحجارة من الوادي، عندما ناداه مناد لا يعرفه، ولا يسـتطيع أن يراه، وسـبب النداء، أنه كان (يحمل حجارة من أجياد -وعليه نمرة[2]- إذ ضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمـرة على عاتقه، فبدت عورته من صغر النمـرة فنودي: يا محمد، خَمِّر[3] عورتك. فلم يُرَ عرياناً بعد ذلك) [4].. فهل كان هذا النداء هو:

النداء الأول لمحمد ﷺ

جاء ذلك في وصف الكعبة وبنائها بعد أن سـمعت قريش (إن سفينة لروم أقبلت، حتى إذا كان بالشـعيبة انكسـرت، فسـمعت بها قريش، فركبوا إليها، وأخذوا خشبها، وروميـي يقال له: باقوم. نجار، بان[5]، فلما قدموا مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا عزوجل، واجتمعـوا لذلك، ونقلوا الحجارة، من أجياد الضواحي، فبينا رسـول الله ﷺ ينقل إذ انكشـفت نمرته فنودي: يا محمد عورتك. فذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رؤيت له عورة بعد)[6].

وكان الذي أشـار عليه برفع إزاره هو عمه العباس، فقد قال له: (يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة. ففعل ذلك، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً)[7].

وقد شـهد العباس هذه الحادثة، وكتمها، ولم يقصها إلا بعد زمن طويل على ابنه عبـد الله فقال: (كنت أنا وابن أخي -محمد ﷺ- ننقـل الحجارة على رقابنا، وأزرنا

---

(١) ما بين الأقواس ليس بحديث لكنه خبر صحيح الإسناد رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ عن معمر، عن عبد الله، عـن أبـي الطفيل. معمر أحد الأعلام الثقات، التهذيب ١٠-٢٤٣ وشـيخه عبد الله بن خثيم، تابعي ثقة حجة،التهذيب ٥-٣١٤ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) النمرة هي: كساء فيه خطوط بيض وسود.

(٣) أي غط عورتك.

(٤) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-١٠٢ من الطريق السابق.

(٥) أي كان يعمل في النجارة والبناء.

(٦) سـنده صحيـح، رواه البيهقي (١-٣٢٦). من طرق عن داود بـن عبد الرحمن العطار، وهو ثقة. التقريب (١-٢٢٣) عن ابن خثيم، وقد مر معناه، عن أبي الطفيل.

(٧) حديث صحيح. متفق عليه.

تحت الحجارة، فإذا غشـينا[1] الناس ائتزرنا، فبينا هو أمامي خر على وجهه منبطحاً، فجئت أسـعى إليه، وألقيت حجري - وهو ينظر إلى السـماء- فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره، وقال: نُهيت أن أمشي عرياناً. فكنت أكتمها مخافة أن يقولوا مجنون)[2].

ارتفعت الكعبة من جديد، وشمخت شموخ التوحيد.. تشير بوحدانية الله، وابتهجت قريش بصنيعها وترتيب بيت ربها، ولم يبق سوى رد الحجر الأسود إلى مكانه، ووضعه في زاويته من الكعبة، فمن سيعيده.. من سيضعه.. من الأحق بهذا الشرف؟

إن بناء الكعبة واسـع لدرجة اسـتيعاب الآلاف للمشـاركة فيه ونيل شرفه، لكن الحجر الأسود لا يحتمل أكثر من أذرع قليلة تحمله.

اختلفـت بطـون قريش وحق لها أن تختلف في مثل ذلـك الزمن المتكئ على تلك العقول المتصحرة، والتي لا تحل الأمور الصعبة إلا بأسـنَّة الرماح، وأنهار الدماء. ألم يحدثنا التاريخ عن حروب دامت عشرات السنين، وثار غبارها من أجل سنام جمل، أو مضمار خيل.. إنها أمة تعشق الدماء والسلب والنهب، وتهيم بالثأر، أما الثقافة المكتوبة والعلـم، فهما في كوكب، وهؤلاء في كوكب آخر.. إنهـا أمة لا تقرأ ولا تكتب.. أمة لم تؤلف كتاباً واحداً، ولم تبن مدرسة.. أمة ذات ثقافة شفهية تجيد عد الجماجم وسفك الدماء، والمفاخرة بصخور وأخشاب تسميها آلهة، لكنها تجمع على احترام هذه الكعبة وحجرها الأسود.

لذا فإن إبـل الأرض وخيلها وغنمها، والخصومة عليها، لا تطاول الخصومة على أقدس الأشـياء التي احتلت قلوب العرب قبل أراضيها: الكعبة والحجر الأسـود، فهل ستصبغ قريش كعبتها بدماء أبنائها.. هل هناك مخرج آخر لهذه الأزمة.. لهذه الكارثة التي تطل من موضع الحجر؟

كان الله رحيماً بهؤلاء العرب عندما قرروا تحكيم أول رجل يدخل عليهم المسجد، فكانت هذه القصة التي يرويها لنا شاهد عيان شارك وبنى، وحضر الخصومة.

---

(١) أي أقبلنا عليهم واختلطنا بهم.

(٢) حسـن، رواه يونـس بن بكير. ابن إسـحاق (٥٧) مـن طريق عمرو بن ثابت وهو ضعيف عن سـماك عن عكرمة عن ابن عباس عن أبيه. عكرمة ثقة وسماك قوي إلا عن عكرمة، لكن الحديث حسن انظر صحيح موسوعة السيرة. والقائل: كنت أكتمها هو العباس.

يقول هذا الرجل: كنت (فيمن يبني الكعبة في الجاهلية، ولي حجر أنا نحته بيدي أعبده من دون الله، فأجيء باللبن الخاثر، الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب، فيلحسه، ثم يشغر[1] فيبول. فبنينا حتى بلغنا الحجر، وما يرى الحجر منا أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل، يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: بل نحن نضعه. حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف.

فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع من الفج[2] فجاء النبي ﷺ.

فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له. فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو)[3] وبيده الكريمة أوقف سيلاً من الدماء كاد أن ينفجر، وفرقة بين أهل مكة كادت أن تبيدهم.. ساقه الله إليهم، فلما لمحوه أشارت قلوبهم قبل أصابعهم: أتاكم الأمين. اسم انتزعه من مكة كلها.. من رجالها ونسائها وأطفالها.. من شوارعها وأزقتها.. من أبوابها وجدرانها.. من نسمات الهواء وحبات الرمل.. مكة كلها سمته الأمين.

سمته الأمين وهو يرعى أغنامها، وسمته الأمين وهو يبيع ويشتري يتعامل معها، ولعل أشد الناس تأثراً بأمانته وصدقه: صفيه وحبيبه وصديقه: عبد الله بن أبي قحافة الملقب بـ(أبي بكر) لقد تأثر الجميع بأمانته لا سيما بعد أن بدأ:

يشتغل بالتجارة

فلقد كبر محمد وكبرت أمانته، فترك رعي الأغنام ليدخل إلى عالم آخر.. عالم الاقتصاد، ليبيع ويشتري، ويربح، ويتنامى نشاطه وماله وعلاقاته.. إنه الآن يقيم شراكة مالية متينة بينه وبين رجل من قومه اسمه: السائب بن أبي السائب، وكان السائب ينافس أبا بكر في القرب منه ﷺ.

---

(١) أي يرفع إحدى رجليه ليبول.

(٢) الفج: الطريق الواسع البعيد.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٣- ٤٢٥ وأبو نعيم في الدلائل من طرق عن ثابت بن يزيد، حدثنا هلال بن خباب عن مجاهد عن مولاه قال. وهؤلاء كلهم ثقات.ثابت ثقة، وكذلك هلال بن خباب العبدي، التقريب- ١٣٣و٥٧٥، ومجاهد تابعي ثقة معروف.

يحدثنا عن ذلك السائب نفسه فيقول: (أتيت النبي ﷺ فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال رسول الله ﷺ: أنا أعلمكم يعني به، قلت: صدقت بأبي أنت وأمي ﷺ مرحباً بأخي وشريكي)[١] كنت شريكي ﷺ في الجاهلية)[٢] فنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري)[٣].

أصبح لدى محمد مال، فاشترى عبداً اسمه زيد بن حارثة[٤] لكنه لم يعامله معاملة غيره لعبيدهم، بل لم يعمله معاملة الخادم.

لقد تبناه وسماه زيد بن محمد، وأحبه حبا شديدا كأنه من صلبه، ولم يشغله حب بناته عن حبه:

بنات محمد

أربع بنات كالزهرات: أكبرهن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة أصغرهن سناً. ملأن حياته وحياة خديجة بالجمال والبراءة، وملأ حياتهن بالحب والعطف والدلال.. يساعدن أمهن في ترتيب بيتهن وتنظيفه، ويلعبن خارجه مع صديقاتهن بين بيوت مكة الصغيرة، فإذا ما رأينه تسابقن إليه، أيهن تحضى بالعناق الأول والقبلة الأولى.. أيهن تأخذ منه ما يحمله من مشتريات، كم تدللن وهن يطالبنه بشراء ثياب جديدة، وألعاب جديدة، وكم خاطت لهن خديجة الألعاب والملابس، وكم جاءت إحداهن تبكي وتشتكي أخذ أختها للعبها، كم مرة أخذتهن زينب خارج البيت، وكم صعدت رقية على أكتافه، وامتطت أم كلثوم ظهره، وكم أقبلت فاطمة تحبو نحوه وهي تلثغ بأحرف جميلة.. وخديجة تنظر إلى تلك المشاهد الساحرة وتبتسم، كم سرحت شعورهن وانتقت لهن الحلي والملابس، كم تشعر خديجة بالسعادة مع هذا الزوج الجميل الرائع، وكم هي سعادتها وهي ترزق بهن بعد سن الأربعين..

أما زوجها فقد أجلّه الجميع واحترمه وأحبه كل من عرفه، ولم يقتصر هذا الحب على احتلال القلوب. لقد انداح في كل اتجاه حتى لقد أحبته الأشجار والأحجار:

---

(١) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٢) زيادة عند الحاكم (٢١-٦١).

(٣) سنده قوي رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ١٠٧ حدثنا أحمد بن جميل أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا المسعودي حدثنا الأعمش عن مجاهد: حدثني مولاي عبد الله بن السائب. والمسعودي هو الثقة كما في الآحاد والمثاني ٢- ٣٣ واسمه عبد الملك بن معن.التقريب ٣٦٥

(٤) سيمر معنا بعد قليل حديث فيه إشارة إلى ذلك وستأتي أحاديث أخرى.

حتى الحجارة تحبه

حجارة صماء في مكة كانت تسلم عليه إذا مر بها، فكان يحمل ذكراها في قلبه ويحدث بها أصحابه.. يحدثهم عن ذلك الحب فيقول: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)[1].

إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدر ما نشهده من صمت وسكون، لكن الكون يريد قلباً.. يريد عقلاً ليكتشف ذلك المعبد فيه. وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمداً، أم وهب محمداً إدراكاً ليفهم لغة الحجر، فكان ذلك السلام، وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ﷺ ومكة، وانتهى بمحمد وما وراء مكة.

هذا السلام، وذلك الهاتف الذي أمره بتغطية عورته، والطائران اللذان شقا صدره في مرابع أمه حليمة ... أشياء غريبة تحدث لا يجد لها تفسيراً، فيلجأ إلى حبيبته خديجة، إلى قلبها الدافيء فيقول يا خديجة: (إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جنن - فتقول له: لم يكن ليفعل ذلك يا ابن عبد الله)[2]، ثم تستأذنه في الذهاب لابن عمها القس النصراني الطاعن في السن (ورقة بن نوفل) لتسأله، عله يجد جواباً في الكتاب المقدس لما يحدث لزوجها.

فيجيبها ورقة قائلا: (إن يكن صادقاً، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأؤمن به)[3] حتى هذا القس كان يتوجس.. ينتظر، فالوضع على الأرض أكثر من سيئ، وبحاجة إلى منقذ يزيح هذه الأصنام والخرافات الجاثمة، ويرتقي بهذا الإنسان المرتكس في الوحل، أما محمد فكانت أقواله وسلوكياته تقول:

لا أصنام

كان محمد ﷺ يحس بتفاهة هذه الطقوس وتخلفها.. كان يحتقر أصنامهم، ويرفض كل ما يمت لها بصلة. ها هو مع ابنه بالتبني زيد بن حارثة.. أمام أحد الأصنام، وها هو

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٧٨٢.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ١-٣١٢ من طريقين عن حماد: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس. وأخبرنا عمار بن أبي عمار.. مرسلاً. والمسند أصح، لأن الراوي عن حماد في المرسل هو عفان ثقة ثبت. والرواة عن حماد في المسند فهما ثقتان، وهما: مظفر بن مدرك والحسن بن موسى الأشيب.

(٣) حديث حسن هو السابق.

زيد يحدثنا عما جرى فيقول: (كان صنم من نحاس يقال له إســاف، أو نائلة يتمسح به المشركون. إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ، وطفت معه، فلما مررت مسحت به. فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يكون. فمسحته.

فقال رســول الله ﷺ: ألم تُنَه؟ فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

حتــى في الحج، وفي يوم الوقوف بعرفة.. يخالــف قومه الذين تطرفوا، فأرادوا منح أنفســهم امتيازاً على بقية الناس، وذلك بوقوفهم عشية ذلك اليوم بمكان يقال له مزدلفة. أما هو ﷺ فقد كان يخالفهم.. كان يقف بعرفة من بين قومه كلهم.

لقد (كانت قريش، ومن يدين دينها - وهم الحمس[2]- يقفون عشية عرفة بالمزدلفة ويقولون: نحن قطن البيت. وكان بقية الناس والعرب يقفون بعرفات)[3].

يقول أحد الذين رأوا محمدا يخالف تطرف قومه واسمه: جبير بن مطعم: (رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس "من بين قومــه" حتــى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل لــه)[4]. ويقول جبير أيضاً: (أضللت بعيــراً لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة. فقلت: هذا من الحمس، فما شأنه هاهنا)[5].

كان امتيــاز قريــش هنا زائفاً، ففر الصواب من بين جموعهم واســتقر على بعير محمد ﷺ. تلك هي الفطرة الســليمة التي تأبى الانحــراف، وتلك هي الغربة المريرة التي يعانيها أفذاذ من الـ:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي من طرق عن الحسن بن علي بن عفان، وهو ثقة التهذيب ٢-٣٠٢ حدثنا حماد بن أسامة وهو ثقة ثبت، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث التهذيب ٩-٣٧٥ عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. وهما تابعيان ثقتان من رجال التقريب، عن أسامة بن زيد عن أبيه.

(٢) سموا كذلك لتشددهم في دينهم وقيل لأنهم كانوا لا يستظلون أيام منى.

(٣) متفق عليه.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد٤-٨٣: حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عثمان بن أبي ســليمان، عن نافع بن جبيــر بن مطعم عن أبيه. عبد الله وعثمان ونافع كلهم تابعون ثقات من رجال التقريب ٢٩٧و٣٨٤و٥٥٨.

(٥) متفق عليه.

غرباء

كان محمـــد ﷺ غريباً في أرض مكة، وجوه يعرفهـــا وقلوب ينكرها. كان موحداً على دين أبيه إبراهيم.. يدرك أن الله أعظم شـــأناً من أن يصاغ من حديد أو نحاس، أو ينحت من الصخر أو الخشـــب. كان يدرك عظمة هـــذا الكون وعظمة خالقه، وفي الغربة نفســـها يعيش أفراد قليلون جداً.. يتوجهون إلى خالقهم الأحد، ويعرضون عن هـــذه الأصنام التي زاحمت الناس على هذه الأرض بغير حق، فعبر الروابي والهضاب والصحاري.. يسيرون حثيثا بحثاً عن الحق..

زيـــد بن عمرو بن نفيـــل، وورقة بن نوفل.. بعض هـــؤلاء الغرباء.. أصحاب عقول ناضجة، لم يستسيغوا تلك الحجارة الصماء البكماء الموضوعة فوق الكعبة، ولا ما ينسج حولها من أســـاطير وخرافات، فأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد (خرج إلى الشام يسأل عـــن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من اليهود فســـأله عن دينهم. فقـــال: إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني؟ فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

قـــال زيد: وما أفر إلا مـــن غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شـــيئاً، ولا أستطيعه فهل تدلني عليه؟ قال اليهودي: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قال زيد: وما الحنيف؟ قال اليهودي: دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيـــد، فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله.

قال زيد: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله. ولا من غضبه شيئاً أبداً، ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً.

قـــال زيد: وما الحنيف؟ قال النصراني: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم)[1].

---

(١)حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١.

ويعــود زيد إلى مكة غريباً كيوم غادرها.. يرمق مكة ويرمق جموعها.. أحقاً كانت هــذه الأرض أرض التوحيد؟!! ما بالهم يشــركون؟!! ينظر نظرة من ملأ قلبه الأســى واللهف.. تشــاهده وتتعجب من حاله الطفلة أسماء بنت أبي بكر.. تراه (مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم)[1]. ثم يؤدي حركة غريبة كغربته.. حركة تتوهج شوقاً إلى الله، وشوقاً يعبر عما في قلبه من حرقة، تقول أســماء: (ثم يســجد على راحته، وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم)[2].

لقد كان هذا الغريب إنســاناً عظيماً، ولا يتفوق عليه في ســلامة الفطرة وصفاء الفكر إلا محمد ﷺ. لقد كان يرى الرجل يحمل ابنته الصغيرة على ذراعيه.. مسرعاً بها نحو حفرة تلتهب بالرمضاء، ليدســها فيها، فينهض زيد مسرعاً ويعترض طريقه، ويتوســل إليــه ألا يفعل، فإذا أصر (أن يقتل ابنته قــال: لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها. فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها)[3]. كان زيد يأخذ تلك البريئة الضعيفة.. يحملها إلى بيته يرعاها ويحنو عليها، لأنه يعرف أن الله أرحم من عباده، وأنه لم يخلقها لتدفن بعد مولدها.

أمــة وحــده زيد بن عمرو بن نفيــل.. رجل بمقاييس أمة.. هكــذا عاش، وهكذا سيبعث عندما تبعث الأمم (أمة وحده يوم القيامة)[4].

عاد زيد إلى مكة، ولم تكن عودته ليأســه مما ملأ الأرض من رموز الشــرك، بل عاد لينتظر، فلقد أرشده بعض الرهبان إلى قرب مخرج نبي مرسل في أرض الحجاز. زيد نفســه يقول: (شاممت النصرانية، واليهودية فكرهتهما، فكنت بالشام، وما والاه،

---

(١) ســنده صحيح. رواه ابن إســحاق ٩٦، حدثني هشــام بن عروة عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر. ابن إسحاق لم يدلس وشيخه ثقة معروف، ووالده أوثق منه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩١.

(٤) ســنده قوي رواه الطبراني ٥-٨٦ من طريق أحمد حدثني حماد بن أســامة وأبو يعلى ١٣-١٣٧ من طريق آخــر كلاهما عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي ســلمة و يحيى بــن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة عن أســامة بن زيد عن زيد بن حارثة، وهو ســند حســن رجاله ثقات إلا ابن علقمة فهو صدوق له أوهام التقريب ٤٩٩ أي حسن الحديث.

حتـــى أتيت راهباً في صومعة، فوقفـــت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبـــادة الأوثان، واليهودية، والنصرانية. فقال لـه الراهب: أراك تريد دين إبراهيم، كان حنيفاً، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يصلي ويســـجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحـــق ببلدك، فإن نبياً يبعث من قومك في بلدك، يأتي بدين إبراهيم بالحنفية، وهو أكرم الخلق على الله)[١].

أمـــا الرجل الآخر، والغريب الآخـــر فهو "ورقة بن نوفل" الذي انتظر ذلك الخروج كما انتظر زيد، وبقي ينتظر نزول الوحي الذي يبدو أنه ليس ببعيد، فهذه الأمور:

لا تحدث إلا لنبي

تتصاعد الأحداث حول محمد ﷺ، وتنحت في نفسه الوجوم والاستفهام.. أصوات وأضواء.. أسرار وأقفال، وماذا بعد..؟

النـــاس لن تصدق، والصمت مرير، وليس ســـوى خديجة مـــن منصت. ربما لدى بعض الناس من تفســـير، لكن من هذا البعض؟ ربما أخطأت أقدام الســـؤال طريقها، فتكون النتيجة كلمات كالحميم.. كلمات لا تطاق: محمد مجنون.

لكن للّيل نهاية، ولا بد أن لهذا النفق من مخرج. إن الله رحيم ولن يترك هذا العبد الحائر في حيرته، فها هو الوحي يبدأ خفيفاً كهواء البحر المنعش.. يبشر بحياة جديدة لمحمد، وللأرض كلها، فكان (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[٢]. أي أنها تتحقق وتحدث كما يتحقق الصبـــح ويأتي، ثم أصبح يفضل العزلة والتعبد في غار على قمة جبل يقال له حراء (حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العـــدد - قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[٣].

---

(١) حديث حســـن رواه ابن ســـعد ١-١٦٢، أخبرنا علي بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه عـــن الشـــعبي، عن عبد الرحمن بـــن زيد بن الخطاب قال زيد.. علي قال عنه ابـــن معين: ثقة، ثقة، ثقة، وإسماعيل صدوق يخطيء التقريب ١٠٩ أي حسن الحديث، وفي والده ضعف، ويشهد له حديث البخاري السابق، والطيالسي ٢-١٦١ وفيه جهالة نفيل.

(٢) حديث صحيح. متفق عليه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٤.

ثم يعود لذلك الغار والذي يستغرق الصعود إليه أكثر من ساعة، ولم يكن ذلك طوال العام بل (في كل سنة شهراً يتحنث، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة)[1].

لم يكن يمارس العبادة فقط في ذلك الشهر، بل كان ينزل أحيانا ليقوم بأعمال جميلة ورائعة فـ (يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد، وذلك الشهر: رمضان، خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد به)[2].

ليلة الحياة والقرآن

استمر محمد عليه السلام على ما كان عليه فـ (كان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها)[3]، فكان نهاره على ذروة ذلك الشاهق.. تأمل.. سياحة في هذا الكون الصامت الناطق.. الناثر في الصدور المنشرحة نوراً يهمس: لا إله إلا الله، أما ليله، فتبتل وتضرع، وكأنه يغرف من الليل سكونه وخشوعه.. كأن رياحه الباردة وهي تمر بباب الغار.. تبشر بعودة محبوب طال انتظاره.

واستمر ذلك الحب وتلك المناجاة، حتى جاءت تلك الليلة من ليالي شهر رمضان، وفي لحظة سكون مهيبة، وبعد غياب طويل، هبط كبير الملائكة (جبريل عليه السلام) على قمة الجبل، هبط وتقدم نحو باب الغار، فشعر محمد بخوف وقشعريرة من هذا الغريب الذي يسد باب الغار..

ها هو يقص أحداث تلك الليلة وما حدث له فيقول أنه جاءه (الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ.

(١) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٢) حديث جيد الإسناد. انظر تخريجه لدى نهاية النص الذي بعده وهو جزء منه.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣).

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني.. زملوني.

فزملوه، حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة - وأخبرها الخبر-: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[١].

إذاً فهذه هي النبوة، وتلك الكلمات هي أول ما نزل من القرآن العظيم.. كلام الله الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.. يهمي مطراً ينعش وجه الأرض الشاحب بالشرك وأشواكه.. المحفور بالجهل والتخلف، والسحر والشعوذة، فيرويه حياة ونضارة، ليمسك الإنسان المؤمن من جديد بزمام الخلافة في الأرض، فيعمرها بالحب والعدل والسلام، فقد تعبت البشرية من ملاحقة الطواغيت والأشرار لها بأسلحة الظلم والضلال.

نزل القرآن فقام محمد ﷺ برسالة ربه، وأسلمت خديجة فكانت أول من أسلم على الإطلاق، وفرح ورقة وأسلم وبشر رسول الله ﷺ فكان أول من أسلم من الرجال،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

لكنــه لم يعــش إلا فترة قصيرة (ثم لم ينشــب ورقــة أن توفي)[1] بعــد أن زفر بتلك الأمنية، وتمنى الشــباب للكدح لا للمتعة، للبذل والفداء لرسالة جديدة، ولنبي يتربص لـه الاضطهاد خلف أشجار مكة، ويكمن لـه الظلم في طرقاتها. مات ورقة بعد أن حباه اللــه برؤية النبي الذي طالما ذرع الأرض بحثــاً عنه، وقبع على قوارع المجهول ينتظره. هذا بعض ما حدث على الأرض، أما في السماء فهناك:

ثورة في السماء

فعندما نزل الوحي اشــتعلت أرجاء الســماء حمماً، ولهيباً وشرراً يفتك برؤوس الشــرك ومصانــع الخرافة والضلال.. شــياطين الجــن الذين أرهقوا بعض البشــر ودحرجوهم للحضيض. شــهب غريبــة بدأت تقصفهم، وذلك عندمــا (يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك.

فقال لهم إبليس: هذا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، فأتوه، فأخبروه. فقال: هذا الأمر الذي حدث في الأرض)[2].

إن الله قد وهب الجن قدرات لكن منهم شــياطين أســاؤوا اســتغلالها.. جعلوا يسترقون السمع، ثم يلقون ما استمعوه في بركة من الكذب، ثم يسقونها الكهان الذين يتصلون بهم ويتقربون إليهم، فزادوهم رهقاً وتخويفاً، وجعلوهم يرتكســون في الشرك والشــعوذة، والجن قبائل.. منهم الصالحون ومنهم الفاســدون، و(فلما بعث النبي ﷺ دحــروا بالنجوم، فكان أول من علم بها ثقيف، فــكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شــاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيراً، فأســرع الناس في أموالهم. فقال بعضهــم لبعــض: لا تفعلوا، فإن كانت النجوم التي يهتــدون بها، وإلا فإنه لأمر حدث. فنظــروا فإذا النجوم التي يهتدى بها كما هي لم يزل منها شــيء، فكفوا، وصرف الله

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري. بدء الوحي (٣).

(٢) ســنده صحيح. رواه الطبراني في الكبير ١٢-٤٦، حدثنا عبد الله بن أبي مريم حدثنا محمد بن يوســف، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن ابن جبير عن ابن عباس، ورجاله ثقات ويشهد له ما بعده.

الجن، فسمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا، وانطلقت الشياطين إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا حدثٌ حدثَ في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة، فقال: هاهنا الحدث)[1].

وهذه قصة أخرى يرويها ويروي مثلها رجل من رموز قريش وأقويائها اسمه: عمر بن الخطاب:

كاهن وجنية

في يوم بعثته ﷺ كان لأحد الكهان ارتباطه مع جنية، يتحدث الكاهن إلى رجل من أقوى رجالات قريش اسمه عمر بن الخطاب عن جنيته تلك، وعن فزعها في ذلك اليوم العظيم فيقول: (بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني، أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها
ويأسها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص وإحلاسها

فقال عمر: صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليلح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله.

فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح.. يقول: لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا[2] أن قيل: هذا نبي)[3]. لقد ثار الجن واضطربوا وحاروا، وضاقت الأرض بهم والسماء، وأمسى شبح المستقبل خلف دخان الشهب الحارقة، كالجريح يترنح بين آثار القنابل، فلقد أمسى مستقبل الشياطين مخيفاً مرعباً مجهولاً بعد نزول القرآن.. بعد بعثة هذا النبي ﷺ رغم:

---

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٣٢٨/٧ وابن سعد ١٦٧/١ وغيرهم من طرق عن حماد وغيره عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهذا سند صحيح لولا اختلاط عطاء في آخر عمره، لكن بعض العلماء قال: إن حماد بن سلمة سمع منه قديماً، وسواء كان ذلك أم خلافه فالحديث حسن بما قبله.

(٢) أي لم يمر وقت قصير حتى انتشر خبر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. مناقب الأنصار ٣-١٤٠٣.

توقف الوحي

أجـل لقد انقطـع جبريل فلم ينزل بعد تلك الليلة (وفتـر الوحي فترة حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] وصار بعدها في حيرة لا يدري ما يفعل، ماذا بعد (اقرأ).. ما رسالته .. وما مهمته ..؟ ما المطلوب منه ؟

وللمرء أن يتصور أحاديث النفس ووحشتها في مثل ذلك الظرف. لكن الوحي عاد من جديد، وعادت معه الحياة.

عودة الوحي

يتحـدث ﷺ عن ذلك اليوم الذي عاد فيه الوحي، وعن تلك المفاجأة التي أخافته حتى وقع على الأرض فيقول: (فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء. فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي، فجثثـت منه فرقاً، حتـى صرت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلـت: زملوني.. زملوني.. فزملوني فأنـزل الله عز وجـل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[2].

سـقط عليه السـلام على الأرض لهول مـا رأى، فهل رأى جبريـل على صورته الحقيقية الرهيبة المهيبة؟ ربما.

لكـن القرآن جعله يفيق: قم يا محمد، وأزح عنك هذه الأغطية، فما كان بالأمس حلمـاً جميلاً.. أصبح اليوم حملاً ثقيلاً، قم يا محمد، فالأرض مليئة بالقلوب المعتمة، والبطون الخاوية، والأصنام والشرك واستبداد الطواغيت.

ها قد قام محمد ﷺ يحمل سـطرين من القرآن.. سـطرين طالما بحثت عنهما أفكار البشـر، وصل من وصل وتعثر الملايين، فهل هناك حياة دون علم.. دون قراءة.. دون كتابة.. دون نظافة.. دون ترك للأوثان ووحل الخرافة؟ هل هناك حياة دون إقرار بأن هذا الخالق الكريم هو الإله العظيم الواحد الأحد، ولا معبود سواه؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٩٤.

(٢) سورة المدثر. والحديث صحيح متفق عليه.

قام محمد ﷺ بتنفيذ الأمر سـراً في البدايـة، فالأمر جد خطير، لأن للأصنام جيوش من الغضب مستعدة لنحر من يقترب منها، بل وتقديمه قرباناً لها، وقد تناسلت فـي عقول القوم، حتى أصبح الفرد يصنع صنماً يتبلغ به في سـفره، ولو اضطر إلى صنعـه مـن تمرات هي زاده الوحيد. فإذا ما عاث الجـوع ببطنه، قام يدس هذا الإله الرخيص في جوفه، لكي يطارد ذلك الجوع المحرق.

ترى هل علم أن جوعه قد مزق إلهه؟ لا أدري.

إن مـن بلغ بهـم الحمق هذه الدرجة يصعب انقيادهم لهـذا الدين الجديد، فقد عبثت الأهواء في عقولهم حتى أفسـدتها، والعلاج لا بد أن يبدأ بالعقل والفكر، وأمام رسول الله ﷺ ودعوته الجديدة ركام هائل من العادات والطقوس والتقاليد الموروثة.. يتداعى بعضها على بعض على مر السـنين، حتى أمست أساطيل من الأوثان والكهان، والناس لها عبيد ذليلة قد حنت ظهورها ركوعاً، فمن يريد رفع الرؤوس للسماء فعليه بالصبر والحذر الشـديدين، ولا بد من أن يُسِـرَّ دعوته ويخفي اتباعه حتى من أقرب الناس إليه إذا ما أحس بخوف منه، فهؤلاء القوم يفني بعضهم بعضاً من أجل ناقة أو حصان، فما الكوارث التي سيرتكبونها من أجل المساس بآلهة يذبحون لها آلاف النياق ليرضوها بزعمهم؟!!! فليكن الأمر:

سرِّيَّة

السـرية الشـديدة يجب أن تحيط كل عمل يقوم به هذا الرسول الأمين ﷺ، فعلى جدار التاريخ الطويل قد علقت رؤوس الأنبياء والمصلحين والدعاة، وأعواد المشانق لا تزال رطبة بدمائهم. ضريبة الإخلاص فادحة تكلف كثيراً، وكثيراً من الدماء، لكن لهذه الدماء الزكيـة روائح وأطياف تعيش.. تنعش الأجيال، وتبعـث الحياة فيهم للخلاص، والحق لا يخفـى.. يعرفه الجميع. عندما يرونه يقولون: هـذا هو الحق. ولا يحتاجون لتمييزه إلى غسل أعينهم ولا إلى عركها، فما سبب التأخر.. لماذا تثقل الخطى؟ السبب هو:

الوحوش

وحوش عملاقـة تمتد داخل كل فرد منا.. كأننا لهـا ثياب. وحوش تتصلب حتى تشـلنا، وتعجزنا حتى عن الحبو نحو الحق، وإذا كان الحق يرفضها أو يريد إخراجها

مـــن ثيابها، فـــأي مهمة أمام ابن عبد اللــــه ﷺ، وأي حذر يجـــب أن يتوخاه في ذلك العصر.. عصر الوحوش.. عصر العادات والتقاليد المخيفة؟

هذا ما فعله ﷺ عندما بدأ بدعوته، فقد أســـلمت خديجة، وأسلم ورقة، فكتمت خديجة إســـلامها ومات ورقة، فبقي الســـر مكتوماً، ولما أمر ﷺ ببدء الدعوة والإنذار استمر يدعو داخل سراديب من الكتمان والتستر.. استمر يسير تحت الأرض.. يغرس في باطنها جذوراً قوية تؤتى ثمارها بعد حين، بعد أن ترتفع على سطح الأرض، عندها يستحيل انتزاعها أو إنكار وجودها. قد يقول قائل: هذه مبالغة.. فالرسول ﷺ معروف لدى قريش، وأصحابه معروفون، ولم تكن دعوته ســـراً فـــي يوم من الأيام، فأصحابه محميـــون من قبل قبائلهم وأهلهم. فأين تلك الســـراديب والخنـــادق التي تزعم.. أين الدليل على ما تقول؟

الإجابة واضحة كشعر الشمس الذهبي.. الإجابة تكمن في مشكلة لم تحسم حتى الآن ألا وهـي:

من أول من أسلم..؟

من أول من أســـلم بعد خديجة: أبو بكر الصديق، أم علي، أم غيرهما رضي الله عنهم جميعاً؟ لماذا لم تحســـم هذه الإشـــكالية؟ دعونا أولاً نتوجه إلى إســـلام كل فرد منهم:

إسلام أبي بكر الصديق

أبو بكر الصديق.. اســـمه: عبد الله بن عثمان بن أبـــي قحافة.. صديق الطفولة والشـــباب.. ذهب إليه رســـول الله ﷺ وحدثه أن الوحي قد جاءه في غار حراء، وأن دين الله يأمر بالتوحيد والعلم والنظافة والجمال وترك الأصنام، فما زاد أبو بكر على كلمة واحدة: صدقت. أما لماذا..؟ فلأنه لم يجرب على رسول الله ﷺ كذباً، وهو الذي عاشره منذ الطفولة. لقد عرفه عابداً خاشعاً تاركاً للأصنام، فهل سيكذب على ربه.

خلد التاريخ كلمة أبي بكر وحفظها لـه، ونال من رســـول الله ﷺ شـــهادة تتناقلها الأجيال.. ففي أحد الأيام كان الرسول ﷺ مع أصحابه، ولعل أحداً منهم تناول أبا بكر

فأغضبه، فغضب ﷺ لأبي بكر، وقالها ليس للصحابة فقط، بل للأمة كلها.. للأجيال كلها: (إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي)[1].

ولما حوصر أبو بكر ببعض الكلمات، أرغمه هذا الحصار على أن يزفر بهذه الكلمات: (ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم، ألست صاحب كذا)[2].

ولما سئل أحد أبناء عم رسول الله ﷺ عن أول من أسلم، أرشد سائله إلى أبيات من الشعر قالها شاعر من الصحابة:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة — خير البرية أتقاها وأَعْدَلها

الثاني التالي المحمود مشهده — فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

بعد النبي وأوفاها بما حملا — وأول الناس منهم صدق الرسلا[3]

هذه الأبيات الشجية ملأت القلوب بأيادي أبي بكر ومبادراته لخدمة الإسلام. لقد سمته الأمة بـ (الصديق)، وقدمت صفته على الاسم الذي سماه به أبوه، فإذا ما نطق أحد باسم (الصديق) لاحت تلك الأيادي البيض المبسوطة في الأذهان، وتذكر الناس صديق نبيهم وحبيبه فترحموا عليه.

إسلام علي

علي بن أبي طالب.. أحد فتيان الإسلام، وابن عم رسول الله ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام. هناك من يقول: إنه أول من أسلم[4]. علي رضي الله عنه ليس منقطعاً

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٩

(٢) سنده صحيح، رواه الترمذي ٥-٦١١ وابن حبان ٥-٢٧٩ من طرق عن شعبة عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال أبو بكر. أبو نضرة المنذر بن مالك تابعي ثقة. التقريب٥٤٦ والجريري ثقة اختلط. التهذيب ٤-٧، وشعبة سمع منه قديماً فصح السند .

(٣) خبر ليس بحديث وهو حسن بطرقه، رواه الحاكم ٣-٦٤ وغيره عن مجالد بن سعيد عن الشعبي سألت ابن عباس، ومجالد ليس بالقوي لكن روى يعقوب بن سفيان (سيرة ابن كثير ١ - ٤٣٥) عن مالك بن مغول وهو ثقة عن رجل: سئل ابن عباس. وهذا الرجل إن لم يكن الشعبي فيقوي روايته السابقة.

(٤) لكونه تربى في بيت رسول الله ﷺ . لكنه ليس هناك حديث صحيح يدل على أنه تربى في بيته، فالذي ورد غير صحيح بل من قول ابن إسحاق ومجاهد. البيهقي ١٦٠/٢.

عن رســول الله ﷺ، لكن أن يكون علي أول من أســلم فهذا ليس بصحيح، لأن خديجة هي الأسبق.. هي أول إنسان قابله بعد انحداره من الجبل خائفاً.

قال أحد الصحابة: (أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه، أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب)[١]. وقال آخر: (أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي. وقال مرة: إن أول من أسلم مع النبي ﷺ بعد خديجة علي)[٢].

وهناك آخرون غير أبي بكر.. غير علي، ظنوا أنهم أول من أســلم. دعونا نســتمع إلى أقوالهم.. دعونا نعرف أخبارهم، لنعرف بعدها سر ذلك الازدحام على الصدارة.

سابقون.. سابقون

لدينا سابق آخر هو: سعد بن أبي وقاص الذي يقول: (ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أســلمت فيه، ولقد مكثت ســبعة أيام، وإني لثلث الإسلام)[٣]. ترى هل كان سعد رضي الله عنه ثلث الإســلام؟ لا شك أنه يقصد أن خديجة ورسول الله ﷺ هما بقية أضلاع ذلك المثلث.. ثلثي الإسلام، وهو المكمل لهما.

حتــى ذلك الغريب القادم من ديار غفــار، والذي يطوي الأرض يبحث عن محمد ﷺ.. ذلك الغريب المســمى (بأبي ذر) يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت النبي ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ)[٤].

---

(١) سنده صحيح خصائص النسائي ٢ عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة، سمعت زيد بن أرقم. عمرو ثقة التقريب ٤٢٧ وشيخه طلحة بن يزيد ثقة، اتهذيب ٥-٢٩.

(٢) ســند حســن، رواه أحمد ١-٣٧٣ من طريق أبي عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس. عمــرو مخضرم ثقة عابد التقريب ٤٢٧ وأبو بلج حســن الحديث. التهذيب ١٢-٤٧، وأبوعوانة هو وضاح بن عبد الله ثقة مشهور التقريب ٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٦٤.

(٤) حديث حســن رواه الحاكم ٣-٣٤١: حدثنا الحســين بن محمد بن زياد. ثقة حافظ ١٦٨ حدثنا عبد الله بن الرومي صدوق ٣٢٢، حدثنا النضر بن محمد الجرشي ثقة التهذيب ١٠-٤٤٤ حدثنا عكرمة بن عمار وهو حســن الحديث عن أبي زميل ســماك بن الوليد الحنفي ليس به بأس ٢٥٦ عن مالك بن مرثد تابعي ثقة، وللحديث شاهد عند البخاري.

عمرو بن عبسة سابق آخر، يقول: (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام)[1].

أما بلال بن رباح، فلا أعرف أنه قال عن نفسه ذلك، لكن غيره شهد له بالمسارعة للإسلام، فهذا: عمرو بن عبسة يشهد بأن بلالاً كان ثلث الإسلام، فقد قال عمرو للرسول ﷺ: (فمن تبعك على هذا..؟ قال: حر وعبد. يعني أبا بكر وبلال)[2].

وهناك غير بلال ممن هبوا لقبول الحق واعتناق الحقيقة، شهد لهم بذلك التاريخ، فهذا عبد الله بن مسعود يقول: (أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[3] رضي الله عنهم جميعاً.

عمار أحد هؤلاء المستضعفين: (رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد، وامرأتان، وأبو بكر)[4].

هذه الكلمات كلها صادقة، لكن لماذا يلوح التناقض في ألفاظها.. لماذا؟

للدعوة أسرارها

ماذا يُتَوقع من جيوش الأصنام: أصنام العادات والتقاليد، وشرف الآباء والأجداد، والثارات، وأصنام الحجارة المرصوفة على الأرفف وفي مداخل البيوت، وحتى في خِرج المسافر، وقبل ذلك كله فوق حجارة الكعبة.. تسال لها الدماء، ويحلف بها، وتستشار ويصلى لها، ويذاد عنها بالمال والبنين وزينة الحياة كلها؟

ماذا ينتظر أن تفعل كل هذه الأشياء بنبي يتيم..؟

ماذا يتوقع من قوم لا يقرأون ولا يكتبون ولا يحسبون، ولا يعرفون للثقافة كتابا أو مدرسة؟

---

(١) حديث حسن رواه الطيالسي ١٥٧ حدثنا الربيع بن صبيح قال حدثنا قيس بن سعد عن رجل من فقهاء أهل الشام عن عمرو بن عبسة. وفيه الربيع صدوق سيء الحفظ بالإضافة إلى جهل التابعي، لكن له شواهد كثيرة عند أحمد ٤-١١١ وغيره

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١-٥٦٩

(٣) سنده حسن رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة ، وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً - ابن كثير ١-٤٩٤ وبه يتقوى.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٣٨.

هــل بالإمكان تغيير هــؤلاء الوثنيين المغرقين في التخلف، الذيــن لم يؤلفوا كتابا واحداً، ولم يبنوا مدرسة ؟

ومــا الذي ســيمكن محمداً من تغيير هذه العقول المتحجرة، وهو لا يملك ســوى شهادة قومه بأنه: صادق أمين؟

مــاذا يُنتظر أن تفعل كل هذه الجيــوش بفرد أو أفراد يريدون أن يجتثوا الخرافة من القلوب، ويغسلوا الأرض والنفوس منها؟

إن مــن أشــعلوا أربعين عاماً بلهب الحروب، وتركوا جماجمهم تمتصها الشــمس والرمضاء، وخلفوا نســاءهم تنوح حتى أبكت الخيام، من أجل بعير أو حصان.. إن من ارتكبوا ذلك لعلى اســتعداد لارتكاب أشــرس من ذلك، من أجل عقيدتهم وأصنامهم وميراث أجدادهم، فهل يظن أحد أن يقدم محمد ﷺ قائمةً بأســماء الســابقين إلى دعوته، ويأمرهم بالمجاهرة بها أمام قريش.. هكذا وبكل سذاجة.؟!

إن هــذا النبي لــم يأتِ لمكة فقط.. مكة خطوة أولــى، والأرض كلها طريق. فهذا النبي جاء ليحيي أموات القلوب، لا ليقامر بحياتهم، لكن لماذا يخاف من إظهار دعوته، ويأمــر أتباعه بهذا الكتمان والتســتر مــع أن الله قد أنطق له الأحجــار، وأمال عليه الأشــجار وأظله بالسحاب، وشق صدره دون أن يمس بأدنى أذى؟ أليس الله بقادر أن يحميه وينجيه وينصره وأصحابه؟

بلى والله.. إنه على ذلك لقدير. لكن دين الإســلام جاء عقيدة وحياة للبشر، ولن تستقيم حياة البشر بالمعجزات ينتظرونها كلما أقعدهم الخمول على قوارع الطرقات. ستســتحيل الحياة انتظار، وانتظار، وعيون ترقب المجهول. لم يخلد نبي، ومحمد ﷺ سوف يموت، وبعده ترفع المعجزات.. عندها الأمة أيضاً سوف تموت.

لكن دين الإســلام لم يمت ولن يموت، لأنه نزل للبشــر، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يطالبهم بالمستحيلات، ولم يدعهم إلى مثاليات ليست بمقاييسهم.

لا يقول لهم: كونوا ملائكة. ولا يقول: أنتم شــياطين. بل يقول: كونوا بشراً، ولكن صالحين. وفي الطريق عثرات، لكن الصالحين بشر يعثرون وينهضون، والإسلام يرفع الإنسان من وهدة الحياة وحفرها، ولا يرتفع أو يتخلى عنه لأنه نزل من أجله، فبتوفيق

الله ثم بجهد رسـول الله ﷺ وأصحابه والمسلمين من بعدهم سوف يستمر الإسلام.. سوف ينتصر. ذلك هو ما أراده الله. وبضعفهم وتخاذلهم ينحسر، ويقبع في زاوية من الأرض منتظراً.

وهنا وفي بداية الدعوة نبي يتيم ودعوة مسـتهجنة، وأمة مجنونة بحب أصنامها، ومواجهتهـا تعني الموت، فلا بد للرسـول ﷺ من تطبيق منهج ربـه.. لا بد أن يحتاط ويتكتم.. يدعو سراً.. يطرق البيوت ليلاً.. يحمل النور إلى حجراتها، وهكذا فعل ﷺ.

لقد كان يحدث أبا بكر رضي الله عنه ثم يشـير بالكتمان، وإن دعا، ويحدث علياً رضي الله عنه ثم يشير بالكتمان، وإن دعا، وكذلك يفعل مع سعد.. مع عمار.. مع أبي ذر.. مع بلال.. مع صهيب.. مع عمرو بن عبسة مع غيرهم.. مع غيرهم.

إذاً فكيف سـيعرف أبو بكر أن غيره قد سـبقه..؟! وكيف سيعرف علي أن هناك من دخل في دين الإسـلام قبله؟! كيف يقول سـعد إن هناك من أسلم في اليوم الذي أسلم فيه؟ كيف سـيعلم البقية.. ورسول الإسلام ﷺ يشير عليهم بكتمان دينهم حتى عن أقرب الناس إليهم..؟! وما كان ﷺ يتصرف هذا التصرف من عنده لولا أنها أوامر الله..! إنه لا ينطق عن الهوى، فهل سيتصرف بدون أمر الله..! إنها سنة الله في عمل الأسـباب وجعل نتائجها على الله، ولعل في الممارسات الرائعة التالية بعض الإضاءات التي تكشف سريته ﷺ وخوفه على دعاة الإسلام.

حر وعبد

هذا عمرو بن عبسة السلمي.. يمتطي راحلته نحو مكة، فإذا ما احتضنته شعابها وجبالها.. جد قلبه وشـوقه في البحث عن محمد ﷺ وفي ذلك يقول: (كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسـوا على شـيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت: له ما أنت؟

قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي ؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت: له فمن معك على هذا ؟ قال: حر وعبد

(قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به)[1].

فقلت: إني متبعك. قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني. قال: فذهبت إلى أهلي)[2].

يـا الله.. رجـل غريب لا يضمر إلا خيراً.. جاء يبحث عـن الحق، فلا يرجع إلى ديار قومه إلا بما جاء يبحث عنه، ويريد أن يسـتزيد.. أن يعرف أسماء هؤلاء الأتباع، فلا يعطي أي اسـم رغم أنه مؤمن، كما أنه ليس مـن أهل مكة، مما يقلل من خطورة اعترافه لو قبض عليه.

عمرو بن عبسـة لا يشـكل خطرا على الدعوة الجديدة، ومع ذلك لا يعطيه النبي ﷺ أية أسماء، أو معلومات سوى التوحيد والنبوة. وعندما سأله عن أصحابه ورفاقه؟ أجابه إجابة مغلقة ولطيفة، ولكنها بالغة الذكاء والسـرية. قال ﷺ: (عبد وحر) فقط عبد وحر.. لم يقل: معي بلال.. لم يقل: معي أبو بكر. الذي قالها هو عمرو بن عبسة.. عرف ذلك فيما بعد.

إن كلمة عبد وحر صفات واسعة ومرنة، بحيث تتسع لتناسب كل أحرار مكة وعبيدها. لكن لا أحد يستطيع تحديد أنسب الأسماء لها. لذا قفل عمرو بن عبسة راجعاً إلى دياره وأهله ليس معه إلا دين الله. لم يعده ﷺ بانتصار دنيوي.. لم يعده بمنصب. وعده فقط بالجنة إن سـار على الحق، ولم يمكنه من شـيء من أمور الدنيا، حتى ولو كانت أسـماء أصحابه التي قد لا تعني له شيئاً، وعمرو بن عبسة لم يجد رسول الله قبل ذلك بسهولة، لقد وصفه بأنه كان مستخفياً.. كان متستراً لا يظهر نفسه، ولا يكشف أتباعه. إن قريشاً شرسة كالعاصفة، هادرة كالأمواج المجنونة، لكن محمداً ﷺ كان رباناً ماهراً.

الجهر بالدعوة

بعد فترة من الزمن لا أسـتطيع تحديدها[3] نـزل الوحي الكريم.. يأمره بالجهر بدعوته.. الجهر أمام أهله وعشـيرته بأنه نبي مرسل، لكنه لم يجهر بأسماء أصحابه

---

(١) القائل عمرو بن عبسة وليس رسول الله ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١- ٥٦٩.

(٣) لأن الروايات فيها ضعيفة. يقال أنها مقدار ثلاث سنوات، قاله ابن إسحاق بلاغاً دون إسناد. ورواها ابن سعد (١٩٩/١) من طريق الواقدي - وهو ضعيف جدا - عن القاسم مرسلاً. وعن عروة مرسلاً أيضاً.

خوفــاً عليهــم، ولا كيف اتبعوه. لقد ظل ذلك مدفوناً عــن الأعين، فهؤلاء الأتباع قلة ضعاف، ولو امتدت يد قريش إليهم لمزقتهم تعذيباً.

وقصة ذلك أنه عندما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1]. قصد النبي عليه السلام مكاناً مرتفعاً وهو عبارة عن جبل صغير اسمه الصفا فـ(صعد الصفــا، فهتــف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا الذي يهتــف؟ قالوا محمد)[2] فـ(انطلق رســول الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجراً. ثم نادى: يا بني عبد مناف، إنــي نذيــر، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجــل رأى العدو، فانطلق يربؤ أهله، فخشــي أن يســبقوه، فهتف: يا صباحاه)[3]. شــبه النبي عليه السلام نفسه لعشيرته برجل شاهد الأعداء قد أقبلوا فأسرع إلى قومه، ومن خوفه أن يسبقه الأعداء صار يقذف بصوته أمامــه عله يصل قبله.. صار يصيح بصوت مرتفع، كي ينتبه قومه بكلمة يســتخدمها العرب: يا صباحاه.

واصــل ﷺ تحذيره فقال: (يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفســكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفســكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة أنقذي نفســك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شــيئاً، غير أن لكم رحماً ســأبلها ببلالها)[4]. (يا معشــر قريش.. اشتروا بأنفسكم لا أغني عنكم من الله شــيئاً، يا بني عبد مناف.. لا أغني عنكم من الله شــيئاً، يا عباس بن عبد المطلب.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله.. لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد.. سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[5].

كانت مفاجأة لمعظم قريــش.. ما الذي يحدث؛ ولم هذا التحذير؟ الكل مذهول.. الكل مأخوذ.. الكل ســاكت إلا عم لرســول الله ﷺ اســمه عبد العزى، ويلقب بـ(أبي لهب)، والذي قرر أن يكون أول عار على قومه:

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) حديث صحيح: رواه مسلم – الإيمان ١-١٩٣.

(٣) حديث صحيح: رواه مسلم – ١-١٩٣.

(٤) حديث صحيح: رواه مسلم أيضاً -١-١٩٣ الإيمان. أي سأصلكم لأنكم أقاربي.

(٥) حديث صحيح: رواه البخاري ٤-١٧٨٧.

أبو لهب.. أول مكذب

لقد جعل ﷺ (ينادي يا بني فهر، يا بني عدي: لبطون قريش)[1]. فسكتت بطون قريش كلها، فقد ألجمها هول ما يقوله الأمين ﷺ، إلا رجلاً ركب رأسه كما ركبته الأصنام.. ذلك الرجل هو: أبو لهب عم الرسول ﷺ.

يحدثنا أحد ابناء أخيه فيقول: (لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا. فهتف: يا صباحاه. قالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه. قال ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

قال أبو لهب: تباً لك.. أما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[2].

وقف أبو لهب في أول الطريق، وفتح ألسنة من اللهب على ابن أخيه الأمين ﷺ. لكن هذه الألسنة أحرقته هو.

لقد بدأ أبو لهب المواجهة وبدأ التكذيب.. جحد تاريخ محمد الأبيض الذي شهد هو وقومه به قبل لحظات، عندما صاحت مكة بصوت كالرعد يتبعه المطر: ما جربنا عليك كذباً.

ولم يكن أبو لهب وحده في هذه الأولوية، لقد شاركته زوجته أم جميل التي داست على أنوثتها ونافست الرجال شراسة، لقد استحق هذان الاثنان تاريخاً أسود لا يزول أبداً، ولعنة تلوكهم بها ألسن الأجيال.. يحملها جبريل.. سورة تشهد تخلف ذلك الرجل وزوجته وهمجيتهما واستحقاقهما لنار ذات لهب.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٨.

(٢) سورة المسد. والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم - كتاب الإيمان ١-١٩٣.

لكــن أبا لهب ليس أهلا أن يعيق الإســلام ولا نبيه.. هاهو ﷺ يتجاوز هراء أبي لهب متوجها بدعوة خاصة لـ:

دعوة بني عبد المطلب فقط

كان هــذا النداء لأعمامه بني عبد المطلب.. يعلن فيها رســالة ربه بأعلى صوته، ويعلن بداية العزلة الشــعورية بينه وبينهــم إذا لم يتبعوه، ثم توجه بعد ذلك النداء إلى أقرب الناس إليه. ولكن قبل ذلك أقام لهم وليمة بسيطة حافلة بالبشاشة والمعجزات، يقصهــا علينا أحد الحاضرين وهو علي بــن أبي طالب فيقول: (جمع ﷺ أو دعا بني عبد المطلب، فيهم رهط[1] كلهم يأكل الجذعة[2]، ويشرب الفرق[3]، فصنع لهم مداً[4] من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر[5] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب.

فقال ﷺ: يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون: أخي وصاحبي؟

فلــم يقم إليــه أحد، فقمت إليــه[6] – وكنت أصغر القوم– فقــال: اجلس –ثلاث مرات– كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس.

حتــى كان في الثالثة، ضرب بيده على يدي)[7] معلنــاً تفوق هذا الفتى على كافة رجال وشــيوخ أســرة النبي ﷺ، ومســارعته للحق وهو في بداية الشباب، في الوقت الذي تراجع فيه أعمامه وكبار السن من أسرته.. تخلفوا وترددوا، وعجيب أمر ترددهم وتخلفهم فالمعجزة أمامهم تغمرهم.. تلجمهم إلجاماً.

---

(١) رجال أقل من عشرة.

(٢) الجذعة ولد الشاة. له سنتان.

(٣) الفرق مكيال معروف بالمدينة يساوي (١٦) رطلاً.

(٤) المد مكيال يساوي (١,٥) رطل أو رطلين.

(٥) الغمر: القدح الصغير.

(٦) المتكلم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهو الذي روى لنا هذا الحديث.

(٧) سنده قوي رواه أحمد ١-١٥٩ حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة وهما ثقتان عن عثمان بن المغير ثقة عن أبي صادق تابعي ثقة، عن ربيعة بن ناجذ، ثقة أيضاً، وقد بينت في الموســوعة شــذوذ بعض الألفاظ. وسبب جرح الذهبي له وعلة الرواية التي قصدها الذهبي (٢٤).

هاهو الطعام لا ينقص، وشراب الفرد يكفي العشرات، وقبل ذلك صانع الطعام.. إنه محمد ﷺ الذي لم يجربوا عليه كذباً ولا غشاً، فكيف وقد أتى ببرهان صدقه المعجز؟!!

مدٌّ من الطعام لا يشـبع فرداً واحداً.. يلتف حولـه مجموعة من الرجال.. الفرد منهم يتربـع أمام الجذع المطبوخ، فلا ينهض إلا وقد التهمه كله!! ما الذي حدث حتى تقوم كل هذه المجموعة من فُحول الرجال، وقد شبعت من طعام قليل، بل إنها لا تنقص منه شـيئاً. تلك معجزة لا شـك.. برهان على صدق ما سيقوله ﷺ لأسرته. ومع ذلك لا ينهض منهم مسـاند إلا فتى.. هو أصغر القوم.. إنهـم ليل.. وعلي بينهم كالصباح نضارة.

إذاً فقد أعلن ﷺ أن إلهه هو:

الله وحده لا شريك له

لـم تترك قريش محمـداً يبوح بما كان يضمره في نفسـه ونفوس أصحابه، دون أن تطرح عليه أسـئلة ملحة عن طبيعة هذا الدين.. عن هذا الإله الذي يأمر بإفراده بالعبادة.. عن هذا الإله الذي يأمر بنسيان آلهة الآباء والأجداد وسحقها.

فقال لهم ﷺ وحياً ترتكز عليه كل الحقائق، وتنطلق منه أنوار تنير سراديب هذا الكون وأسـراره، فيخشـع الكون كله وهو يستمع لمحمد ﷺ يتلو حقيقة طالما أضاعها الإنسان فتاه في تلك السراديب: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(1).

نـداءان منه ﷺ في اجتماعين: الأول مع أهل مكـة، والآخر مع أهله.. في الأول واجهـه قومه وكذبه أقـرب الناس إليه.. عمه أبو لهب، وفي اللقـاء الآخر لم يواجهه أهلـه، لكنهم تخلوا عن الوقوف معه، ولم يرفع يده لنصرته إلا ابن عمه الشـاب علي بن أبي طالب. عندها أدرك المؤمنون السـابقون أن مهمتهم صعبة، وأن طريقهم شاق، وقد يدفعون أرواحهم ضريبة للسير فيه، لكن الجنة كانت هي الجائزة والحقيقة التي تنتظرهم. لذا هانت تلك الأرواح في سبيل الله.

---

(1) سورة الصمد.

ستة عمالقة فقط تحدوا قريشاً فجاهروا بإسلامهم، ولم يأبهوا بما قد يلاقون من عنت: (أبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد)[1] وفتى صغير السن هو (علي بن أبي طالب) وضع يده بيد رسول الله ﷺ أمام أهله، وكفى بتلك مجاهرة. أما البقية فآثروا العمل بصمت وسرية، فالبطش القادم مخيف ومخيف جداً.

بدأ هؤلاء الأفذاذ يدعون لدين الله جهرة، فأسلم بإسلامهم خلق كثير، مما أقض مضاجع الوثنيين، فاتجهوا نحو رسول الله ﷺ يحملون في أيديهم ألواناً من الأذى والعذاب عله يتراجع، ويتراجع أصحابه معه.

يؤذون رسول الله

كانت البداية امرأة. امرأة تدعى أم جميل بنت حرب.. زوجة أبي لهب وأخت أبي سفيان، انتفضت لما سمعت قول الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ بدأت هذه الآيات تحرقها وتشعل اللهب بأعصابها، فخرجت كالمجنونة تولول وتبحث في الدور والطرقات، وتفتش في كل مكان عن انتقام يخمد هذا الجمر الذي يحشو قلبها، تلتقط حجارة من الطريق تبحث عن محمد ﷺ لتضربه بها، وترميه بسلاطة لسانها، بينما كان عليه السلام وصاحبه الصديق مشغولين بالتقاط القلوب.

أسرعت نحو المسجد الحرام فرأت أبا بكر الصديق، فأقبلت عليه وذلك (لما نزلت تبت يدا أبي لهب.. أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر[2] وهي تقول: مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنا ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك. فقال رسول الله

---

(١) سنده حسن رواه أحمد ١-٤٠٤ عن زائدة بن أبي الرقاد، عن عاصم، عن زر عن ابن مسعود، وهو حسن من أجل عاصم وزائدة وله شاهد من طريق شعبة عن منصور عن مجاهد مرسلاً ابن كثير ١-٤٩٤ وقد مر معنا.

(٢) الفهر: الحجر.

ﷺ: إنهــا لن تراني. وقرأ قرآنا اعتصم بــه كما قال وقرأ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ فوقفــت على أبي بكر، ولم تر رســول اللــه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت، أن صاحبك هجاني؟ فقال أبو بكر: لا، ورب هذا البيت، ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها)[1].

كانــت أم جميل جاهلة متهورة.. تظن تلك الآيات شــعراً، فقد قالت لأبي بكر: (يا ابن أبي قحافة، ما شــأن صاحبك ينشــد في الشــعر؟ فقال أبو بكر: والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، فما يدريــه ما في جيدي..؟ فقال النبي ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً..؟ فإنها لن تراني.. جعل بيني وبينها حجاب. فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحداً)[2].

ثــم توجهت للطواف بالبيت حيث كانت (أم حكيم) عمة رســول الله ﷺ متواجدة هناك، فأبدت أم حكيم احتجاجها بأســلوب مؤدب على كلامها البذيء، وذلك عندما (تعثرت أم جميل وهي تطوف بالبيت في مرطها[3]، فقالت: تعس مذمم.

فقالــت أم حكيم ابنة عبد المطلــب: إني لحصان فما أكلم، وثقــاف[4] فما أعلم، فكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم)[5].

عادت أم جميل إلى بيتها تحمل الفشل.. تحمل عارها، وتحمل المزيد من الحطب والشــوك تضعه في طريقه ﷺ، وتفتح الأبواب لسفهاء مكة ومراهقيها.. تخرجهم من منازلهم، ليؤذوا معها رســول الله ﷺ.. ليحملوا معها مزيداً من الشوك والحطب، ولما رأى صحابة رســول اللــه ﷺ ذلك حزنوا وتكدروا، وقرر بعضهــم الخروج من كتمانه والدفاع عن رسول الله ﷺ علانية، فبدأت قريش مشروع التنكيل و:

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه الحميدي ١-١٥٣، حدثنا الوليد بن كثير وهو ثقة من رجال الشيخين عن أبي الزبير عن أسماء، وأبو الزبير ثقة لكنه مدلس ولم يصرح بالسماع.

(٢) حديث حســن بما قبله رواه البيهقي ٢-١٩٦ من طرق عن الثقة علي بن مســهر، عن الثقة سعيد بن كثير بن عبيد عن أبيه عن أسماء، وحديث والده جيد في المتابعات وهذا منها.

(٣) ثوبها.

(٤) الحصان العفيفة، والثقاف هي الفطنة التي تفهم وتدرك .

(٥) جزء من حديث الحميدي.

يقول أحد الصحابة: (أول من ظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وعمار بن ياسر، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)[1].

وعندما سئل أحد الصحابة ذات يوم: (أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب، ما يعذرون به في ترك دينهم؟) أجاب رضي الله عنه فقال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله..؟ فيقول: نعم.. افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم)[2].

لقد افترش العذاب هذه الأجساد الطاهرة، وطاب له المقام، فغرز أنيابه بلا رحمة.. بلا شفقة.. يشرحها ويشرب من دمها، وقهقهات السكارى والطواغيت حول هذه الأجساد المطروحة لا تجد من يخرسها. حتى رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكيف يفعل وهو لا يستطيع حماية نفسه من هؤلاء الأوغاد.

لقد اضطر الصحابة إلى اتخاذ إجراء يحمون به رسولهم، فكانوا يتناوبون في حراسته ليلاً ونهاراً، فالنهار لا يخلو من السفهاء والمتهورين، والليل يخفي سفر الخناجر الغادرة يحملها المتلثمون.

ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار.. أسرة ضعيفة فقيرة، لكنها حرة، ولما رفع ياسر الشيخ الكبير حاجبيه المثقلين بالشيب والألم، لمح رسول الله ﷺ فرأى الحزن والدمع في وجهه، فهانت نفسه، وهان العذاب أمام حزن رسول الله ﷺ، وأحب أن يواسي

---

(١) حديث حسن مر معنا تخريجه.

(٢) سنده جيد رواه ابن إسحاق /ابن هشام٢-١٦٢ حدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس.. حكيم فيه كلام حول تشيعه، قال أبو زرعة: محله الصدق، وهذا الحديث ليس في المذهب، ثم إن ما قبله يشهد له فهو حسن لذاته أو لغيره.

رسول الله ﷺ قبل أن يواسيه، فقال: (يا رسول الله الدهر هكذا! فقال النبي ﷺ: اصبر. ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت)[1]... (أبشروا آل عمار، وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].. (اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)[3].

كأن ذلك الشيخ الساخر بالعذاب.. يريد أن يطمئن رسول الله ﷺ أنه لا يخشى السياط، ولا يخشى القيود.. إنه يتزين بها للجنة، ويرجو أن يكون أول شهيد. لكن هناك من سبقه.

أول الشهداء امرأة

أول المسلمين كان امرأة، وأول اعتداء على رسول الله ﷺ كان امرأة، وكذلك أول شهيد في الإسلام امرأة.. امرأة طاعنة في السن.. اقتادها وثني شرس يقال له: أبو جهل. فاق أبا لهب قسوة وغلظة، فهاهو يجر هذه العجوز الضعيفة.. ترسف في قيودها نحو بطحاء مكة، ثم يرمي بها نحو الأرض، وبعد أن سلخ جلدها بالسياط، وحطم أضلاعها بالحجارة تناول رمحاً فطعنها به في موضع عفافها أمام زوجها وابنها، ثم تركها تتخبط بدمائها حتى لفظت أنفاسها وروحها.

"سمية بنت خياط" أم عمار بن ياسر هي تلك الشهيدة التي عجز الطاغوت أبو جهل قاتل النساء، وعجزت سياطه عن الظفر بكلمة ثناء على صنم من أصنامه، فليس لديها سوى كلمة التوحيد، رفضت أن تتنازل لأبي جهل عنها، حتى جن جنونه فطعنها بكل خسة. إنها كما قال أحد الصحابة: (يقتلوها فتأبى إلا الإسلام)[4].

---

(١) حديث حسن بما بعده، رواه أحمد ١-٦٢ ثنا عبد الصمد ثنا القاسم بن الفضيل عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن عثمان. وفيه انقطاع بين سالم وعثمان.

(٢) رواه الحاكم ٣-٤٣٨ والبيهقي ١-٢٨٢ والطبراني الأوسط ٢-١٤١ من طرق عن الثقة هشام الدستوائي، عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس، فيشهد له ما سبقه.

(٣) حسن بما قبله رواه الطبراني. الكبير ٢٤ - ٣٠٣ حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ثنا أسد بن خالد عن سليمان بن قرم عن الأعمش عن ابن أبي الزناد عن عبد الله بن الحارث عن عثمان بن عفان، وأسد ضعيف.

(٤) قطعة من حديث سابق هو حديث جابر، وهو حسن.

سمية الراحلة.. لها رفاق صامدون شامخون كأطواد مكة.. أرادتهم قريش عبيداً، فانتزعوا حريتهم بأيديهم. عذبوهم لكنهم رفضوا الخنوع لسياط الشرك، فعاشوا يتنفسون هواء الحرية الرحب حتى ماتوا.

أحد هؤلاء حر اسمه: خباب بن الأرت.. كان عبداً، فلما أسلم عذبه المشركون حتى تعبوا، لكنه لم يتعب.. سرقوا دراهمه، فصبر واحتسب، بينما انحط مستوى رجالات قريش ووجهائها إلى الحضيض. ها هو رجل من وجهائهم على الإطلاق ينحدر به الشرك عندما يواجه خباباً إلى مستوى الوضاعة، فينزل الله في ذلك قرآناً يخلد خباباً.. قرآناً تتلوه الأمة كلها.

يقول هذا الحر الأبي: (كنت رجلاً قيناً[1]، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أطلبه. فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث.

قال العاص: فإني إن بعثت، كان لي مال ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2].

ولما ازداد إصرار خباب على هذا الدين وتمسكه برسول الله ﷺ، أخذه هذا الجلف (فكان ممن يعذب في الله)[3] ليتراجع، فلا يتراجع.

فليذهب ماله.. إنه لا يهمه، فخباب كريم بكل شيء.. بجسده.. بدمه.. بصحته.. بكل ما يملك، لكنه شحيح بدينه كسمية بنت خياط فـ (لم يكن أحد إلا أعطى ما سألوه

---

(١) عبداً.

(٢) متفق عليه.

(٣) سنده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٣: حدثنا سعد بن محمد الصيرفي وثَّقهُ تلميذه أبو نعيم، تذكرة الحفاظ ٢-٦٦١، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعث وهو ثقة، حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام وهو أحد الأعلام الثقات. التهذيب ٨-٤٠٣ عن قيس بن مسلم وهو ثقة. عن طارق بن شهاب، وله رؤية.

يوم عذبهم المشـــركون، إلا خباباً، كانـــوا يضجعونه على الرضف[1]، فلم يســـتغبوا منه شيئاً)[2]. أي لم يحصلوا على شيء منه.

لقد كشـــف خباب يوماً ظهراً لـه تقلب في جمر العذاب، وتشقق من السياط، كشف خبـــاب ظهره لأصحابه، فإذا آثار الكي وخرائط الألم تنتشـــر فيـــه، وبعد أن أراهم تلك الآثـــار المحزنة التفت إليهم ثم قال: (لم يكن لي أحد يمنعني، فلقد رأيتني يوماً أخذوني، وأوقدوا لي ناراً، ثم ســـلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري ما اتقيت الأرض أو برد الأرض إلا بظهري)[3].

وقـــال خباب مرة وهو يحكي مأســـاته مـــع مجرمي مكة: (أوقدوا لـــي ناراً، فما أطفأها إلا ودك[4] ظهري)[5].

كان خبـــاب يقول ذلك لمن حوله.. يحمل شـــهادته ومعاناته على ظهره، وذلك عندما تحدث الجميع عن مأســـاة أخيه بلال، وتلك الخطوط التي رسمها بلال في طرقات مكة بجسده العاري، عندما كان سفلة قريش يسحبونه هنا وهناك، فلم يستطيعوا أن يسحبوا كلمة إذعان واحدة ترضي طواغيت مكة.

كان بلال المنحدر من شلالات أفريقيا وأنهارها شجاعاً كأُسُودِها، سخياً كسهولها.. ســـاق القدر أمه وأباه إلى مكة، فولد كالليل مليئاً بالأســـرار والحزن والعبودية. هموم تملأ قلبه، وقيود تحز رقبته وآدميته. كانت حياة آسنة عكرة لا بشائر فيها حتى سمع برسول الله ﷺ، فوجده يحمل ما كان يبحث عنه.. الحرية والعدالة.

كم تشققت قدماه وهو يبحث عنها، فلم يجد عند قريش والعالم إلا سراب، ووجد الحقيقة والحلم عند محمد ﷺ، فماذا ينتظر..؟ لقد أدرك أســـرار القوافل التي تمر

---

(١) الحجارة المحماة.

(٢) ســـنده صحيح رواه أبو نعيم في الحلية ١-١٤٤ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس ابن حبيب، وهما ثقتان، حدثنا أبو داود حدثنا شـــعبة، وهما إماما معروفان، حدثنا أبو إســـحاق وهو تابعي ثقة سمع من شيخه التابعي حارثة بن مضرب قال: قال خباب...

(٣) حسن رواه ابن سعد (٣-١٦٥) أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يونس، أخبرنا حبان بن علي عن مجالد عن الشعبي قال. وهذا الإسناد ظاهره الإرسال، لكن لـه شواهد كثيرة تقويه.

(٤) الودك هو الشحم.

(٥) رواه أبو نعيم (الحلية ١-٤٤) عن الشعبي قال: سأل عمر بلالاً. وظاهره الإرسال. ويشهد له ما سبق.

بهذه الدنيا ثم ترتحل، وأدرك أين تستقر. قدم له النبي ﷺ إجابات عجز الفلاسفة والحكماء عن الوصول إليها.. أدرك أن هذه الدنيا ليست سوى أيام وساعات تتبخر، ومهما طالت فلن تدوم، وأن الحياة هناك: خلف السحاب.. خلف السماء في مدائن الجمال والسحر والبهجة الخالدة.. في جنات فاتنة، أو في الجحيم وبين أودية الحميم وحفر النتن والعذاب المقيم والخيارله.

اختار بلال الرحمن، ولفظ الشيطان من حياته، وتصدى كجيش من حديد لتعذيب قريش (هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد.. أحد)[1].

هذا هو بلال الجديد، الذي رفض أن يقضي حياته منحنياً لسوط أوحجر.. كان يرمي جسده وكأنه يقول: خذوه فهو لكم، لكنكم لن تنالوا من روحي وإرادتي شيئاً ما دمت مع الله، فالروح لها طريق لا تعرفه قريش ولا تلوثه أصنامها.. طريق فسيح لا تردمه الجبال.. طريق طاهر لا تمسه أيدي المشركين.

كانت مأساته مع قريش دامية مؤلمة، وكان منظره يذيب الصخر وهو يسحب في دروب مكة وشعابها.. يلعب به الصبيان والسفهاء، وهو يسقط المرة تلو المرة من الإعياء، ثم يضطر إلى الوقوف مرة أخرى من لسع السياط والعصي على رأسه وجسده.

كان المسلمون حوله يتحرقون، لكن ماذا بأيديهم وهم ليسوا بأحسن حال منه، حتى أشرقت شمس الحرية يوماً.. يحملها أبو بكر الصديق الحنون، فقد تقدم نحو مالك بلال.. نحو مالكه المجرم المدعو "أمية بن خلف"، فعرض عليه شراءه؟ فوافق الطاغية بعد أن كلت يداه وقدماه من الصفع والركل والضرب، فلم يظفر بشيء من ذلك العملاق المتلبط بين السياط، ودفع أبو بكر الثمن، وقبض المجرم، وتوجه أبو بكر نحو ساحة التعذيب يمد يده لينتشل أخاه.. لا عبده، فكيف كانت حال بلال، وعلى أي صورة وجده..؟

رجل مخضرم عاصر الجاهلية والإسلام اسمه قيس بن أبي حازم يروي آخر فصول المأساة البلالية فيقول: (اشترى أبو بكر بلالا بخمسة أواقي، وهو مدفون

---

(١) مر معنا وأنه حديث حسن.

بالحجارة. قالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته)[1].

هذه هي منزلة بلال الإنسان عند هؤلاء الملحدين، وهذا هو مفهوم الحرية عند الطواغيت دائما: إما أن يختار ما اختاروه له فيكون كادحاً طوال الليل والنهار مهاناً ذليلاً، وإما أن يرفض إرادتهم ويسلك دروب الدعاة فيدفع الثمن باهظاً. كان النبي يقص على أصحابه المعذبين قصص الطغاة واساليبهم مع الدعاة دروساً تشحذ هممهم وتقوي عزائمهم، فهذا فرعون قد سبق قريشاً قولا وفعلا، الله سبحانه يقول عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[2].

موسى وهارون وما معهما من حقيقة وآيات مفسدون في نظر الطاغية فرعون، وهو لا يستحي من ترديد أكذوبته التي يقول فيها ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

ويتكرر المشهد، فهذه أكوام الحجارة تغطي جسد بلال المنهك، والشمسُ اللافحة تحمي عليه تلك الحجارة وتزيد في تعذيبه وإيلامه، لأنه يرفض أن يكون عبداً لحجر.

أما الإسلام، فالإسلام أعطى بلالاً الحرية الحقيقية، ومنحه أرقى أنواعها.. إنها تلك اللحظات التي يتحرر فيها الإنسان الضعيف من أقوى ضغوط السائد، ويتحرر فيها من الوهم الذي يسكن الملايين.. أن يقول للطاغوت المتجبر: لا. عندها يحصل على حريته الحقيقية، فلم يتنمر الظلمة إلا لأن أحداً لم يقل لهم يوماً: لا. عندما يقولها بلال، أو أي مسلم، فإن مساحة من الظلم حول ذلك الطاغوت سوف تنحسر، لتفسح المجال لحياة رغيدة ولهواء نظيف يليق بالإنسان.

---

(١) سنده قوي، كما قال الإمام الذهبي، ورواه ابن أبي شيبة ٧ - ٣٣٧ حدثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس. سفيان إمام ثقة معروف، أما أستاذه إسماعيل بن أبي خالد فهو ثقة ثبت. التهذيب (٦٨/١) وقد أكثر الرواية عن شيخه المخضرم: قيس بن أبي حازم البجلي، وهذا الأخير رحمه الله أدرك الإسلام والجاهلية، رأى رسول الله ﷺ، وهو ثقة. انظر التقريب (١٢٦/٢).

(٢) سورة غافر، وهي سورة مكية.

مد أبو بكر يده إلى هذا المسكين لتنتفض عنه قريش والحجارة.. مد أبو بكر يده لأخيه بلال لا لعبده بلال، فلقد اشتراه ليحرره من قيد العبودية والمهانة.. ليطلقه في البيداء وفي السماء.. يشرب الماء عذباً.. يتنفس الهواء نقياً، ويعبد ربه أينما شاء متى ما شاء، بعد أن كان يكد ويكدح طوال يومه دون مقابل.. دون أجر، أو حتى كلمة شكر.

لقد قدم بلال تضحيات وتضحيات، وها هو اليوم يعيش حراً وسيداً من سادات الإسلام.. بشهادة أحد أعظم رجالات الإسلام حيث يقول: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا)[1].

أما لماذا..؟ فلأنه اختار طريق محمد ﷺ وصبر مع محمد ﷺ. لقد كان يجوع يوم يجوع رسول الله ﷺ، ويتألم عندما يتألم، ويجعل من جسده درعاً أمام الرماح الموجهة إلى نبيه، كان يخاف على رسول الله ﷺ أكثر مما يخاف على نفسه. إنه باختصار: يحبه أكثر من نفسه، وهذا ما جعل الدنيا كلها تحب بلالاً وتجله.

لقد كان رسول الله ﷺ يتحدث بنفسه عن بطولات بلال رضي الله عنه.. عن معاناته فيقول: (لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثون – من يوم وليلة –، وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)[2]. وذلك عندما حولت عقيدة الشرك قريشاً القبيلة الجميلة الكريمة، إلى كتلة من العنف والحقد والبخل.. هكذا تعامل قريش ابنها البار، وابن سيدها وسيد العرب الكريم، تحشد له الشوك والسياط والجوع والخوف، حتى يمر به الشهر حزيناً لا يحمل إليه سوى لقمة يومية يشاطرها بلال، في وقت يتقلب فيه زبانية قريش في أنواع الملذات، دون أن ينغص عليهم أنين المؤمنين تحت أقدامهم وسياطهم، أو حتى يحرك عواطفهم ونخوتهم.

---

(١) صحيح البخاري ٣ -١٣٧١ .

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ٣ -١٢٠ وغيره من طرق عن حماد، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، ورجال هذا الإسناد أئمة كبار، وحماد بن سلمة أوثق الناس في شيخه ثابت.

لقد كان معظمهم مجرمين

يحملون المال والجاه والحسب والنسب والسياط، لكن أيديهم وعقولهم خالية من الحجة والمنطق والحقيقة، فليس لديهم سوى أشياء ورثوها عن آبائهم.. فيها اختلط الحق بالباطل والجميل بالقبيح دونما تمييز، أما محمد ﷺ فقد جمع الحق كله. ورفض الشر كله، فصادموه عندما أراد أن يطهرهم ويشدهم من مستنقعات الرذيلة التي يرتكسون فيها، وكان يقود ذلك الصدام مجرمون.. تفننوا في التعذيب والسحل والتنكيل. كان من هؤلاء عم رسول الله ﷺ: أبو لهب، وكان منهم أمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، لكن هناك من يتفوق على هؤلاء كلهم قسوة وشراسة: رجلان هما: عمرو بن هشام (أبو جهل) ورجل آخر، أما أبو جهل فكان جباراً شقياً يتلذذ بتعذيب المؤمنين، حتى بلغ من قسوته أن انحدر الشرك بمستواه الأخلاقي فاستأسد على العجوز الضعيفة أم عمار بن ياسر، فطعنها بحربة حتى لفظت أنفاسها.. طعنها وهي المرأة الضعيفة الرقيقة.. إنها لم تشتمه، ولم تسبه.. إنما قالت: لا إله إلا الله.

لقد علمنا التاريخ دروساً عديدة، وما زال يعلمنا أن للطغاة موقفاً من المؤمنين الدعاة عجيباً. هذا الموقف يقول: (من كان داعية فهو عدوي)، لأن الداعية المخلص يقدم دعوته ويتناسى نفسه، وهو عكس ما يمارسه المتسلطون الذين لا يملكون سوى تقديم أنفسهم، وقد يكون الطاغية مخيراً أو مسيراً أو ساذجاً، لكن هذا الموقف لا يتغير، ومن يعير سمعه وبصره للتاريخ والأيام.. يجد المشانق والزنازين تئن أمامه من رقاب الدعاة وأجسادهم الطاهرة.. حتى رياح الحرية التي تهب أحياناً على الشعوب، نراها تمر على الجميع وتستثنى الدعاة، فهم ينتزعونها انتزاعاً بدمائهم، ويمنحونها للجميع حرية للبشر للطير للشجر، ولم تكن سمية بنت خياط أول الشهداء ولا آخرهم، ولا كان أبو جهل أول المتسلطين ولا نهايتهم. كان هناك رجل يزاحمه ينافسه اسمه:

عمر بن الخطاب

لعلكم تذكرون ذلك الرجل العظيم: زيد بن عمرو بن نفيل، فهذا الرجل له ولد عظيم مثله اسمه سعيد بن زيد.. تزوج سعيد هذا من أخت رجل يقال له عمر ابن الخطاب، فكان من السابقين إلى الإسلام. سمع من رسول الله ﷺ فوجد الحقيقة

ووجد نفسـه، ودعا زوجته -وهي فاطمة أخت عمر بن الخطاب- فآمنت بما آمن به، فكانت أسـرة صغيرة سـعيدة بالحب والإيمان والبهجة، وبعد فترة تسرب الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتطاير الشـرر من عينيه ويديه، وبدأ بتعذيب أخته وزوجها، فالذي يحدث في - نظره - عار، ولن يسمح عمر للعار أن يدخل بيته. لكن أدوات عمر فشلت، فالقلوب لا تدخلها السياط، والمبادئ لا يثنيها الحديد، وعمر لا يملك من أدوات الإقناع والحوار سوى بسطة في الجسم، وحفنة من السياط والعصي الغليظة.

أحضر الأغلال والحبال لأخته وزوجها، حتى قال سـعيد بن زيد رضي الله عنه: (واللـه لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسـلام)[1]. هكذا كان عمر، وهذا ما تفعله قريش بأطهر أبنائها، وليس لدى الضعيف المظلوم سوى الدعاء:

دعوة نبي مضطهد

أطـال ﷺ التأمل بين صحابته.. يفتش عن أحد، لكنه لم يجده. لقد وجد أتباعاً مضطهدين مغلوباً على أمرهـم.. يتحملون كثيراً ويعانون أكثر، لكن إلى متى..؟!! إلى متى وهم يتوارون ويخفي بعضهم بعضاً كأنما ارتكبوا جرماً..؟ كان عليه السلام يفتش عن شخص جبار تهابه قريش، فتتراجع أمامه قليلاً.. لعل فسحة من الحياة المشروعة تتسـع له ولأصحابه، فيستمتعون بها كما يسـتمتع غيرهم، ويعبدون الله وهم آمنون. لكـن الطغـاة لا يرحمون. إن البهائـم والطيور تطوف في مكة آمنـة، أما محمد ﷺ وصحبه المساكين ففي الشعاب هائمون، يأتي إليه خباب بن الأرت يحمل جلداً مسلوخاً وجروحاً نازفة وهماً كالجبال.. يأتي إليه خباب المسـكين وقد لقي أشـد العذاب من المشـركين. فيقول: (يا رسـول الله، ألا تدعو الله لنا..؟ فقعد ﷺ محمر وجهه، فقال: إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشـار على مفرق رأسـه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٢.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٩٨.

ليس هناك سوى الصبر يا خباب.. هذه هي حياة الأنبياء وأصحابهم وأتباعهم. إن احمرار وجهه ﷺ لم يكن لعدم مشروعية الدعاء، بل كان لهباً يذهب ما قد يعلو في نفوس أصحابه من الملل والضيق. إن هذا الاحمرار يقول: إن كل ما يقدمه الداعية في سبيل الله من تضحية.. من مال.. من جهد.. كل ذلك رخيص.. رخيص في سبيل الله.

إنها الجنة يا خباب.. حيث لا سلطات ولا طغاة.. حيث لا أحقاد ولا تعاسة ولا ملل، وحيث المدن الساحرة والقصور الفارهة، والطرقات المرصوفة بالجواهر والمزينة بالزهور والورود والعطور، والمراكب المبحرة والطائرة، والأجساد الفاتنة التي لا تعرف القبح ولا الأمراض ولا التعب ولا العفن.. الأجساد الفواحة بالعطور، وحيث الدهشة التي لا تفيق منها إلا على أكثر منها، ألا تحب يا خباب أن تكون مع أول من يدخلها، وقد قال حبيبك ﷺ: (أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم فيها الذهب أمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك)[1].

إنها الجنة التي وعد بها الله ورسوله، فلا عجب أن مشط الأنبياء السابقون وأتباعهم بأمشاط الحديد، ونشروا بالمناشير، فقد كانت الجنة في قلوبهم. أما الدعاء فعبادة في الإسلام، كما قال ﷺ لأصحابه: (الدعاء هو العبادة، قال ربكم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾)[2].. حتى الأماني التي تجول في الخواطر تسيل عند الله في مجرى الدعاء الجميل المحبوب.. حتى الأماني الحلوة حَوَّلَها الإسلام إلى عبادة. يقول ﷺ: (إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه)[3] وهاهو محمد ﷺ يسأل ربه، ويدعوه ويتضرع إليه أن يرزقهم ما يبحثون عنه.. رجلاً يعز الله به الإسلام. وكانت أمنيته ﷺ تحوم حول أقسى رجلين وأشرسهما في مكة كلها، فتوجه ﷺ إلى ربه ضارعاً وقال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١١٨٥.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ١ - ٤٦٦ وغيره من طرق عن ذر عن يسيع الحضرمي عن النعمان بن بشير مرفوعا وذر ويسيع ثقتان.

(٣) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١ - ٤٣٤أنا عبيد الله بن موسى عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفه أصح.

بـن الخطاب)[1] فقد بخلت مكة وشـحت، وضاقت بأصحابه ﷺ فصارت من ضيقها تحصي أنفاسهم وخطاهم.. حتى بيت الله الحرام أصبح غير آمن.. يطوف به الوثنيون والمشركون وكل من شاء من أصحاب الملل، أما المسلمون الموحدون فلا!

ها هو الطاغية أبو جهل يهدد قائلا: (لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه)[2]. ويتمادى فيحلف بأخشابه وحجارته التي يعبدها فيقول (واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب)[3].

حبيـب اللـه ﷺ يهدده هذا الجعظ بـأن يطأ على عنقه الطاهـر، فماذا ينتظر البقية سـوى الموت..! أليس هناك سوى مكة.. وطواغيت مكة؟ نعم إن مكة أطهر بقعة على وجه الأرض وأعظمها، لكن هل البقاء فيها من أركان الإسـلام.؟ هل يتحتم على المسـلمين أن يربطوا مصيرهم بمكـة وقد ضاقت بهم وحاصرتهـم جبالها، وأظلمت وديانها وشعابها..؟ هل يتحتم على المؤمنين أن يبقوا فيها وقد نثر الشوك في وجوههم وأقدامهم، وكعبة ربهم تئن تحت أطنان الأصنام وترزح تحت طقوس الوثنية..؟

رسول الله ﷺ حمل الإجابة بيضاء نقية: الإسلام لا يرتبط بأرض ولا وطن، ولا يرتبط بشـخص ولا حتى أمة.. الإسلام عظيم فسيح.. فسيح.. إنه من السعة بحيث تسـتطيع أن تضـع هذا الكون كله في زاوية من زواياه، ومكـة جزء من هذا الكون.. الإسـلام لا يرتبط بمكة، ولا ببيت المقدس ولا ببقية أراضي الأنبياء ولا غيرها، فلا حـرج علـى هؤلاء الضعفاء من المغـادرة والهجرة من أكرم بقـاع الأرض إذا ضاقت وضاق أهلها، متى ما وجد المسـتضعفون أرضاً أرحب. لكن إلى أين سيلجأ أصحاب رسـول ﷺ؟

إلى الحبشة

هذا ما تقوله أخت عمار بن ياسـر من الرضاعة، صحابية اسمها: (هند بنت أبي

---

(١) إسناده حسن رواه البيهقي (٢-٢١٥) وابن سعد (٣-٢٦٧) وغيرهم من طرق عن أبي عامر: عبد الملك بن عمرو القيس، وهو ثقة التقريب ٣٦٤ أخبرنا خارجة ابن عبد الله بن ثابت وهو حسـن الحديث (التهذيب ٣-٧٦) عن نافع عن ابن عمر قال. قال: رسول الله ﷺ .

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤ - ١٨٩٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤- ٢١٥٤.

أمية) وتلقب بـ(أم سلمة)، وقد أوذيت هي وزوجها أبو سلمة مع من أوذوا وعذبوا لأنهم يقولون: لا إله إلا الله.

تقــول رضي الله عنها: (لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رســول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رســول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال رســول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلَم أحد عنده، فالحقــوا ببلاده، يجعــل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا أرســالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلماً)[1].
كان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً يحمل الصليب على صدره لكنه كان عادلاً.

أرض بلال تجود، وشــلالاتها تغسل دموع المؤمنين وأحزانهم، وتطهر جرحهم من أشواك قريش ورماحها.. لكن لماذا الحبشة؟

هل لأنها أرض النصارى، والنصارى أهل دين نزل من الســماء كالإسلام تماماً..؟ ربما.. لا ســيما وجزيرة العرب غابة من الأصنام، وأرض فارس تتأجج ناراً تحرق أهل فــارس، وتحرق فطرتهم وتذيبها كلما ركعوا لها، أو تمســحوا برمادها وتمرغوا. ربما كان في هذا بعض الإجابة، لكن الإجابة المؤكدة هي في قول رســول الله ﷺ الســابق: (إن بأرض الحبشــة ملــكاً لا يظلم أحد عنده) إذاً فهو العدل، والعدل أول شــرط من شــروط الأمن والرخاء، وبدونه تتحول البلاد إلى غابة يرتع فيها المجرمون واللصوص والفاسدون والمتنفذون، حتى لوكان الحاكم وشعبه من أكثر الناس صلاة وصياما..

هاهو جبريل ينزل بآيات من القرآن تقول للدنيا.. للعالم.. أن العدل أحد مهمات الأنبيــاء. حيــث يقــول تعالــى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2] وقريــش قد فرغت أيديهــا وعقولها وقلوبها من العدل.

ابتسم المتسلطون وهم يرون هؤلاء الفقراء يحملون أطفالهم ويودعون مكة الحبيبة..

---

(١) ســنده صحيح، رواه ابن إســحاق ١٩٤: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبــد الرحمن بن حارث، عن أم سلمة. ابن إسحاق سمع من الزهري، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٦٢٣.
(٢) سورة الحديد ٢٥.

تبللهم الدموع، وتحترق أكبادهم وهم يغادرون بيوتهم ووطنهم ومراتع صباهم.. يتركون نبيهم ﷺ وإخوانهم يتلبطون بين السياط.

فرح الطغاة والمتسلطون كلهم، إلا واحداً كان يرقب المشهد بعمق.. يقف ملجماً بالحزن.. مثقلاً بالندم.. ينظر إلى ضحاياه، ويتأمل مطاياهم وهي تتمايل مغادرة مكة، فتنتزع من قلبه بعض قسوته وعروقه.

كان صامتاً يخاطبه الندم ويقول له: ماذا فعلت يابن الخطاب، وماذا جنت يداك..؟ ويحك يا عمر.. إنهم أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم.. ألا يلين قلبك لهذا المنظر؟

نساء حزانى، وشباب حيارى، وأطفال لا ذنب لهم، ورجال كرام أهنتهم وشردتهم وضيقت عليهم حتى ملوا الحياة، وهم الذين كانوا يكرمون الضيف، ويحنون على الضعيف.

إلى أين ألجأتهم يا عمر.. إلى بحر يتقلب بهم، أم إلى أرض لا يعرفون بها أحداً، ماذا سيكون مصيرهم..؟ أنت لا تعرف، وهم لا يعرفون. هل خلقت بلا قلب يا عمر؟ تقدم أيها القاسي وقل شيئاً يخفف من لوعتهم.

وتقدم عمر، وتحرك قلبه وتحركت شفتاه نحو هذا المشهد المعبر، الذي ترسمه لنا إحدى المغادرات كالحزن على تلك المراكب..

إنها امرأة تدعى أم عبد الله، وهي زوجة صحابي كريم اسمه عامر بن ربيعة. فتقول: (كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة.. جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعير نريد أن نتوجه فقال: أين يا أم عبد الله؟

فقلت له: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله ﷺ والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً)[1]. ﷺورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنارضي الله عنه. ثم ذهب، فجاء زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ابن الخطاب فقال:

---

(١) هذه الألفاظ ما بين المعقوفين من رواية أخرى.

ترجين يسـلم؟ فقلت: نعم. قال: فوالله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب - وهذا من شدته على المسلمين-)[١].

وتحركـت المطايـا والقلوب تلوح لمكـة، وركب المعذبون البحـر، وارتفعوا مع الموج وانخفضوا، حتى قذفتهم المراكب على سواحل الحبشة، فرأوا الأمان وتلمسوه فعانقوه وارتاحت قلوبهم، واسـتراحت أبدانهم من شراسـة قريش. أما رسول الله ﷺ وبقية أصحابه فمكثوا في مكة يمشـون على الأشـواك، ويحثى عليهـم التراب، ويبصق في وجوههـم. لكنهم لا يتراجعـون.. يدعون ويدعون، ويكثـر أتباعهم كل يوم، فتضطرب قريش من هذا الدين الذي يشـتد عوده كلما اضطهد وعـذب أتباعه، كأنهم يقتاتون الشقاء والمعاناة.. يحتسون المرارة، فيزدادون صفاءً وتألقاً، كأن الشدائد تزيدهم صفاءً ونقاءً يوما فيوماً.

هذا شـاب يخفي إيمانه عن والده.. اسمه عبد الله بن عمرو بن العاص.. يحدث رجلاً، ويخبره عن أشـد المناظر التي رآها فظاعة.. أشـد مناظر قريش قسوة، وهي تنال من رسول الله ﷺ فيقول: (لقد رأيتهم -وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر-، فذكروا رسـول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا مثل صبرنا عليه من هذا الرجل قط.. سـفه أحلامنا[٢]، وشـتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسـب آلهتنا، وصبرنا منه على أمر عظيم....

فبينا هم في ذلك، طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، فلما مر بهم طائفاً بالبيت، غمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فمضى، فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمثلها، فعرفتها في وجهه، فمضى ثم الثالثة، فغمزوه.

فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسـه طائر[٣] واقع،

---

(١) هـو خبر وليس بحديث رواه ابن إسـحاق ١٨١، حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه ليلى. وفيه ضعف يسير من أجل التابعي عبد العزيز فقد وثقه ابن حبان فقط (١١٥/٧) وسكت عنه ابن أبي حاتم (٣٨٥/٥) لكنني أوردته لأنه تابعي كبير ولأنه يروي هذه القصة عن أمه - جدته، ولأنه ليس بحديث.

(٢) سخر من عقولنا.

(٣) أي أنهم قد سكتوا وخيم السكون عليهم.

حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[1] أحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم فما أنت بجهول.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينا هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول رسول الله ﷺ: نعم. أنا الذي أقول ذلك، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يبكي دونه)[2].

وقد ذكر عبد الله اسم ذلك الجلف فقال: (أقبل عقبة بن أبي معيط -ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة - فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبيه، فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[3].

ووصف صحابي آخر مشهداً عنيفاً فقال: (ما تنول من رسول الله ﷺ شيء كان أشد من أن أطاف بالبيت - ضحى - فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا؟

فقال ﷺ: أنا ذاك. فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من ردائه، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4].

---

(١) يداريه.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ٢١٢ حدثني يحيى بن عروة، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت رسول الله ﷺ فيما كانت تظهره من عداوته، وابن إسحاق لم يدلس، ويحيى تابعي ثقة. التقريب ٥٩٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٨١٤.

(٤) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٢٧٧ من طريق العباس بن محمد بن حاتم وهو ثقة حدثنا ابن مخلد وهو صدوق التهذيب ٥-١٢٩ و٣-١١٦ حدثنا سليمان بن بلال. ثقة التقريب ٢٥٠ حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله.. وهشام ووالده ثقتان مرا معنا كثيراً .

كل هذا ورسـول اللـه ﷺ يتجرع مرارة الأذى صابراً، فقد أُرسـل ليبعث الحياة في هذه النفوس المنهكة.. ليجمع أشـلاءها المبعثرة.. ليجعل من هؤلاء الجفاة شموس حضارة تمنح الضياء للعالم، والدرب طويل وشاق، وقد تكومت في قلوب هؤلاء الوثنين أسـباب النقمة وبين أيديهم سـبل الانتقام، ولن يتورعوا عن ارتكاب الحماقات مهما كانت كارثية، وسـيتلذذون بذلك، وسيشـربون الخمر بهجة بانتصار مزيف على جسد بلال أو عمار وغيرهما. لكن كل ذلك سيتلاشى مع الليالي والأيام والصبر والمصابرة، فالنصر قادم لا محالة، والإيمان مطر تنشره رياح الحرية في الأرض، فإذا قلوب البشر قد اهتزت وربت، وأزهرت فيها الحياة العذبة الجميلة.

ذات يوم يهرب رسول الله ﷺ من مكة، ويلوذ بالفرار معه أبو بكر الصديق.. تطاردهما جلافة قريش وسفهاؤها، فيجدان الأرض خارج مكة أدغالاً من الخوف والرعب.. عطش ورمضـاء وعرق، لكن محمداً وصاحبه كانا غيمتـان.. أمطرتا فإذا الربيع بحجم العالم.. ربيع من العلم والإيمان اسمه:

عبد الله بن مسعود

شـاب هذلي نحيل الجسم.. دقيق الساقين اسمه عبد الله بن مسعود. كان مجرد راع للغنم، وطموحه لا يتعدى البحث عن الكلأ، وقبض دراهم معدودة.. حوله الإسلام والتوحيد إلى شمس تضيء من حولها.

ها هو يتحدث عن تلك الشعلة التي فجرت طاقاته في مرعى الغنم، فيقول رضي اللـه عنه: (كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسـول الله ﷺ وأبو بكر - وقد فرا - من المشركين فقالا: يا غلام، عندك لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولسـت بسـاقيكما، فقالا: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا..، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فحلب فيها، ثم شـرب هو وأبو بكر، ثم سقاني، ثم قال للضرع، اقلص. فقلص. فلما كان بعد أتيت رسـول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلم، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد)[1].

---

(١) سنده حسن، رواه البيهقي ٢-١٧١ وأبووأحمد ١-٤٦٢ وغيرهما من طرق عن حماد بن سلمة وهو ثقة =

إنها لمعجزة أن يدر ذلك الضرع باللبن، ثم يقلص وينشف. كذلك الإسلام.. معجزة، فقد جعل من رويعي الغنم عالماً عظيماً، في وقت كان زبانية قريش ينتظرون خبر موت محمد وصاحبه خارج مكة. ولئن كانت مكة لا تأبه كثيراً لإسلام عبد الله بن مسعود، لأنه في نظرهم مجرد راعي غنم قصير القامة.. ضعيف البنية.. دقيق الساقين جداً. إذا كانت قريش لا تأبه لإسلامه ولا تتشاهد فيه إلا جسدا ضئيلاً، فإن الإسلام يأبه ويحتفي كثيراً، ويرى فيه إنسانا عظيما.. يحتفي به كاحتفائه بـ:

إسلام حمزة

إذا كان ابن مسعود الضعيف قد أسلم خارج مكة ورسول الله ﷺ هارب من تعذيب أهلها له، فإنه قد قيل إن حمزة بن عبد المطلب ذلك الأسد الفاتك.. عم رسول الله ﷺ قد أسلم أيضاً، بعد عملية اضطهاد لرسول الله ﷺ (كان إسلام حمزة حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول: رميت كذا وكذا، وصنعت كذا.. وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رمية ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة، ماذا ألقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام: شتمه وتناوله، وفعل وفعل.

فقال: هل رآه أحد. قالت: أي والله لقد رآه ناس فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه، وقال: رميت كذا.. وكذا وفعلت كذا.. وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء بالحق من عند الله.

قالوا: يا أبا عمارة إنه سب آلهتنا وإن كنت أنت أفضل منه ما أقررناك وذاك، وما كنت يا أبا عمارة فاحشاً)[1].

قد تكون هذه هي قصة إسلام حمزة، وقد يكون لإسلامه قصة أخرى.. الله أعلم،

= معروف، عن عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث. انظر التهذيب (٣٨/٥) عن الثقة المخضرم زر بن حبيش.

(١) أقول: قيل لأن الرواية لم تثبت عندي، فهي مرسلة عند الطبراني، معضلة عند ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، والطبراني، انظر مجمع الزوائد ٩-٢٦٧ والسيرة الشامية (٢/٤٣) فهي ضعيفة.

وســـواء كان ذلك الذي حدث أم لا، فإن إســـلام حمزة كان نصراً هز مكة من أقصاها إلى أقصاها، فالأمر أصبح خطيراً، والأقوياء الذين كانوا يخشـــون زوال سمعتهم وما تجنيـــه لهم تلك القوة من أضواء، بـــدأوا ينضمون إلى صفوف المؤمنين ويزيدونها قوة، فقد أدركوا كم هم ضعفاء أمام قوة الإســـلام وحجتـــه.. أمام قوة القوي الذي لا يقهر سبحانه، فهل من سبيل إلى خروج قريش من هذا المأزق.. قبل أن يجدوا أنفسهم غرباء داخل مكة.

المفاوضات بعد إسلام حمزة

لم يصدق عتبة بن ربيعة أن حمزة أصبح اليوم مع ابن أخيه.. درعاً يحميه، وسيفاً يشق به صفوف قريش.. كم يصعب الوصول إليه وحمزة معه. اغتاظ عتبة أحد أسياد مكة مما يحدث (فقال يوماً وهو جالس في نادي قريش - ورسول الله ﷺ في المسجد وحده -:

يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شـــاء ويكف عنا؟ وذلك حين أســـلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حين جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الســـطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد.. أسمع.

قـــال: يا ابـــن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمـــر مالاً.. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شـــرفاً ســـودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه؟ أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه..

قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال عتبة: افعل. فقال رسول الله ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقـام عتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد..؟

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١.٣٨ والآيات التي ذكرت هي التي جاء في الحديث أنه قرأها.

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

أدرك عقل عتبة إعجاز هذا القرآن، وبهرته آياته، لكن قلبه كان صخرة تثقله، والهوى يعمي ويصم.. كانت أنياب العادات والتقاليد وبقايا سمعته مغروزة فيه، وهو أضعف من أن يتخلص منها، فهو في ريبة يتردد.. لا يجد له استقراراً.. في نزاع بين ما هو مقنع وصحيح، وبين ما اعتاد عليه وتشربه قلبه، وأخيراً دحرجته جموع الكفر إلى الكفر.. دحرجت قلبه الصخري على عقله، فانطمس، أما محمد ﷺ فأعلنها:

لا تنازل

هذا هو مبدأ نبي الإسلام ﷺ وإمام القادة.. لا يقبل إطلاقاً أي تلفيق أو ترقيع في المنهج، فلا جسور في العقيدة بينه وبين الكفر إطلاقاً. من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لكن لا وجود في الإسلام لعقيدة مشتركة مع الأصنام والأوثان.. لقد نثروا بين يديه خيارات مغرية:

الزعامة، والمال، والسيادة عليهم وهم سادة العرب، لكنه ﷺ رفض ذلك كله.. كان بإمكانه أن يتزعمهم، ثم ينقلب عليهم إذا اشتد عوده وكثر أتباعه.. كان بإمكانه أن يعقد هدنة معهم، ثم يأخذ من المال ما يتيح له أن يعد جيشاً من المرتزقة يكتسحهم به، لكنه الأمين، والأمين لا يخون، والأمين يقول: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)[2] ولن يخون ﷺ مسلماً ولا كافراً ولا مشركاً مهما كانت الأسباب، فالأمر

---

(١) حديث حسن، رواه ابن إسحاق ابن هشام ١-٢٦٢ بسند صحيح لولا خشية الإرسال: حدثني يزيد ابن زياد، عن محمد بن كعب القرظي: حدثت أن عتبة بن ربيعة.. يزيد ثقة. التهذيب ١١-٣٢٨ وابن كعب تابعي ثقة وروايته عن الصحابة، وروى عن تابعي أو اثنين، وله شاهدان عند: عبد بن حميد ٣٣٧ وفيه ضعف يسير من أجل الذيال بن حرملة فلم يوثقه الا ابن حبان. وشاهد قصير عند ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر. وفيه عنعنة ابن إسحاق.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي ٣ - ٥٦٤ وغيره عن أبي صالح عن أبي هريرة. وأبو داود ٣ - ٢٩٠ عن يوسف بن ماهك وهو تابعي ثقة عن أبيه مرفوعا وغيرهم

عقيدة، والقيادة عقيدة عند رسول الله ﷺ. فإما أن تكون لله، أو تكون للشيطان، ولن يشاطر الشيطان قيادةً ولا نهجاً.

لقد كان ﷺ يتنازل عن حقه.. يؤذى فيصبر.. يسـيل دمه فيمسحه، ثم يعود إلى بيته مكسور الخاطر صابراً حزيناً محتسباً.

كانوا يضعون النجاسـة على ظهره، وهو سـاجد لوجه ربـه وأمام كعبته، فيصبر أيضاً ويحتسب.

كان الصحابة يناشـدونه.. يبكون جراحهم.. يبحثون عن خلاص، فيطالبهم بالصبر، ثـم الصبر، ورغم ذلك كلـه، وبعد هذا العذاب كله، تجده يذهب إلى أنديتهم مبتسـماً.. يدعوهم ويدعوهم، ولا يمل من دعوتهم، وكانوا يأتونه في بيته رغم عداوتهم له.. يضعون أموالهم وودائعهم عنده، ويلقبونه بالأمين.

ما الذي يجري، وما تفسـيره..؟!! سـياطهم على ظهره، وأموالهم ودائع محفوظة عنده!!لم يقل عليه السـلام: هؤلاء مشـركون نجسون، فمالهم حلال لي، ولا عهد لهم ولا ذمة ولا كرامة. لم ينتقم لنفسـه أبداً، لم يعاقب أحداً لأنه ضربه أو شتمه، بل كان يدعو لهم بالهداية.

هذا هو الفرق بين رسـول الله ﷺ وبين مسلمين أعاقوا الإسلام أكثر من أعدائه: منهم من يتنازل عن بعض مبادئ العقيدة من أجل مكسـب سياسي أو مادي، ومنهم من يرى أن السياسة رجس من عمل الشيطان يجب اجتنابه، ويتهم كل من يتعاطاها، مع أن الحكم والسياسة من توحيد الألوهية الذي هو حق لله سبحانه وحده، وهناك من تنحط أخلاقـه، فيجعل من حسـده - لتميز أخوانه الدعاة - موجِهـا لكل تصرفاته وأحكامه ومواقفه، بل يسفل لدرجة أن لا يرى في العالم أخطاء وهفوات سوى هفوات الدعاة.

وهناك من يحاسب الناس وكأنهم يعلمون كل شيء عما يحاسبهم عليه مثل علمه تماماً، وهناك من يدعو الناس وقد حرم على نفسـه الابتسـامة، ورسـم على وجهه كل أنواع العبوس والتكشـير.. كأنه خارج من معركة ضاع فيها الشـرف وسـالت فيها الدماء، وكأن رسـول الله ﷺ لم يكن أكثر الناس تبسـماً، وأكثر الناس تطيباً، وأزكى الناس رائحة.. كأن الرسول ﷺ لم يقل إن الله جميل يحب الجمال. وهناك من يعامل جيرانه من غير المسلمين وكأنهم كلهم يتعمدون الكفر بالإسلام، وكأن المسلم غير ملزم

بدعوتهم قبل بغضهم واضطرارهم إلى أضيق الدروب. ويغفل هؤلاء - وهم في غمرة حماسهم - ويتناسون:

ما حدث لركانة

مشرك قوي البنية.. لم يتمكن أحد من طرحه على الأرض، ويبدو أنه قد تميز عن أهل عصره بتلك البنية البدنية الجبارة.

هذا الرجل يرى في جسده كل ثروته وشهرته، أما رسول الله ﷺ فكان يرى في تلك العضلات المنحوتة أبواباً إلى عقل ركانة وروحه، فلا بأس من طرقها لعل الله أن يهديه للإسلام، فيقرر ﷺ ممارسة لهو مباح مع هذا المشرك، ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ما قام به ﷺ ليس من اللهو، فماذا فعل ﷺ مع ركانة؟

لقد (كان عليه السلام بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد، ومعه أعنز له فقال له: يا محمد هل لك أن تصارعني؟ فقال: ما تسبقني؟ قال: شاة من غنمي.

فصارعه فصرعه فأخذ شاة. قال ركانة: هل لك في العود؟ قال: ما تسبقني؟ قال: أخرى. ذكر ذلك مرارا.

فقال: يا محمد والله ما وضع أحد جنبي إلى الأرض، وما أنت الذي تصرعني. فأسلم ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم غنمه)[1].

هل هناك من يقول إن رسول الله ﷺ كان يمارس شيئاً غير اللهو المباح..؟ هل كان ﷺ بتلك المصارعة يتدارس معه علماً.. أدباً أو صلاة؟

بالطبع لا. لكن من المؤكد الذي لا شك فيه أن لرسول الله ﷺ هدفاً من تلك المصارعة أسمى من غنماته وعضلاته. كان ﷺ يسعى لإسلامه.. يفتش داخل هذا الجسد الصلب عن توحيد مكبل ليحرره.. كان ﷺ يقدم درساً لأمته يكشف فيه مدى حاجة هؤلاء

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (سنن البيهقي الكبرى١٠ - ١٨) عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير ه، وهو مرسل وله شاهدان أحدهما عند الخطيب وصححه الإمام الألباني في إرواء الغليل (١٥٠١).

المشـــركين إلى التوحيد والإيمان، وأن هؤلاء المشركين مهما بلغت قسوتهم وطفح طغيانهم مساكين.. غرقى، بحاجة إلى من ينتشلهم من قلب الظلمة. من أجل ذلك قدم ﷺ درساً يبيح فيه الخوض في أبعاد الحلال وأعماقه من أجل إنقاذ إنسان كركانة.

ماذا يقول المرء وهناك من يتناســى - باســم الإسلام - فعله ﷺ ولهوه مع ركانة وهو ليس بمسلم..؟! ماذا يقول المرء وهناك من يرى أن اللين لا يجوز إلا مع الملتزمين المتمسكين بسنة رسول الله ﷺ، وأن الشدة والغلظة والعبوس أشياء مطلوبة مع من لا يظنهم كذلك؟! ويصنف الناس وينسى أثناء تصنيفه ما هو أهم.. ينسى أخوة الإسلام، ويحاول التملص من واجبات تلك الأخوة.

إنهــا ميــول مغلفة بطابع ديني، وما كان رســول الله ﷺ يمرر شــهوته من خلال الدين، لقد كان ﷺ يرســم.. يطبق شرعاً في التعامل والقيادة.. كان سمحاً مبتسماً.. لا ينتقم لنفســه أبداً، ولا يرصد الأخطاء على من ظلموه ليتشــفى، بل كان يعفو.. كان يصل هؤلاء المشــركين، ويعرف حق القرابة والرحم، رغــم افتراقه عنهم في العقيدة، لأنه مكلف بتســليمهم رســائل ربهم فرداً فرداً، ومكلف بالصبر والانتظار، ولو تحولت الأرض كلها إلى كفر بالله.

هؤلاء يبذلون القليل وينتظرون الكثير، ويغضبون إن لم يظفروا بنتائج، أما رسول الله ﷺ فكان يكدح ويعمل ويبذل ويصبر، ولا ينتظر شيئاً من أحد.. كان ينتظر الجزاء من الله، فإن ظفر بنتائج وظفها كما وظف نفسه، وجعلها للأرض سلاماً ونورا للتائهين ولو طال الانتظار، فلا يأس مع الدعوة، ولا يأس مع الدعاء:

لا يأس مع الدعاء

كان ﷺ حزيناً لما يجري لصحابته وأتباعه من تعذيب وإيذاء، وتنكيل شــديد على أيد طغاة قريش وزبانيتها، كانت الأحداث التي تعصف بهم تؤذيه وتعصر قلبه، فيتوجه بهذا الدعاء الحار إلى ربه: (اللهم أعز الإســلام بأحب هذين الرجلين إليك: أبو جهل بن هشام، أو عمر بن الخطاب)[1] فقد كانا أشد من يسلخ ظهور المؤمنين ويعذبهم فوق

---

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٣/٢٦٧ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن التعذيب.

الرمضـــاء، وكان عمر أخف حدة، وقـــد لاح ذلك عندما وقف ممتلأ بالحزن وهو يودع الصحابة المغادرين إلى أرض الحبشة، لكن قسوته تغلبت على رقته.

بدأ ابن الخطاب يمارس دوره في التعذيب مع أقرب الناس إليه، وأقربهم وألينهم قلباً وجســـداً.. أخته المســـكينة، التي ليس لها ذنب ســـوى أنها تقول: ربي الله. وعذب زوجها الصابر: ســـعيد بن زيد رضي الله عنه الذي يقول: (والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم عمر)[1].

حبال وســـياط هـــي أدوات الحـــوار التي كان يجيدهـــا عمر ويكثر مـــن حملها، فالجاهلية التي كان يعتنقها لا تســـتطيع البقاء إلا بالحبال والســـياط، لكن القلوب لا تدخلها الســـياط، والأفكار لا يثنيها الحديد، ولكن مهما كانت قسوة عمر، فإنه ما زال بشراً يحمل قلباً.. ما زال يحمل عقلاً.

عمر يلقي آخر السياط ويسلم

عمر بن الخطاب.. الرجل الحديدي يسلم، وتلك القوة التي كانت ترزح فوق أنفاس المســـتضعفين انزاحت، فهل ستســـتحيل بين أيديهم سلاحاً يشـــقون به طريقهم وسط غابة الخناجر والســـيوف، وأغصان من المشـــانق والقيود، أم أن عمر سينضم إلى قافلة المستضعفين الذين لا يملكون حولاً ولا طولاً..؟

كل تلك التساؤلات.. أجاب عنها عمر، فهو لم ينتظر أن يسأله أحد: كيف أصبحت..؟

أراد أن يعلـــن صباحـــه الجديد على مكة.. أراد أن تشـــرق شمســـه على جبال مكة وبيوتها، فلم ينتظر أن تزحف الأخبار إلى بيوت مكة بخبر إســـلامه.. أرادها أن تطير.. أراد أن يقول إنه تخلص من شركه كما تتخلص الأشجار من أوراق الخريف الصفراء.. على الطرقات وفي البيوت، ويحملها الهواء في أجواء مكة، لتشعر قريش بالحاجة للمطر.

هاهو مع ابنه الصغير عبد الله.. يسأل من حوله.. يبحث عن رجل يحب النميمة ونشر الإشاعات، فيقول: (أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وقد مر معنا.

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كل ما رأيت -، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت، ودخلت في دين محمد ﷺ؟

فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.

فقال عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح[١] فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا.

فبينا هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة[٢] وقميص موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟

فقالوا: صبأ عمر. فقال: فمه؟ رجل اختار لنفسه فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلوا عن الرجل.

يقول ابن عمر: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه، فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك بني "العاص بن وائل السهمي")[٣].

يقول الطفل ابن عمر: (فتعجبت من عزه)[٤].

---

(١) تعب.

(٢) ثوب من قطن أو كتان كان يصنع باليمن.

(٣) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق ١٦٠: حدثني نافع عن ابن عمر، وهو سند كالذهب نافع تابعي معروف ثقة ثبت مشهور، وابن إسحاق صرح بالسماع منه.

(٤) سنده قوي رواه في فضائل الصحابة ١ - ٢٨٢ حدثني محمد بن أبي عمر ثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن بن عمر. ورجاله أئمة ثقات وابن أبي عمر صدوق صنف المسند لازم بن عيينة تقريب التهذيب ٥١٣.

ولـم يكن عز هـذا الرجل بأعظم من إجابته المفحمـة لعصابة الكفر، إنه يرفض مبـدأ قريش في تكميم الأفواه وتقييد الحريات، فالرجال أحرار في اعتناق ما يرونه، وعمر حر في اعتناق ما رآه صواباً وحقيقة، فلماذا التبرم يا قريش؟!

صمتت قريش وانسـحبت، فهي لا تريد أن تفقد شـخصية بارزة وشـيخا مهيبا كالعاص، ولأنها تفتقر إلى أسلحة العقل والإقناع.

قريش لا تملك شـيئاً يبرر أصنامها وطقوسـها، لكنها تملـك صراخاً وضجيجاً تزاحم به أجواء الحوار الهادئة، فإذا ما ماجت السـاحة بالفوضى والغبار والضجيج، مَرَّرَت ما تريد وفرضت ما تشـتهي، وأبقـت الدعاة في أجواء الخوف والرعب، لعلهم يتراجعون عن رسـالتهم التي تخطف القلوب والعقول بهدوءٍ من صفوفها. لكن رسول الله ﷺ اسـتمر في هدوئه ودعوته.. يزداد سـكينة كلما ازدادوا شراسة، ويبشر كلما عسروا وشددوا، ويبتسم كلما كشروا عن أنياب دامية، ويلاطف الناس جميعاً بأسلوب سـاحر آسر.. مفعم بالحب والشـفقة.. كله ود وجمال.. كأنه خرير ماء.. كأنه ساحة من الزهور فسيحة.

هذا الأسلوب جعل معسـكر الكفر يفقد أعصابه وأفراده، فبالأمس كانت قريش تفقـد أفراداً ربما لم يكن لهم تأثير، أما اليوم فهـي تفقد أقوياء مفتولين كالحديد.. هاهو حمزة ينسـحب منهـم، ويتبعه عمر بن الخطاب، وهاهـم الضعفاء يقتربون من الكعبة.. يطوفون بها، بل يصلون عندها، وهاهو أحدهم.. راعي الغنم الفقير عبد الله بن مسعود يقول: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)[1].

كان إسـلامه فضاءً جديداً.. فسحة وجد فيها بعض المسلمين ساحة آمنة يركعون فيها ويسـجدون لله قرب الكعبة، حتى قال ابن مسـعود: (والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر)[2].

عمر اليوم سيف للإسلام لا يفل، ولا يحول بينه وبين رقاب الطغاة حائل، فأصبح لأقدام المسـتضعفين مكان في بيت الله الحرام، وجوار الكعبة.. يتجمهرون حول نبيهم

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٣.

(٢) حديث حسـن رواه الحاكم ٣ – ٩٠ وغيره من طرق عن القاسـم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله. والصواب: دون كلمة أبيه عند ابن سعد ٣-٢٧٠ وله عنده شاهد يقويه.

ﷺ عند الكعبة، ويسمع المهاجرون إلى الحبشة بتلك الأحداث المفرحة، فيركب بعضهم الأمواج والبهجة عائداً إلى رسول الله ﷺ.

وفي يوم من تلك الأيام التي يلتف بها الصحابة حول نبيهم ﷺ، وقد زاحمهم المشركون أيضاً تنغيصاً ومضايقةً.. في مجلس الأخلاط هذا كان ﷺ يتغنى بآيات من سورة النجم:

﴿ أَفَرَءَيْتَ[1] ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾[2]. وبعد أن قرأ ﷺ هذه الآيات سجد (وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[3] (غير شيخ أخذ كفاً من حصىً أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا)[4].

سجد الكفار المعاندون وسجد المؤمنون.. أخذتهم هذه الآيات، فساحت بهم في رحلة بدأت من الآخرة، حيث القبور الثائرة المبعثرة، وحيث الأموات يشقون أكوام التراب والغبار.. ينتفضون.. يخرجون يبحثون عن الداعي والمنادي نحو أرض المحشر، وتنتهي بهم الرحلة هناك بين الخرائب الصامتة.. خرائب عاد وثمود وقوم لوط.. إلى

---

(١) بدأت الآيات من هنا لأن الآيات التي قبلها تتحدث عن الإسراء والمعراج، فكأنها هناك.

(٢) سورة النجم.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ١-٤٠٥.

(٤) متفق عليه.

حيث الجثث منثورة متورمة من الماء.. جثث قوم نوح المتعفنة التي طوح بها الطوفان في كل مكان، وأثناء هذه الرحلة المخيفة يدخل المسافرون عالماً مدهشاً وعجيباً يقال له الإنسان.. بدايته حقيرة، لكنه يتمدد حتى يصبح عوالم تثير الدهشة والحيرة.. تحني الرقاب، وتخضع القلوب والجباه لقدرة الله واعترافاً بعظمته. رحلة تفتح القلب والعقل لأسئلة مصيرة جوابها في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1].

تأثر السامعون المسلمون والمشركون أيضاً، فسجدوا لله وحده لا لشيء آخر[2]، حتى ذلك الشيخ الوثني الحجري.. لم يستطع كبت شعوره نحو هذه الآيات وتأثره بها، فرفع ملء كفه من الحصى ووضعه على جبهته.

لحظات من الخضوع والخشوع كانت تطوف بالكعبة، وبالملتفين حول نبي الرحمة ﷺ، لكن تلك اللحظات لم تلبث طويلاً، لقد مرت بالمشركين يطاردها الشيطان.. عاد الشيطان من جديد يتمدد في الشرايين والقلوب.. يثير في نفوس زعماء المشركين، وفي كل زعماء الدنيا الرعب والخوف من المستقبل المجهول.. من محمد ﷺ وصحابته. يقول إنهم في طريقهم إلى السيطرة على مكة وغيرها، ولا بد من إيقاف ذلك الزحف المفزع.

---

(١) هذه الآيات العظيمات قرأها أحد كبار علماء الأجنة في كندا والعالم البروفيسور (كيث. إل. مور) فأذهلته، وأذهله إعجازها، فهي دقيقة ومعلوماتها لا يستطيع بشر في عصر النبي عليه السلام التوصل إليها، فدرس القرآن وأعلن إسلامه، وقال إن مراحل الخلق في القرآن أدق من تلك المراحل التي وضعها في كتابه وهي:٣،٢،١ إلى مراحل القرآن.. نطفة فعلقة فمضغة.. وهكذا، وهي آيات تثبت البعث يوم القيامة، فسبحان من حفظ هذا القرآن.

(٢) أقصد بالشيء الآخر تلك القصة الغريبة (قصة الغرانيق) المخالفة لصريح القرآن الضعيفة سنداً . انظر رسالة (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) للعلامة الألباني رحمه الله ولأستاذي الشيخ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي نقد علمي لها في (مغازي عروة).

نجح الشـــيطان ورمى بقريش نحو التطرف من جديد، وها هو الشر يغلي برؤوس طواغيتهـــا، فيقررون الإقدام على جريمة حمقـــاء.. جريمة يرتكبها الطواغيت في كل زمان ومكان.. تمهيدا لاغتيال الحرية والعقل والإرادة: التصفية الجسدية.

محاولة قتل عمر

عمر بن الخطاب شجاع.. قوي، وليس من السهل النيل منه، لذا.. لا بد من حشد يحملون عليه حملة رجل واحد، فاتفقت قريش على هذا الأمر، وسارت مجموعة كبيرة لا قبل لعمر بها، فلزم بيته لا يغادره، لكن الخبر وصل للعاص بن وائل من جديد، فكان له كلمة أخرى وتصرف آخر، بعد أن رأى حشود الطواغيت يحاصرون عمر في منزله تمهيدا لاقتحامه والإجهاز عليه.

لحظـــات تحبس الأنفاس يرويها طفل صغير كانت عيناه زائغتان ترتعشـــان خلف ذلك الباب الذي يتعرض لصلف رجال تخلوا عن رجولتهم وعقولهم.

عبـــد الله بن عمر ذلك الطفل المحاصر مع أبيـــه، والذي يتلصص اليتم عليه من شـــقوق البـــاب.. يتحدث عن تلك اللحظـــات التي غاب فيها العقـــل، فحضرت ثقافة الأصنام وحشوده.!!

يقـــول أن والده كان (فـــي الدار خائفـــاً إذ جاءه العاص بن وائل الســـهمي، وعليـــه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحرير فقال: ما بك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم ســـيقتلونني لأنني أسلمت. قال: لا سبيل إليك أمنت. فخرج العاص فلقي الناس قد ســـال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا ســـبيل إليه. فكر الناس وتصدعـــوا[1]. عنه)[2]ورجعوا والغيـــظ يملؤهم. رجعوا.. لا لعقولهم، ولكن ليحرموا رســـول الله ﷺ وأتباعه فرص التفرغ لمشـــروعهم الدعوي، فمـــا كانوا ليتركوا دقيقة صفاء إلا وحاولوا التســـلل لتعكيرها.. هاهم يجتمعون مرة أخرى فيقررون:

(١) تفرقوا عنه.

(٢) متفق عليه.

الذهاب إلى أبي طالب

فكمـــا أن العاص قد أجار عمر، فإن أبـــا طالب يحمي ابن أخيه محمداً ﷺ، فلا بد من كسر الحماية..

لا بـــد أن تكون تلك الحماية بشـــروطهم، ولا بد من الضغط عليه وعلى عمه عله يتراجـــع، وكان ذلـــك التراجع هو الحلم لقريش عندما (جـــاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال لابنه: يا عقيل انطلق فأْتني بمحمد.

يقول عقيل: فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس[1] - بيت صغير - فجاء به في الظهيرة، في شدة الحر، فجعل يطلب الفيء [2]، يمشي فيه من شدة الحر الرحض[3]، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم.

فحلق[4] رســـول الله ﷺ ببصره إلى الســـماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة.

فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا)[5].

فرجعوا، لكن إلى ماذا؟ رجعوا لـ:

---

(١) ويعني أيضاً بيت الأسد.

(٢) الظل.

(٣) العرق.

(٤) أي رفع وأجال.

(٥) سنده جيد، رواه البخاري في تاريخه (٧/ ٥١) والبيهقي (٢/ ١٨٦) من طريق: يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى بن عبد الله، عن موسى بن طلحة: أخبرني عقيل بن أبي طالب. ويونس حديثه حسن: التقريب ٦١٣ وطلحة حسن الحديث من رجال مسلم، وموسى تابعي ثقة التقريب ٥٥١، وقد وردت هذه القصة بسند ضعيف ولفظ مختلف عند ابن إسحاق والبيهقي (٢/ ١٨٧) بلفظ: يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك في طلبه، وراوي هذا الحديث هو يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس لم يذكر من هو شيخه بل قال: حدثت أن قريشاً قالت:... ثم إن فيه جهالة التابعي انظر التهذيب ١٣-١٩٢، فهو كما قال الإمام الألباني: من أتباع التابعين. وتعليق الألباني على فقه السيرة الغزالي (١٠١).

فقد سـقط أمل كان يترنح لهم في الأفق، واتضحت الرؤية على أرض مكة.. إما الله، وإما الأصنام.. إما التوحيد، وإما الشرك.. لا جسور بينهما ولا اتصال.

سـقط أحد الآمال التي كانت تحملها قريش، فأغضبها ذلك السقوط، فعزمت على العودة من جديد.. للتعذيب من جديد، وسيكون هذه المرة أقسى وأغلظ وأشد.. ستصل أنيابه إلى الجميع دون تفريق، لقد قررت قريش أن تملأ مكة بالدماء..

هاهم وقد أمسكوا برسول الله ﷺ يضربونه ضرباً شديداً حتى أسالوا دمه، فيهرب هائماً مغموماً كئيباً، فيأتيه جبريل عليه السلام (وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟

فقال ﷺ له: فعل بي هؤلاء.. وفعلوا. فقال جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم.

فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة.

فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل: مرها فلترجع. فأمرها، فرجعت إلى مكانها.

فقال رسول الله ﷺ: حسبي)[1].

آية عظيمة، ومعجزة تسليه ﷺ.. تمسح عنه دماء نازفة، ودموعاً حارقة، فيعود لمكة مرة أخرى.. متخفياً عن أعين القوم وأيديهم، فيجد أتباعه يفترشون الرمضاء.. يلتحفون السياط.. يعجون إليه يطلبون الإذن بالهجرة من جديد؟ فيأذن لهم، وكانوا هذه المرة أكثر من ثمانين صحابياً معذباً.. يريدون أن يعبدوا الله بحرية، ويعمروا الدنيا بسلام، فأذن لهم ﷺ.

---

(١) إسناد صحيح: رواه الإمام أحمد ٣-١١٣، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك، والأعمش مدلس وقد عنعن، لكن يذهب شبهة تدليس كونه راوية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان، طلحة بن نافع القرشي، فقد جاء في التهذيب (٢٦/٥): روى عنه الأعمش وهو راويته، بالإضافة إلى أن وكيعا قال عن أبي معاوية: ما أدركنا أحداً كان أعلم بحديث الأعمش من أبي معاوية.

الهجرة إلى الحبشة ثانية

إحدى الشـــابات المعذبات هي (هند) أم سلمة رضي الله عنها.. تحدثنا عن رحلة الآلام كاملـــة فتقول: (لمـــا ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رســـول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم[1]، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها أرســـالاً، حتى اجتمعنا بها، فنزلنـــا بخير دار، وإلى خير جار، آمناً على ديننا ولم نخش منه ظلماً. فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمناً اجتمعوا على أن يبعثوا إليه[2] فينا، فيخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم.

فبعثـــوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا، ولبطارقته[3]، فلـــم يدعوا رجلاً منهم إلا هيأوا له هدية على حدة، قالوا لهما: ادفعوا إلى كل بَطْرِيق هديتـــه قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه، وإن اســـتطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته، وكلموهم، فقالوا لهم: إنا قدمنا إلى هذا الملك في ســـفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل. فقالوا: نفعل.

ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم[4]، فلما أدخلوا عليه هداياه، قالوا له: أيها الملك، إن فتية من ســـفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلـــوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفـــه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم، وأعمامهم، وقومهم لتردهم، فهم أعلاهم عيناً.

---

(١) مر معنا تخريج هذا الجزء.

(٢) أي إلى النجاشي.

(٣) البطريق أو البطريرك هو رئيس الأســـاقفة، والأسقف العالم النصراني وهو فوق القس والقس غالباً هو المتفرغ للعبادة وخدمة الكنيسة.

(٤) الجلود.

فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا أعلاهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك.

فغضب، ثم قال: لا، لعمر الله لا أردهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجأوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أخل ما بينهم وبينهم، ولم أنعمهم[1] عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم، فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول!.. نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب، فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، نأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه، وصدقه، وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي لله، ونصوم له، ولا نعبد غيره.

فقال النجاشي: فهل معك شيء مما جاء به - وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله - هلم فاتل علي ما جاء به.

فقرأ عليه صدراً من: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ

---

(١) نعمة العين أي قرتها، أي أقر أعينكم برجوعهم إليكم.

أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا
﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ
رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ
وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن
جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ
مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا
رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي
بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ
وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ
عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ
لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ
جِئۡتِ شَيۡـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٍ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا
﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ
وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا﴾(١).

(١) ما بين الأقواس ليس في نص الحديث، لكن جعفراً قرأه بالتأكيد وقد ذكرته ليستشعر القارئ ذلك الموقف، ولم أكمل الآيات لأنه من المؤكد أنه لم يقرأ ما بعدها لأنها تتحدث عن وحدانية الله، وعن بشرية عيسى، ولو قرأها لما تكلم عمرو بن العاص فيما بعد.

فبكى والله النجاشـــي حتـــى اخضلت لحيتـــه[١]، وبكت أســـاقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشـــكاة[٢] التي جاء بها عيسى، انطلقوا راشدين، ولا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عيناً.

فخرجنا من عنده، وكان أبقى الرجلين فينا[٣] عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أســـتأصل به خضراءهم[٤] إنهم يزعمون إن إلهه الذي يعبد عيســـى بن مريم: عبد. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال عمرو بن العاص: والله لأفعلن.

فلما كان من الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم رسولاً فاسألهم عنه.

فبعث إليهم - ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيســـى إن هو سألكم عنه؟ فقال: نقول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه.

فدخلوا عليه، وعنده بطارقته، فقال: ماذا تقول في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر: نقول عبد الله ورسوله، وكلمته[٥]، وروحه[٦]، ألقاها إلى مريم العذراء البتول[٧].

فدلى النجاشـــي يده إلى الأرض، وأخذ عويداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد[٨].

فتناخرت[٩] بطارقته. فقال: وإن تناخـرتم والله، اذهبوا فأنتم ســـيوم في أرضـي - والســـيوم الآمنون - من سبكم غرم، ثم من ســـبكم غرم، ثم من سبكم غرم - ثلاثاً

---

(١) تبللت بالدموع.

(٢) الكوة التي في الجدار يوضع فيها المصباح. أي أنه من المصدر نفسه.

(٣) أي أشفق وأرحم.

(٤) أصلهم.

(٥) كلمة الله: أي قول الله كن فيكون، كما قال لآدم كن فكان بلا أب ولا أم.

(٦) روح الله، مثل قولك للكعبة إنها: بيت الله.

(٧) العذراء المنقطعة عن الزواج.

(٨) تصغير كلمة عود. أي أن عيسى هو كما وصفه القرآن الكريم.

(٩) أي أخرجوا أصواتا من أنوفهم، أو تنحنحوا استنكارا لقوله واحتجاجا.

– مـا أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم – والدبر بلسـانهم: الذهب – والله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع النـاس فيه، ردوا عليهمـا هداياهما فلا حاجة لي بها، فاخرجـا من بلادي. فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار، فلم ينشـب[1] أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعـه فـي ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشـد منه فرقـاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونسـتغفره للنجاشـي، فخرج إليه سـائراً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: من رجل يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر ما يكون، فقال الزبير – وكان من أحدثهم سناً: أنا.

فنفخـوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم خرج يسـبح عليها في النيل، حتى خرج من شـقه الآخـر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة، فهـزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشـي، فجاءنا الزبير يليح علينا بردائه، ويقول: ألا أبشروا، فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشـيء قط فرحنا بظهور النجاشـي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعاً إلى مكة، وأقام من أقام)[2].

هذه هي قصة النجاشـي مع المهاجرين، فما قصة الرشوة التي تحدث عنها ذلك الملك الطيب.. هدية الحبشـة للإسـلام..؟ وما معنى قوله: (ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه)؟

ذلـك أمر حدث بين أنهار الحبشـة وأدغالها، تحدثنا عنه إحـدى بنات أبي بكر الصديـق فتقـول رضي الله عنها: (إن أباه[3] كان ملك قومه، وكان له أخ من صلبه اثنا عشر رجلاً، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها، فقالوا: إنا إن قتلنا أب النجاشي وملكنا أخاه، فإن له اثني عشر رجلاً من صلبه فتوارثوا الملك

---

(١) لم يمر زمن طويل حتى.
(٢) سيأتي تخريجه في نهاية الخبر التالي، فهو جزء منه.
(٣) أي والد النجاشي.

لبقيت الحبشة عليهم دهراً طويلاً لا يكون بينهم اختلاف، فعدوا عليه، فقتلوه، وملكوا أخاه، فدخل النجاشـــي لعمه حتى غلب عليه[1]، فلا يدير أمره غيره، وكان لبيباً، فلما رأت الحبشـــة مكانه من عمه قالوا: لقد غلب هـــذا الغلام أمر عمه، فما نأمن من أن يملكه علينا وقد عرف أنا قد قتلنا أباه، فإن فعل لم يدع منا شـــريفاً إلا قتله، فكلموه فيه، فلنقتله أو نخرجه من بلادنا.

فمشـــوا إليه فقالوا: قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قد قتلنا أباه، وجعلناك مكانه، وإنا لا نأمن أن تملكه علينا فيقتلنا، فإما أن تقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا، فقال: ويحكم قتلتم أباه بالأمس، وأقتله اليوم، بل أخرجه من بلادكم.

فخرجـــوا به، فوقفوه بالســـوق، فباعوه من تاجر من التجار، فقذفه في ســـفينة بســـتمائة درهم، أو بســـبعمائة درهم، فانطلق به، فلما كان العشـــي هاجت ســـحابة الخريـــف، فجعل عمه يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة، فقتلته، ففزعوا إلى ولده، فإذا هـــم محمقين[2] ليس فـــي أحد منهم خير، فمرج على الحبشـــة أمرهم، فقال بعضهم لبعـــض: تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلـــح أمركم غيره للذي[3] بعتم بالغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه حتى أدركوه، فردوه فعقدوا عليه تاجه، وأجلســـوه على سريره، وملكـــوه، فقال التاجـــر: ردوا علي مالي كما أخذتم مني غلامـــي. فقالوا: لا نعطيك، فقال: إذاً والله أكلمه. فقالوا: وإن.

فمشى إليه فكلمه فقال: أيها الملك، إني ابتعت غلاماً فقبضوا مني الذي باعونيه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي، ولم يدروا علي مالي.

فـــكان أول ما خبـــر من صلابة حكمه وعدله أن قال: لتردن عليه ماله، أو ليجعلن غلامه في يده، فليذهبن به حيث شاء؟

فقالوا: بل نعطيه ماله. فأعطوه إياها.

---

(١) أي أن النجاشي بعد قتل أبيه تقرب من عمه ولازمه حتى أصبح أوثق الناس عنده.

(٢) أي حمقى: والحمق قلة العقل.

(٣) لا يصلح أمركم غير النجاشي الذي بعتم.

ولذلك يقول: ما أخذ الله مني الرشوة فآخذ الرشوة منه حيث رد علي ملكي، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه)[1].

ذلك هو النجاشي، وتلك قصة تتويجه.. تتويج العدالة الحبشية. ذلك الملك الأسمر نال شهادته من السماء بعد أن عدل بين شعبه.. نال شهادته قبل أن ينصف المسلمين. قال ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده) قبل أن يصل أصحابه، وقبل أن يسمعوا عنه. فلتهنأ الحبشة بسبقها، فلقد أنصفت المسلمين من براثن مشركي قريش، وآوتهم بعد أن ضاقت عليهم مكة، في حين كانت يد قريش تمتد في حقد عجيب.. في تسلط حقير لتكمم الأنوف والأفواه، وتمنع الهواء.

إنها تحسدهم على أرض يمشون عليها، وتحسدهم على حصير يلقون عليه أجسادهم التي أتعبها الترحال والشقاء!! ترى أي قلوب كانت تضمها أجساد المشركين حتى يركضوا خلف الراحلين، ويدفعوا الرشوة لطرد هؤلاء الضعفة المساكين..؟!

رجلان أرسلتهما قريش بتلك المهمة الوضيعة: عمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبي ربيعة.

دعونا نستمع إلى أحدهما (عمرو بن العاص) وهو يقص علينا قصته، وأثرها في نفسه. بالطبع هي قصة الوجه البشع لرسول قريش في تلك الأزمنة العصيبة على الإسلام، فكيف كان يرى عمرو رحلته، وماذا تكشف له بعد أن سمع ورأى ما حدث.

يقول عمرو بن العاص: (لما رأيت جعفراً وأصحابه آمنين بأرض الحبشة. قلت: لأفعلن بهذا وأصحابه، فأتيت النجاشي، فقلت: ائذن لعمرو بن العاص. فأذن لي.

فدخلت. فقلت: إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد، وإنا والله إن لمن ترحنا منه وأصحابه، لا أقطع إليك هذه النطفة[2] أبداً، ولا أحد من أصحابي. فقال: أين هو؟ فقال عمرو: إنه يجيء مع رسولك، إنه لا يجيء معي، فأرسل معي رسولاً.

---

(١) إسناده صحيح، رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٣٠١) وأحمد (١-٢٠١) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي ﷺ . الزهري إمام ثقة ثبت معروف، وأبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد التقريب ٦٢٣.

(٢) النطفة هي الماء الصافي، وربما أراد بها البحر.

فوجدنـــاه قاعداً بين أصحابه، فدعاه، فجاء، فلما أتيت الباب ناديت: ائذن لعمرو بن العاص. ونادى خلفي: ائذن لحزب الله عز وجل، فسمع صوته، فأذن له.

فدخل ودخلت، فإذا النجاشي على السرير، وجعلته خلف ظهري، وأقعدت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي فســكت وسكتنا، وسكت وسكتنا، حتى قلت في نفسي: العن هذا العبد الحبشي ألا يتكلم.

ثـــم تكلم، فقال: نجروا - أي تكلموا. فقلت: إن ابن عم هذا يزعم إنه ليس للناس إلا إلـــه واحـــد، وإنك والله إن لم تقتله لا أقطع إليك هذه النطفة أبداً، أنا ولا أحد من أصحابي.

فقال النجاشي: يا أصحاب عمرو ما تقولون؟ قالوا: نحن على ما قال عمرو. قال النجاشي: يا حزب الله نجر.

فتشهد جعفر - والله إنه لأول يوم سمعت فيه التشهد ليومئذ.

قال جعفر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال النجاشي: فأنـــت فما تقـــول؟ قال جعفر: أنا على دينه، فرفع يده ثم وضعها. ثم قال النجاشـــي: أناموسٌ كناموس موسى، ما يقول في عيسى؟

قال جعفر بن أبي طالب: قول: روح الله[1] وكلمته.

فأخذ النجاشـــي شـــيئاً من الأرض ثم قـــال: ما أخطأ فيه مثل هـــذه، لولا ملكي لأتبعتكم. اذهب أنت يا عمرو، فوالله ما أبالي أن لا تأتيني أنت ولا أحد من أصحابك أبداً، واذهب أنت يا حزب الله. فأنت آمن.. من قتلك قتلته، من سبك غرمته.

وقـــال لآذنه: انظـــر هذا فلا تحجبه عني إلا أن أكون مـــع أهلي، فإن كنت مع أهلي فأخبره، فإن أبى إلا أن تأذن له فأذن له.)[2]. هذا ما حدث في الحبشة.

---

(١) كلمـــة اللـــه مثل معنى بيت الله، وأرض الله، وكلمته أي قول الله كن (فيكون) كما قال تعالى في آل عمران (٩٥) إن مثل عيســـى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. فعيســـى خلق من غير أب، وآدم خلق من غير أب ولا أم.

(٢) إسناده حسن، رواه البزار٤-١٣٤: حدثنا محمد بن المثنى: حدثنا معاذ، حدثنا ابن عون، حدثني عمير بن إســـحاق، حدثني عمرو بن العاص. ابن المثنى ثقة ويعروف بالزمن التقريب ٥٠٥ ومعاذ بن معاذ بن نصر: ثقة متقن، وعبد الله بن عون بن أرطبان ثقة ثبت فاضل. وعمير بن إسحاق تابعي حسن الحديث والكلام فيه لا يضر ولا ينزله عن رتبة الحسن.

أمّا في مكة

بعيداً عن الحبشـــة، خلف آلاف الأميال.. خلف البحار خلف الجبال ووسط لهب من الكفار.. كان ﷺ صامداً لا يذوب لا ينثني. قد أدرك أن قريشاً تعاند، فلا بد من البحث عن تربة خيراً من هذه التربة.. خيراً من هذه القلوب الصدئة. لا بد من البحث عن قبائل تحتضن الدعوة.. تســاندها، وتدافع عنها وتجمع أشتاتها، فدعاتها هاربون دائماً.. هائمون دائماً، وغربتهم موحشة مضنية. قد أذابتهم الأحزان، وطوحتهم الأيام خلف الجبال والبحار، وبين اللحود.. يتلفتون كأنهم قد سرقوا الإيمان سرقة.. يتلفتون خشية أن يؤخذ منهم، ويفزعون عند سماعهم خشف نعال، أو طرق باب.. فزع المحكوم عليــه بالإعــدام، فهو في زنزانته ينتظــر الجلّاد، ويراه قادماً مــع كل حركة.. مع كل همسة. وكأن الموت يعد بقية أنفاسه، فهل من مخرج؟

رجل اســمه (ربيعة الديلي) يروي مأســاة النبي عليه السلام في أسواق الجاهلية ومنتدياتهــا، ومعاناته مع أقــرب الناس إليه. يروي إصراره علــى المضي والتوغل في صحارى التجاهل، فلا بد من نهر خلف تلك الصحاري، أو نبع ماء.

يقول ربيعة: (رأيت رســول الله ﷺ بصر عيني بســوق ذي المجــاز يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ويدخل في فجاجها[1] والناس متقصفون[2] عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت.. يقول: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) أجل.. تفلحوا. إنه لا يريد أموالكم ولا ماعندكم، فما يريده هو العودة بهذا القطيع الشارد إلى موارد الماء والكلأ، بعد أن تاه في صحاري الشــرك الشاســعة التي تقطع الأعناق باللهاث خلف سرابها، لكن قريشاً لا تدعه.. لا ترحمه، حتى وهو يخاطب من ليس منها لا تدعه.

يصف ربيعة ما رأى فيقول: (إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه، ذا غديرتين، يقــول: إنه صابئ كاذب. فقلــت: من هذا؟ قالوا: هذا محمد بــن عبد الله وهو يذكر النبوة. قلت: من هذا الذي يكذبه. قالوا: عمه أبو لهب)[3].

---

(١) الفجاج الطريق الواسع.

(٢) مجتمعون عليه.

(٣) حديث حســن رواه أحمد ٤-٣٤١ من طريق ابن أبي الزناد، وقد ســاء حفظه عندما قدم بغداد وربما كان هذا منها، وبقية رجاله ثقات، وما بعده شاهد يقويه.

كأن السورة التي نزلت فيه وفي امرأته أضرمت بيته، فصار لا يقر له قرار وهو يرى عاره على كل لسان، وفي كل نظرة لهباً يشويه. إنه التشفي ومحاولة إطفاء متأخرة لما قد احترق منه.

إن إسلام المزيد من الناس يعني لأبي لهب المزيد من شتمه، والتقرب إلى الله ببغضه، فقام يمارس تحطيم كل بناء للنبي ﷺ، ويحاول الإبقاء على الظلام بإطفاء كل شمعة يشعلها عليه السلام، فهو يركض خلفه لا يطلب الراحة لنفسه، ولا لغيره، وكيف يجدها! وقد حشته تلك الآيات جمراً وصغاراً على كل لسان.

يقول ربيعة: (رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان، كأني أنظر إليه أحول ذا غديرتين، أبيض الناس وأجملهم)[1] بل ومن أشرفهم نسباً، لكن ذلك كله لم يسعف رجلا حشرت في رأسه كل رموز التخلف، والشرك والهمجية.

لا شيء سوى كتلة متورمة من الأحقاد والضغائن تتدحرج خلف رسول الله ﷺ، الذي يتجاهله ويصوب بصره نحو الأمام.. نحو البناء.. يتبع القبائل كلها، ويقف أمامها كلها.. يتلمس خيامها في كل سنة تنصب فيه تلك الخيام، فيدلف كل خباء، باحثاً عن قلوب تتلمظ فيها الفطرة كالعطش، فيصغي إليها من سحاب التوحيد العذب والحياة مع الله ما يرويها ويذهب عطشها.

كان يغشى أسواقهم التي يقيمونها كل عام للتجارة والشعر والأدب.. يغشاها ينثر في دروبها عبير الإيمان، ويبحث عن أنصار، وكان بصحبته رفيق طفولته، وصدِّيق نبوته أبو بكر الصديق، وشاب كله حياة.. هو ابن أخيه علي بن أبي طالب الذي يقول:

(لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه)[2].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد ٣-٤٩٢، حدثنا مصعب بن الزبير، وهو عالم صدوق، حدثني عبد العزيز بن محمد الدراوردي وحديثه هنا حسن لأنه عن غير عبيد الله العمري، عن ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وهو ثقة فاضل فقيه، عن سعيد بن خالد القرظي، وهو تابعي صدوق. التهذيب ٤-٢٠. وهو شاهد لما قبله.

(٢) قطعة من حديث طويل صحيح سيمر معنا إن شاء الله. عند الحديث عن لقاء الأنصار.

لقد (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤوه إلى قومهم، حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته، ولهم الجنة)[1].

لقد (لبث عشر سنين يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم: مجنة، عكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)[2] عشر سنوات يتلطف مع (بني حنيفة) و(كندة وكلب) يذهب إلى (بني عبس وهمدان) وله مع (بني عامر بن صعصعة) لقاءات.. عشر سنوات من الصبر والمكابدة (يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء[3] ذو جمَّة[4]، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة ويقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر من خلفه:

يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الحي بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه)[5].

كانت أخباره تنتقل في كل اتجاه من جزيرة العرب، وذات يوم صادفت قلباً لرجل من غفار يدعى (أبو ذر):

إسلام أبي ذر الغفاري

لقد تعب أبو لهب من الركض خلف رسول الله ﷺ وأتعب يديه، وتعبت زوجته من هذا التراب.. ينثرونه فوق رأس رسول الله ﷺ، والشوك يغرزونه في طريقه. لقد

---

(١) حديث حسن رواه الطبراني وأبو نعيم (٢٩٢) لأنه من طريق عبد الله بن عمر بن حفص رجل صالح عابد صدوق في نفسه، لكن في حديثه بعض الاضطراب ويشهد له ما بعده.

(٢) سنده صحيح وسيمر معنا كاملاً عند الحديث عن لقاء الأنصار إن شاء الله.

(٣) حسن وجميل.

(٤) ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

(٥) إسناده قوي: رواه أحمد ٣-٤٩٢ حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا ابن أبي زائدة قال ابن إسحاق حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس سمعت ربيعة الديلي يقول.. وقال أحمد: حدثنا سعيد بن أبي الربيع السمان، حدثني سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، حدثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة الديلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ ... من هذين الطريقين طريق ضعيف، وهو الإسناد الأول، لأنه من رواية حسين بن عبد الله، قال في التقريب ١٦٧: ضعيف لكن يشهد له ما بعده، فشيخ أحمد: السمان صدوق، قال ابن حبان: يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه. وهذه ليست منها. ذيل الكاشف ١١٨ وشيخه صدوق أيضاً التهذيب (٤١/٢) وشيخه محمد بن المنكدر ثقة فاضل قاله في التقريب ٥٠٨.

تعب أبو لهب وأتعب معه رســـول الله ﷺ، لكن تلك السنوات من الصبر والعرق كانت كفيلة بانتشـــار عبير الإسلام، فأخبار رسول الله ﷺ تطايرت هنا وهناك، فصادفت قلوباً مفتوحة.. نفوســـاً فسيحة، فتعلقت بما ســـمعت وعشقته، وأتعبت مطاياها في البحث عنه.

قلـــب أبي ذر من تلك القلوب.. هاهو يحدث من حوله عن ذلك الحب.. عن ذلك الشوق فيقول: (كنت رجلاً من غفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج مكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل، كلمه، وائتني بخبره.

فانطلـــق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: مـــا عندك؟ فقال: والله لقـــد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. فقلت له: لم تشفني من الخبر.

فأخذت جراباً وعصاً، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم. قال: فانطلق إلى المنزل.

فانطلقت معه لا يســـألني عن شيء، ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمر بي علي. فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قلت: لا. قال: انطلق معي.

فقـــال علي: ما أمرك، وما أقدمك هذه البلـــدة؟ قلت له: إن كتمت علي أخبرتك. قال: فإني أفعل.

قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال علي بن أبي طالب: أما إنك قد رشـــدت، هـــذا وجهي إليه، فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحداً أخافه عليك. قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامضِ أنـــت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني.

فقـــال لي: يا أبا ذر، اكتم هـــذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد، وقريش فيه.

فقال أبو ذر: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علـي، ثم أقبل عليهم، فقـال: ويلكم، تقتلون رجلاً من غفـار، ومتجركم وممركم على غفار.

فأقلعـوا عني، فلما أصبحـت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلـت بالأمس. فقالوا: قومـوا إلى هذا الصابئ. فصنع مثل ما صنع بالأمـس، وأدركني العباس، فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس)[1].

كان الشـرك رعباً تطوف أشـباحه في دروب المسـلمين، فتتلصص على أبوابهم وأفواههم.. عليٌ رضي الله عنه لا يستطيع التحدث بالأمر خوفاً على رسول الله ﷺ، وأبو ذر كذلك. ولما سأل عليٌ ضيفه سؤالاً عادياً، فكان الجواب غير عادي.

لقد سأله علي فقال: (ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت. ففعل، فأخبره)[2].

إن على الكلمات رقيباً، وما لم تثق بمحدثك فإن الكلمات مجازفة بالحياة، والصمت أسلم. وحتى بعد أن أسلم أبو ذر.. لم يعطه ﷺ شيئاً غير الشهادتين، ولم يخبره عمن أسلم حتى أنه كان يقول: (كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع)

ولا شـك أن هناك الكثير ممن أسلم قبله، وإلا فكيف وصل الخبر إلى غفار، كما أن النبي ﷺ لم يعده بنصر في الدنيا، بل أمره بالكتمان والسـرية والتكتم، وزاد على ذلك فأمره بالعودة إلى بلاده فوراً، ولما تصرف أبوذر من تلقاء نفسه، وخالف أمر النبي فأعلن إسلامه وصرخ بالشهادتين وسط قريش.. تعرض للضرب المبرح، وكاد أن يموت بين أيديهم.. لم يتدخل عليه السـلام إطلاقاً .. لقد أشـار عليه ﷺ بالكتمان وأمره بالرجوع إلى أهله.. لكن حماس أبي ذر طغى فنال من قريش ما نال.

أبو بكر الصديق يناله العذاب أيضاً. يؤذونه ويشتمونه، ويتعرضون له في الطرقات،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٩٤.

(٢) جزء من حديث البخاري السابق .

حتـى أصبحت مكـة أضيق من موضع قدميه. عندها قرر الهجـرة إلى أرض يجد فيها شمساً وهواء وعبادة. بعيداً عن أرجاس الطغاة وسياطهم.

أبو بكر يهاجر

تقـول ابنته الصغيرة الطاهرة عائشـة رضي الله عنهـا: (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشـية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة – وهو سيد القارة – فقال: أين تريد يا أبا بكر؟

فقـال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسـيح فـي الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج، ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا جار لك، ارجع واعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش. فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج، أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمـل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحـق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنـة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبـا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقـال ذلك ابن الدغنة لأبي بكـر، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يسـتعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثـم بدا لأبي بكر فابتنى مسـجداً بفنـاء داره، وكان يصلي فيـه، ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نسـاء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءاً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشـراف قريش من المشـركين، فأرسـلوا إلـى ابن الدغنة، فقدم عليهـم، فقالوا: إنا كنا قد أجرنـا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسـجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فأتـى ابـن الدغنة إلى أبي بكر، فقـال: قد علمت الذي عاقـدت عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرتُ في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل)[1].

فقام ابن الدغنة، فقال: (يا معشـر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم)[2].

كانت قريش وسـفهاؤها بالانتظار، ولن يشـك أحد بهجوم أحد هؤلاء المجرمين فيضربـه رضي الله عنه، أو يدميـه، أو يحثو في وجهه التـراب، فليس له من نصير سـوى الله، وسـيتحمل في سـبيله كل ما يصادفه، أما رفاقه فشـاردون في الشعاب والأودية، هاربون من بطش قريش المفزع، أو متلبطون في قيودهم تحت السياط، وفوق الرمضاء، وأما نبيهم فقد نزف دمه وتفاقم جرحه وألمه.

دماء رسول الله

في أحد أيام المعاناة تلك.. أيام مكة الملتهبة.. (اشـتكى رسـول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: إني لأرجو أن يكون شـيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً)[3].

لـم تكن هذه المرأة الوثنية ترمي إلى أكثر من التشـفي، أما ما حدث فهو أنه قد رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه، فقال:

(هـل أنـت إلا أصبـع دميـت وفـي سـبيـل الـلـه مـا لقيـت

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٧.
(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح (ابن هشام ١٦/٢) حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عروة عن عائشة، وعروة والزهري تابعيان إمامان ثقتان.
(٣) سنده صحيح، رواه ابن أبي حاتم ١٢-٤٢٢ من طريق أبي أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، سـمع جندب يقول: رُمِيَ رسـول الله ﷺ .. الأسـود تابعي ثقة التقريب ١١١ وسـفيان الثوري إمام ثقة حافظ، وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت صرح بالسماع .

فمكث ﷺ ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت[1]: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾.

أيها النبي النازف، المتهم جورا وظلماً.. ها هو العظيم يقسم أنه ما تركك، وما تخلى عن نصرتك، فلا تستمع لهؤلاء المرتكسين.. لديك مهمة فأدها، وجزاؤك أبداً ليس في الدنيا.. إنه هناك في الجنة.. في الفردوس ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾.

لكن وأنت في زحمة الأذى وتداعي المصائب، ومحاولات التخذيل وأنت في هذا كله.. تذكر نعمة الله عليك، وإياك.. إياك أن تنسى ذلك المنكسر.. الذي تمتد يداه.. تحوم عيناه يبحث عن أبيه، فيجيبه اليتم بالنحيب.. كن له أباً. قد كنت يتيماً فتذكر مرارة اليتم، وكنت مسكيناً فلا تنهر مسكيناً، ولا ترد يده الممدودة لك، ولا تعرض عنه. حتى ولو كنت في درب مزدحم بالشواغل.. التفت إليه وواسه.

كم هي ثقيلة أمانة النبوة.. نبي كسير حسير.. يحتاج إلى مواساة، فيؤمر أن يواسي الأيتام والكادحين والفقراء وإلا عوتب، وإن كان نبياً.. لقد نزلت كلمات عتاب أخرى لرسول الله ﷺ بسبب غفلة بسيطة عن أحد المساكين، فما الذي حدث عندما:

عبس وتولى

نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾.

عتاب شديد أنزله الله سبحانه، عتاب موجه لنبيه.. ولو لم يكن محمد ﷺ نبياً لأخفى ذلك العتاب ومحاه، ولم يُطلع عليه أحداً. لكنها النبوة.. لكنه الأمين.

---

(١) إسناده صحيح، وهو من طريق الحديث السابق.

أما قصة ذلك العتاب فهي أن مسلماً مسكيناً ضرير البصر اسمه: عبد الله بن أم مكتوم (أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني - وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين -.

فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا)[1] فأنزل الله آياته تصحح الخطأ وتجبر الكسر.. ترى كم يساوي ذلك الأعمى المسكين عند الله!!

لقد استحق نزول آيات الجبار تعاتب نبيه فيه.. إنه في ميزان الإسلام: رجل مسلم.. اختار الله ورفض الأوثان، ولن يفرق الإسلام يوماً بين مسكين وثري، فالجميع بنيان متراص، وطاقات متناغمة.. تسير بالإنسانية نحو جمال الحياة وصفائها، وكما أن لهؤلاء المشركين حق الدعوة والتبشير، فإن لهذا المسكين ولكل المساكين حقوقاً. لقد أدب الله نبيه ﷺ فأحسن تأديبه، فهو يذرع الأرض امتثالاً ويقول: (اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين)[2].

إنه يقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد)[3]، ويقول ﷺ: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله[4]، (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)[5]، يعني متجاورين كالأصابع، فأين سيكون جار النبي ﷺ إن لم يكن في الفردوس حيث أعلى الجنة ومنتهى النعيم، وذلك لا يعني إغفال الأغنياء والسادة المطاعين، فإن إسلامهم نصر عظيم، والحياة تقوم على تكاتف الفقير مع الغني. لكن في أحوال السادة والوجهاء ميل إلى الاحتفاظ بما حولهم،

---

(١) سنده صحيح، رواه ابن جرير ٣٠-٣٢، والواحدي ٢٩٧ وغيرهم من طرق عن سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، عن أبيه، عن هشام عن أبيه عروة عن عائشة، وسعيد ووالده ثقتان. التهذيب (٢١٣/١١) و (٩٨/٤) وهشام ووالده ثقتان معروفان.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (٣٩٨/١).

(٣) سنده صحيح، رواه إسحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب٥٤١ و١١٧.

(٤) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (١١/١) (٢٣/٢).

(٥) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير (١١/١) (٢٣/٢).

فالجديد وإن كان صواباً يزعج بعضهم.. يخشون أن يطمسهم، ويسلب ما بأيديهم، ويغير مواقعهم على الأرض، فهم على باب الجديد مترددون.. أولئك إرادتهم كالأوراق تنتظر الرياح.. أحد هؤلاء هو:

الوليد بن المغيرة
مؤمن فكافر

(فقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال الوليد: لِمَ؟ قال أبو جهل: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال الوليد: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال أبو جهل: فقل فيه قولاً، يبلِّغ قومك أنك منكر له.

قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر، قال الوليد: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره.

فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ

﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾[1].

إذا كان هذا وصفهم للقرآن، وإنه ليس من كلام البشر، ولا من كلام الجن، فما الذي يملكون سوى العناد، ومعه شيء آخر هو العناد. ولذلك سلكوا طرقاً عديدة.. يحاولون النفاذ من أحدها نحو نصر ما، وكان أحد هذه الطرق الملتوية: طلب المعجزات.

اجتمعوا يوماً حوله ﷺ ثم طالبوه بأن يقدم لهم معجزة، فأراهم:

انشقاق القمر

يا له من طلب غريب.. لا يراد منه سوى التعجيز، ليجدوا لأنفسهم عذراً للتكذيب، رفضوا كل ما على الأرض من حقائق وأدلة، واتجهوا للسماء مناكفة وتعجيزاً، ومع ذلك تحققت المعجزة، وأراها الله ورسوله ﷺ لهؤلاء، فهل غيَّرَ ذلك من موقفهم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شـقين)[2] (فقال كفار قريش أهل مكة: هذا سـحر سحركم به ابن أبي كبشة، انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم، فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. فسُئل السفار - وقدموا من كل جهة. فقالوا: رأينا)[3]. وكانوا قد اعترفوا من قبل فقالوا: (محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)[4].

وكان الناس ينظرون إليه من مواقع مختلفة، فهناك من رأوا (القمر شـقين حتى رأوا حراء بينهما)[5]، وهناك من رأى (فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه)[6].

---

(١) سـنده صحيح، رواه إسـحاق بن راهويه، ومن طريقه: البيهقي ٢-١٩٨ والحاكم ٢-٥٠٦ عن: عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب السختياني، عن عكرمة عن ابن عباس، وهؤلاء الرواة أئمة ثقات أثبات. التقريب٥٤١ و١١٧. وقد مر معنا.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٤.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود الطيالسي ٢-١٢٣ حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله:.. ورواه البيهقي من طريق أبي داود وهشـيم. وهذا لفظ هشـيم ورجاله ثقات، أبو الضحى مسـلم بن صبيح تابعي ثقة التهذيب٢٠-١٢٣ والمغيرة بن مقسم ثقة متقن لكنه ربما دلس وتابعه الأعمش عند أبي نعيم. سيرة ابن كثير٢-١١٩.

(٤) هو جزء من الحديث السابق.

(٥) البخاري ٣-١٤٠٤.

(٦) صحيح مسلم ٤- ٢١٥٨

وسبب هذا الاختلاف في الوصف هو الاختلاف في مواقعهم التي يقفون فيها أثناء الحدث، فهذا أمام جبل، وهذا خلف جبل، وذاك هناك و.. ولا شك أن للمسافرين الذين قدموا وصفاً آخر. لكنهم أجمعوا على أن الشق قد حدث.

حدث الشق وخسرت قريش، وخرست أمام هذه المعجزة لتلجأ للاتهام مرة أخرى، فتقول كما قال الوليد عن القرآن: سحر مستمر.. سحر ذاهب ومضمحل. وفي ذلك أنزل الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1].

وبعد هذا التكذيب وهذه المكابرة العارية المخيبة للآمال لم يترك الله نبيه ﷺ دون:

مواساة

بعد هذا التكذيب المفضوح.. يقص سبحانه على نبيه ﷺ قصصاً ماضية، لأقوام قد مرت ودمرت.. يا محمد لم يكن قومك أول من كذب وعاند، فلقد: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2] ثم يقص عليه كيف شرقوا بالماء وغرقوا..

كذلك ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾[3] و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾[4] ومثلهم ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾[5] ويختم هؤلاء الطغاة بأعتاهم إنهم آل فرعون: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[6].

---

(١) ذكر الدكتور زغلول النجار أحد كبار علماء الجيولوجيا معجزة شق القمر، وأنها كانت سببا في إسلام الأستاذ البريطاني (ديفيد موسى بيدكوك) بعد حوار مع علماء ناسا الذين ذكروا اكتشافهم لهذه الحقيقة على سطح القمر.. حقيقة انشقاق القمر وأن آثارها لا زالت باقية حتى اليوم.

(٢) سورة القمر: الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٢٣.

(٤) سورة القمر: الآية ٢٣.

(٥) سورة القمر: الآية ٣٣.

(٦) سورة القمر: الآية ٤٢.

ثم يتوجه السياق من الماضي المدفون إلى الحاضر الحي.. إلى قومك أهل مكة المشركين، وإلى غيرهم ما دامت السماوات والأرض: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[1]. لكن المشركين يدفنون الحق في أعماقهم، ويعترفون به لكنه اعتراف ك:

اعتراف أبي جهل بالحقيقة

حيث كان أحد دهاة العرب ودهاة الطائف المدعو (المغيرة بن شعبة) ولأول مرة يعرف صدقه ﷺ، لكن على لسان من؟

الإجابة مدهشة، لأنها تومض كالجمر على لسان طاغوت قريش أبي جهل.

يقول المغيرة: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ، أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، أدعوك إلى الله.

قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبو جهل علي فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا: فينا الندوة. فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي... والله لا أفعل)[2].

---

(١) سورة القمر: الآيات ٤٣-٥٥.

(٢) حديث حسن. رواه البيهقي ٢-٢٠٧ من طريق الحاكم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس، عن =

طاغـوت مكـة لا ينكر النبوة، لكنه يرفضها لأنها لم تكـن في بيته.. يرفضها لأن محمداً ﷺ ليس من أهل بيته، ويرفض أن يكون تابعاً لمنافسه في الرياسة والشرف.. يسـتحث قريشـاً لمحاربة محمد ﷺ وصحبه لا لمصلحة قريش.. لا ولا حباً في قومه، إنما حباً لنفسه. فلتذهب مكة وقريش للجحيم من أجل إرضاء غروره.

هذا هو منطق الطغاة.. يخفونه بألسـنتهم، فتفضحه أعمالهم. ولم تقتصر التهم على تهمتي الكذب والسحر فـ:

الجنون تهمة جديدة

لابد من إلصاق تهمة جديدة تبعد الناس عنه.. لا سـيما عندما يسـيل الحجيج نحو مكة، ولا شيء يفر الناس منه مثلما يفرون من المجنون والمجذوم. فليكن محمد مجنوناً...

قالتهـا قريش دون حيـاء.. الأمين صيروه مجنوناً، وما يأتـي به من آيات كريمة مجـرد هراء.. يهذي به بلا وعـي. فرية صدَّقها الأغبياء، وصدَّقها العقلاء الذي حال بينهم وبين محمد ﷺ ضباب كثيف من التهم، والتحذير قبل أن يلقوه ويسـمعوا منه.. أحد هؤلاء العقلاء رجل من (أزدشـنوءة).. اسمه (ضماد) قدم مكة، وكان (أن ضمادا قدم مكة كان من (أزد شنوءة) وكان يرقي من هذه الريح[1]، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟

فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

= هشـام بن سـعد، عن زيد بن أسلم عن المغيرة، وهذا الإسناد جيد وأحمد بن عبد الجبار سماعه للسيرة صحيح، وهشام بن سعد حسن الحديث التهذيب ١١-٣٩. قال أبو داود: إنه أثبت الناس في زيد بن أسلم، وزيد بن أسلم كان يرسل لكن مع هذا الاحتمال له شواهد ما يقويه عند البيهقي، طريقان مرسلان، عن الزهري وأبي إسحاق.

(١) أي المس.

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، ولقد بلغن ناعوس البحر[1]. فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي)[2].

كلمات حق كشفت لهذا الطبيب كم هو مريض، وكشفت له أي نبي صادق ماثل أمامه، وقد قال ﷺ له ذلك لأنه ليس له موطئ قدم بمكة، ولأن الإسلام بحاجة إلى أمثاله من العقلاء ليتولوا نشر دين الله في أقوامهم.

وحيدٌ في حرة يثرب

لم يكن ضماد هو الوافد الوحيد الذي استمع إلى رسول الله ﷺ، فهناك الكثير.. الكثير. منهم من منعه الخوف من التَّفَوُّهِ فاكتفى بنظرات كلها حسرة، وعاد بصمت إلى موطنه. ومنهم من كشف عما يتردد في صدره لرسول الله ﷺ، ثم عاد إلى دياره بالطريقة التي تعجبه، لكن هناك من استمع إلى الحق حتى فرغ رسول الله ﷺ، وهمَّ أن يبوح بما في قلبه من إيمان.. ارتدت أنفاسه الحارة جمراً.. حمماً بين أضلاعه عندما عاجلته يد التسلط تحشو فمه بالتراب، وتلجمه بالصمت، فلم يتمكن من البوح إلا ساعة الممات.. ساعة لقاء ربه.

لكن يد الطغيان اكتوت بنار التجاهل واستحمت بمعركة من معارك الجاهلية التي لا طائل من ورائها سوى الحسر.. معركة اسمها:

معركة بعاث

كان بالإمكان تفاديها بين أهل (يثرب) لو استمع كبيرهم أبو الحيسر ومن معه إلى نداء التوحيد، لكنهم من أجل الثأر أتوا، وبالكراهية عادوا، إلا واحداً ظل غريبا على أرض يثرب، وذلك لما (قدم أبو الحيسر «أنس بن رافع» مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، وفيهم: «إياس بن معاذ»، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج،

---

(١) عمق البحر.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٥٣٩.

ســمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال ﷺ لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وماذا؟

قال ﷺ: أنا رســول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي كتاب.

ثــم ذكر لهم الإســلام، وتلا عليهــم القرآن. فقال إياس بن معــاذ - وكان غلاماً حدثاً-: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم به.

فأخذ أبو الحيسر «أنس بن رافع» حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهــم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة (بعاث) بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قــال محمــود بن لبيد: فأخبرني من حضــره من قومه عند موتــه، أنهم لم يزالوا يســمعونه يهلل الله تعالى ويكبره، ويحمده ويســبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ)[1]. لكنه لم يجرؤ على الجهر بإيمانه وســط قوم قد احتقنوا بالثأر، وتخلوا عن عقولهم من أجل خشــبة يسمونها إلها، فتحولت الأشــياء في أيديهم إلى عصي وسياط، وما لهم لا يفعلــون وهم يرون أبا لهب يتعقب ابن أخيه يســفي عليه التراب.. يؤذيه ويكذبه، ويأمر الناس أن يؤذوه ويكذبوه. كأنه عار يريد التخلص منه، فكيف بشاب مستضعف كإياس.. غيرته كلمات الحق، فطواها في نفسه، ولما حل بحرة يثرب تماهت غربته بغوره.. تلتحم به ويلتحم بها، ولما حرره الموت.. أفضى بتلك الكلمات لمن حوله، فقد همَّ بالرحيل، وهَمَّ الخوف أيضاً بالرحيل. وما كان يقوى على إظهارها، وما كانوا ليطيعوه.

يا لغربة الموحدين.. يا لمعاناتهم لكن الله معهم.. يدافع عنهم دائماً كما دافع عن:

---

(١) إسناده جيد، رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٥٣/٢)، حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو، عن محمود بن لبيد. ابن إســحاق ســماع من شيخه الحصين وهو حســن الحديث قاله أبو داود، فقول الحافظ في التقريــب (١٨٢/١): مقبول، غير مقبول، لأنه لم يجرح التهذيب ٢-٣٨١، بل قال الذهبي ثقة. الكاشــف ١-٢٣٧. ومحمود صحابي صغير.

سعد والفقراء

فقد رفض سبحانه ذلك التعسف الطاغوتي، وتلك الأوامر العفنة التي انطلقت من أفواههم.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ، ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك، فلا يجترئون علينا - وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هذيل، ورجلان قد نسيت اسمهما، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله، وحدث به نفسه[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]. لقد تعسف هؤلاء وتطرفوا في مطالبهم، وهم يرون كل شيء حولهم يدينهم ويلوي أعناقهم، هاهم في تخبطهم مرة أخرى يطلبون:

معجزة الذهب

فقد (قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبة، فإن أصبحت ذهبة اتبعناك وعرفنا أن ما قلت كما قلت.

فسأل ربه عز وجل، فأتاه جبريل فقال: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة.

قال: يا رب لا، بل افتح لهم أبواب التوبة)[3].

يا لرحمته ﷺ بهؤلاء الذين آذوه وكذبوه ونالوا منه.. إنه يطلب لهم الرحمة

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وفضائل الصحابة والبيهقي واللفظ له (١/٣٥٣).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٣) إسناده صحيح، رواه أحمد ١-٣٤٥ وحدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس، وعبد الرحمن هو ابن مهدي حافظ ثقة ثبت التهذيب ٦-٢٧٩ وسلمة تابعي ثقة التقريب ٢٤٨ وشيخه ثقة اسمه الصحيح: عمران بن الحارث السلمي وهو من رجال مسلم التهذيب ٨-١٢٤.

والتوبة.. إنه كما قال عن نفسه: (إنما أنا رحمة مهداة)[1] هذا هو محمد ﷺ، أما أولئك، فقد أنزل الله على نبيه سورة الأنعام، وفيها يصفهم.. يفصح عن نهجهم الذي ارتضوه لأنفسهم.. إنه العناد، والعناد فقط، فلا الآيات ولا المعجزات ولا غيرها تقنعهم. يقول سبحانه: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[2].

أما قومك يا محمد: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3].

ثم يخبره سبحانه مرة أخرى عن حقيقة هؤلاء مسلياً نبيه.. طارداً ذلك الوجوم الذي يخيم عليه من تكذيب قومه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4].

ولو جمعهم سبحانه وأرغمهم على الهدى، لسلب منهم الحرية والإرادة، كما سلبها من البهائم وسائر المخلوقات. لكنه فضلهم وكرمهم بهذه الإرادة، فهم يختارون طريقهم، وسيحاسبون عليها، لأنهم حملوا الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، وهي الإرادة.. هذه الحيوانات ستصير يوم القيامة تراباً، لأنها مسلوبة الإرادة.. إنها

---

(١) حديث صحيح. انظر (٢/٢٨٤) من صحيح الجامع الصغير.

(٢) سورة الأنعام: الآيات ٤-٦.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧-١١.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ٣٣-٣٥.

جزء من هذا الكون المسخر للإنسان.. المشكل لابن آدم يتصرف فيه كيف يشاء. ثم يحاسب في نهاية المطاف على تصرفه ذلك. وهنا تنتصب الحقيقة ماثلة أمام الجميع: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1].

مجاعة في مكة

حالة واحدة تخضع فيها قريش للحق.. هي البطش، ونزع الحرية والاختيار منهم.. عندما يذوقون العذاب، وتتوه منهم إرادتهم. عندها ينحنون للحق معلنين التوبة والإنابة.

يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

لقد حدث ذلك من قريش كما أخبر سبحانه.. تنازلوا عن كل شيء، ودسوا جباههم في التراب، وانحنوا جوعاً وخوفاً وهزالاً.

حدث ذلك عندما (دعا رسول الله ﷺ قريشاً إلى الإسلام فابطأوا عليه، فقال ﷺ: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف[3]. فأخذتهم سنة فحصت كل شيء، حتى أكلوا الميتة والجلود، حتى جعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع.

قال الله عز وجل: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

فدعوا: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[5].

(فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى، فلما أصابتهم الرفاهية عادو إلى حالهم). ثم عادوا في كفرهم)[6].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٠.

(٣) أي السبع العجاف التي مرت بقوم يوسف.

(٤) سورة الدخان: ١٠-١١.

(٥) سورة الدخان: ١٢-١٥.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٤/١٨٠٩ و ١٨٢٣.

ما أسرع نسيان قريش.. ويحهم أما تعلقوا بأستار الكعبة يوم ولد رسول الله ﷺ هرباً من الفيل الحبشـــي وأصحابه، وهاهو القرآن ينشـــط ذاكرتهم، وتتزل كلمات الله سبحانه.. تتزل سورة الفيل تهز قريش، وترفع رأسها نحو السماء علها تفيق، وتدرك ما يحدث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

وتتزل سورة أخرى على محمد ﷺ.. تهز ذاكرتهم وسباتهم مرة أخرى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[2].

لكنهم لا يفيقون. إنهم خشـــب مسندة.. حجارة تتدحرج فتحطم ما تحتها. إن كل محاولة للتذكير تعقبها سطوة من قريش وتنكيل، والنتيجة جراح ودموع وأنين تضج بها دور المستضعفين. ما الذي يرضي هؤلاء، وما الذي يريدون؟!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

قريش أهل فصاحة ومعرفة بلغة القرآن أكثر من غيرهم ممن جاءوا بعدهم.. لقد سحرهم هذا القرآن ببلاغته وبيانه، واعترفوا بعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ورفضوا أن يكون هذا الكلام صادراً من بشر. وماذا بعد؟

لا شـــيء.. إصرار على الموقف، وحسد لمن اختاره الله نبياً، ومحاولة لتعجيزه ﷺ بكثرة الطلبات.

لكن الله ســـبحانه ينزل آياته قاطعاً دابر العبث القرشـــي، فالإيمان لا يحتاج إلى تلك المطالب الساذجة.. إنه فقط يحتاج قلباً مفتوحاً وفكراً سليماً.

---

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة قريش.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

الرسول ﷺ والتعجيز

يقول سبحانه عن مطالب هؤلاء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[1].

ثم يذكر سبحانه مطالبهم لنبيه ﷺ لكي يؤمنوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾.

لكن الله يبين حقيقة رسوله ﷺ لهؤلاء الهمج.. إنه مجرد رسول.. بشر، وليس عليه سوى البلاغ: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2].

فتى قريش لا ييأس

مع كل هذا التعنت، ومحاولات الهروب من حصار الحقيقة يستمر ﷺ في دعوته بلا يأس.. بلا كلل. كلما ضاقت به مكة تلمس الأتباع حولها.. لقد (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، يقول: من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟ حتى أن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر... فيأتيه قومه فيقولون: أحذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع)[3] والإشارات تختلف باختلاف المشيرين.. هناك المعجب، وهناك الساخر، وهناك المشفق، وهناك من قيده الخوف فهو يشير بقلبه، وتتلاشى تلك الإشارات ربما عند المساء.. دلالة على خلو الساحة من محمد ﷺ، فقد عاد إلى بيته وزوجته.. يناجي ربه وينام، ومع كل صباح ينهض.. يشرق شمسا من جديد.. ينهض للتبشير بدعوته، لينتشل من أمته ما يستطيع انتشاله، ومن يستطيع انتشاله، وطرقات مكة المؤدية لبيته الصغير لا تخلو من المتربصين له..

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(٣) حديث صحيح مر معنا.

يحملون الأذى بأيديهم وألســنتهم.. يُسّــمِعونه ما يكره، ويرونه ما يؤذيه.. حتى اسمه ﷺ قلبــوه، فأصبحوا يقولــون: (مذمماً) لا (محمداً) لكن ذلك لا يضره، فالله يصرف عنه الأذى واللعن.

يقول ﷺ: (انظروا قريشاً كيف يصرف الله عني شتمهم ولعنهم، يشتمون «مذمماً» ويلعنون «مذمماً»، وأنا محمد)[1].

مــا حصيلة قريش من الفكر؟ ماذا لديها من عقيدة حتــى تعاند كل هذا العناد؟ ليس لديها ســوى أكوام مــن الحجارة نصبتها فوق الكعبة، ثــم بايعتها على الألوهية! فهل ســتفيق قريش من غيبوبتها إذا رأتها نثاراً حول الكعبة؟ هل ستسأل نفسها: كيف تتحطم الآلهة أم أنها ستقول:

من حطم الأصنام؟

قريش تســأل غاضبة، ولدى فتى الإســلام علي بن أبي طالــب الجواب، فيقول: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبــي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفاً، فنزل وجلس نبي الله ﷺ، وقال: اصعد على منكبي. فصعدت على منكبه، فنهض بي، فإنه يخيل إلي لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صفر، أو نحاس، فجعلت أزاوله[2] عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال رسول الله ﷺ: اقذف به.

فقذفت به، فتكســر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس)[3].

---

(١) حدث صحيح. رواه البخاري كتاب المناقب.

(٢) أي باشره بيده ومارسه.

(٣) ســنده جيــد رواه أحمد ١-٨٤. حدثنا أســباط بن محمد حدثنا نعيم بن حكيــم عن أبي مريم عن علي، أسباط بن محمد بن عبد الرحمن القرشي بالولاء، وهو ثقة، لكنه ضعيف في سفيان الثوري وروايته هذه ليســت عن الثوري، أما شيخه نعيم فحسن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٥٦٤ وأبو مريم قال النسائي: أبو الحنفي ثقة، وإن كان الثقفي فقد قال الذهبي في الكاشــف: ثقة، والحديث رواه البزار وأبو يعلى. ثم وجدت أن أبا مريم ليس بالحنفي ولا بالثقفي بل الأسدي كما جاء عند الحاكم (٥/٢) فصح بذلك السند لأنه تابعي ثقة، وثقه العجلي والدارقطني وابن حبان (التهذيب ٥/٢٢١).

ولما استيقظت قريش وجدت آلهتها مسحوقة كالرمل.. كالرماد، فهل قالت قريش لنفسها: ما هذه الآلهة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها؟ كيف نعبد رملاً.. نعبد رماداً؟ لم نتلق رداً من قريش، لكنه الغضب لا شك.. لا بد أنهم أشاروا يتهمون محمداً ﷺ وأتباع محمدٍ. لقد التهبت قريش واحمر حديدها وتوهج، فالحدث لا يمكن السكوت عليه، والقرار القادم لا بد أن يكون حاسماً ونهائياً.

اجتمعت قريش في مؤتمر محموم.. قرر فيه الجميع واتفقوا على أن السبيل الوحيد لدرء الخطر عنهم وعن أصنامهم.. هو بإزالة هذا المد الإسلامي، لا بإيقافه. ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على قائده وقتله. فليقتل محمدٌ حتى يتلاشى دينه، ويشتت أصحابه.

الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ

في اليوم الموعود لتنفيذ الجريمة.. لقتل آخر رسل الله، ومنقذ البشرية الأعظم (اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله.

فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي، حتى دخلت على أبيها، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك في الحجر، قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك.

فقال رسول الله ﷺ: يا بنية أدني وضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد. فلما رأوه، قالوا: هو هذا، فخفضوا أبصارهم، وعقروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم حصباً، وقال: شاهت الوجوه)[1]. وغادر المسجد، فأفاقوا.. تحسسوا، فإذا التراب يحشر أعينهم وأنوفهم.. يغطي وجوههم عاراً لا يغسل إلا بالدماء، وقد ملأ خبره أرجاء مكة.. محاولة اغتيال فاشلة أثارت الحمية في نفوس بني عبد المطلب، وكان أشدهم رأسهم أبو طالب، فقرروا حماية رسول الله ﷺ من

---

(١) إسناده حسن رواه أحمد ١-٣٦٨ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر، عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. رجاله أثبات وعبد الله بن عثمان بن خثيم صدوق، التقريب٣١٣.

قريش والدفاع عنه، فهو لا يزال من أبناء عبد المطلب زعيم قريش، ولم يفعل ما يستحق كل هذا الأذى والعذاب من قريش، فكيف تقرر قريش قتله! ذلك أمر مستحيل.

إن علـــى قريـــش أن تزهق أرواح بني عبـــد المطلب فرداً فرداً قبـــل أن تصل إلى محمد ﷺ، لذلك فقد أعرضت عن هذه المؤامرة مؤقتاً، لكي تمارس قسوة لا تقل عن الاغتيال. فماذا فعلت قريش؟

حصار جماعي في الشعب

قـــرر طواغيت قريش ضرب حصار اقتصادي ومعنـــوي واجتماعي على المؤمنين، ومـــن يقف معهم من أقاربهم، فلا مصاهرة ولا بيع ولا شـــراء معهـــم بعد اليوم، حتى يتم تســـليم محمد عليه الصلاة والســـلام إليهم لقتله، والتخلـــص منه. لذلك لجأ أبو طالب ومن معه من أهل النبي ﷺ وعمومته، إلى مكان يقال له (شـــعب أبي طالب) أو (المحصب) حتى تسهل عملية الدفاع عنه ﷺ.

وعن هذا الحصار المرير، الذي لا أدري كم من الأعوام استمر.

يقول ﷺ وهو يواعـــد أصحابه في ذلك المكان الحزين: (نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاســـموا على الكفر، يعني ذلك (المحصب)، وذلك أن قريشـــاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ)[1].

في مثل هؤه الظروف يقول ﷺ: (لقد أوذيت في عز وجل وما يؤذي أحد، وأخفت مـــن اللـــه وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثلاثة من بين يـــوم وليلة ومالي ولعيالي (ولا لبـــلال) طعام يأكله ذو كبد إلا ما يـــواري إبط بلال)[2]. ويقول صاحبه عتبة بن غزوان أحد الســـابقين: (ولقد رأيتني ســـابع ســـبعة مع رســـول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشـــجر حتى تقرحت أشـــداقنا، فالتقطت بردة فشـــققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها)[3].

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٦.

(٢) ســـنده صحيح على شـــرط مســـلم رواه أحمد ٣-١٢٠ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعاً. حماد إمام ثقة من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٧٨.

وسـعد بن مالك، هو سـعد بن أبي وقاص الذي يقول: (كنـا قوماً يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعتزمنا لذلك، وصبرنا له، وكان مصعـب بـن عمير أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحشف تحشف جلد الحية عنها، حتى أن كنا لنعرضه على قسينا فنحمله مما به من الجهد، وما يقصر عن شيء بلغناه)(١).

ويقـول علي بن أبي طالـب: (طلع علينا مصعب بن عمير، ومـا عليه إلا بردة له مرفوعـة بفـرو، فلما رآه رسـول الله ﷺ بكى للذي كان فيه مـن النعمة، وما هو فيه اليوم)(٢).

هـذه حال الرجال، فيا ترى ما حال النسـاء.. خديجـة وفاطمة وزينب وأم كلثوم وأسماء؟ كيف كانت حالة الأطفال كابن عمر؟

يا صناديد قريش.. لماذا.. أي جرم قارفوه؟ أإذا ما أشرعوا الأبواب يوماً والنوافذ.. للهواء.. ولغيمات السماء.. لحداء الكون بالتوحيد سيقوا بالسلاسل، وعليهم تتراكم.. قاسيات كالجرائم.. تصنع للحزن عام.

عام الحزن

من شقاء لشقاء.. بعد عام الشعب والأحزان كالمطر الأسود.

هاهو رسـول الله ﷺ والمرارة والكـرب يلاحقانه في أهل بيته، إنه يلقى نظرات الوداع الحائرة، وعيناه تفيض دمعاً على حبيبته وزوجته، ورفيقة دربه الطيبة.. خديجة تضعف شـيئاً فشـيئاً حتى تذبل وتموت، وعند فراشـها زينب تبكـي وتبكي أخواتها الصغيرات فاطمة، وأم كلثوم. يبكين أمهن بحرقة.. يبكين خير نساء العالمين.

ربما كان لقريش وصلفها وقسـوتها وحصارها سهم في سهام الموت التي أزهقت روحها، وربما كان السن وحده، الله أعلم.

---

(١) أثر رواه ابن إسحاق ومن طريقه هناد في الزهد ٣٨٨/٢ حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد وفيه جهالة شيخ صالح لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٢) يشهد له ما قبله وقد رواه أبو يعلى ٣٨٧/١ وفي سنده جهالة التابعي.

لكنها غـادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها ﷺ.. مشـفقة عليه.. غادرت وهي تناضل دونه، وتشده وتحنو عليه، فعاشت في قلبه متزينة بالحب. كان ينتقي لها أجمل غرفة في قلبه من بين كل النساء.. لم تحتل امرأة ما احتلته خديجة

قال ﷺ وحياً.. قال حباً.. قال وفاءً: (ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواسـتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقنـي الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النسـاء)[1]. ويقول ﷺ: (خير نسـائها مريم، وخير نسائها خديجة)[2].

وتتحدث إحدى النسـاء القريبات إلى قلبه: (كان رسـول الله ﷺ إذا ذبح الشـاة فيقول: أرسـلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يوما فقلت خديجة ؟ فقال رسول الله ﷺ: إني قد رزقت حبها)[3].

كيـف لا يحب خديجـة ويفي لذكراها وهي أول من أسـلم، وهي أول من صدق. خديجـة أول امرأة في الإسـلام. (آمنت بي إذ كفر بي النـاس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها)[4].

ترى كما بكاها من المسـلمين والكافرين؟ امـرأة تحمل هذا القدر من الإخلاص والوفـاء جديرة بالرثاء.. جديرة بالبكاء.. حمالة الحب لا حمالة الحطب.. ناءت بثقل فتت أكتاف رجال، فرحمها الله ورضي عنها وأرضاها، وهنيئاً لها (بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[5].

لقد سافرت لتنال وعد الله، أما زوجها ﷺ فتضاعفت مسؤوليته بعد أن انهد جدار كان يحميه، ولباس كان يقيه، ويد تمسح دمعه وتغسل جرحه، وشريكة تدفعه للأمام.

كانت خديجة تزاحمه ﷺ وتزاحـم قلبه بالذكريات الجميلة، تقول إحدى أمهات المؤمنـين: (مـا غرت على امرأة ما غـرت على خديجة من كثرة ذكر رسـول الله ﷺ

---

(١) حديث ضعيف الإسـناد عند أحمد ٦-١١٧، لكنه صحيح بدون لفظ ما أبدلني الله خيراً منها، شـواهده عند البخاري ورواية ذكرها الذهبي في سيرته (٢٣٨).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٨٨٦.

(٤) حسن مر معنا قبل قليل.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٢٨٠). والقصب نوع من اللؤلؤ.

إياهـــا)[1] (كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشـــاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها فـــي صدائق خديجة، فربما قلت لـه: كأنه لـــم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت)[2].

ليت شـــعري ما حال ابنتها رقيـــة التي غيب الكفر أخبارهـــا خلف ذاك البحر.. غريبة في بلاد الحبشة.. معذبة شريدة، وكيف تلقت خبر وفاة أمها الحنون، فيالحزنها على أم تموت بعيداً عن عينيها.. لم تشـــارك في تمريضها والعناية بها، ولم تئن قرب ســـريرها، ولم تمرغ وجهها ودموعها بكفيها، ولم تشارك في غسلها وتقبيلها وتكفينها، ولم تلق عليها نظرة وداع. كم هي قاســـية قريش.. كم هي قاسية أيام مكة على محمد وعلى آل محمد وعلى صحب محمد صلى الله عليهم جميعاً.

لم يلن قلب قريش.. اســـتمروا بالأذى، وتحولت جبال مكة مخازن أحزان لرسول اللـــه ﷺ، وآله الطاهريـــن، وصحبه الكرام.. يتدفق الكرب موجـــة إثر موجة.. موجة أخفت خديجة، وتلتها للحزن موجة أغرقت شيخاً كبيراً.. حامياً درعاً حصيناً اسمه:

أبو طالب

بطـــل من أبطال قريش، وســـيد من ســـادتها.. هدَّته قريش كما هدته الســـنون والأحزان. كان خلف رســـول الله ﷺ يحميه.. يدافع عنه.. رضي بالعيش في الســـجن معه، وقاسمه معاناته، لكنها الأيام لا ترحم، والأقدار إذا أقبلت فلا راد لها.

هوى أبو طالب مريضاً على فراشه، لكنه ما زال على كفره.. قد تشبع رأسه بعيب قريش، وخرافات قريش، والخوف من ألسنة قريش. كان يخشى النقيصة.. يخشى أن تعيره مكة بعد موته، بأنه قد ترك دين آبائه وأجداده.

اشـــتد به المرض، ولعل ســـجن الشعب من أســـبابه، ودنا الأجل (ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية. فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: «لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٨١٨).

فلم يزل رســول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد تلك المقالة)[1] (قل: لا إله إلا الله، أشــهد لك بها يوم القيامة. قال أبو طالب: لــولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع. لأقررت بها عينك)[2].

كان ﷺ يعيدها، يكررها: (أي عم قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)[3] (فلم يزل رســول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: «هو على ملة عبد المطلب». وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رســول الله ﷺ: «أما والله لأســتغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[4].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[5].

بطل إلى النار

إنه كذلك.. بطلاً كان أبو طالب، لكنه رفض الحق.

جاء العباس أخوه، وعم رسول الله ﷺ يوماً إلى رسول الله.. يسأل عن مصير أخيه البطل ويقول: (يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: نعم. هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[6]. (نعم وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاح)[7] ويقول ﷺ متحدثاً عن مصير عمه المخيف: (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)[8].

---

(١) حديث صحيح. متفق عليه وآخره يأتي بعد الحديثين التاليين.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١-٥٥.
(٣) صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٠٩.
(٤) سورة التوبة: ١١٣.
(٥) متفق عليه وهو بقية الحديث الأول الذي مر معنا.
(٦) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/١٩٤.١٩٥).
(٧) حديث صحيح متفق عليه. واللفظ لمسلم ١-١٩٤.١٩٥.
(٨) حديث صحيح. رواه مسلم ١-١٩٦.

هذه هي حدود رسـول الله ﷺ، وهذا كل ما يستطيع فعله له. قال ﷺ لمن حوله والحسـرة في صدره: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[1].

لكن أين تذهب أعماله؟ أين جزاء هذا البطل؟ كيف تكون النار مصيره؟ لقد خدم الإسـلام رغم كفره أكثر مما خدمه بعض المسلمين، وأحاط ابن أخيه ﷺ ودافع عنه، وواجه قريشاً وشراسة قريش من أجله، فلماذا ولماذا..؟

العواطف الجياشـة تفجر أسـئلة ذاهلة.. تفجر مذاهب.. تبعثر الصفوف.. تبحث عن إجابة.. إجابة عاطفية محمومة، لكنها ما سألت يوماً عن أبي طالب نفسه: هل كان إدراكه في مستوى حميته وشهامته؟ هل خدم نفسه كما خدم الإسلام؟ هل ارتقى بروحه كما ارتقى من يدافع عنهم سـنوات وسـنوات؟ هل فعل ذلك وهو مع رسـول الله ﷺ.. يشرح له.. يوضح الحق له، ويؤكد له أن وعد الله صادق، ودين الله ماض سواء دافع عن أتباعه أبو طالب أو لم يدافع.. انضم أو غادر؟

كان أبو طالب يسـتمع إلى كلام الله، وكان كلام الله يسـيل في أذنيه منذ أشـرق الوحـي.. في أندية مكـة.. في بيت ابن أخيه.. في بيته هو.. في شـعبه.. في فراش الموت.

لقد منحه الله فرصة.. لقد منحه الله حرية الاختيار، وفضله على سائر المخلوقات بالإرادة، لكنه خاف تعيير قريش وسـبها له بعد موته. ذلك هو مسـتوى طموحه. هو لـم يكن واثقاً من وعد الله، وإلا لما وقفت كلمات قريش الباهتة المحتملة عائقاً له عن الدخول في دين الله، وما كانت تلك الكلمات لتبقيه في وحل الشرك، لولا أنها وجدت إرادة ضعيفة، وثقة مزعزعة بوعد الله.

إن مـن يدَّعون أن الإسـلام جعل أبا طالـب كبش فداء يحترق.. لـم يدركوا أن الإسـلام لله، والتوحيد لله، وما محمد إلا رسـول لله، ومـا محمد ﷺ إلا رجل تلقى رسالة الله، فأداها كما طلب منه.

---

(١) رواه البخاري ٣-١٤٠٩.

مـن أجل محمد تحرك أبو طالب، وقاتل أبو طالب.. فقط من أجل محمدٍ. أما الله، خالقه وخالق محمدٍ، فأين مكانه في قلب أبي طالب؟

لا شـيء.. لا مكان لله في قلب أبي طالب. إن أول شـرط في قبول أي عمل هو الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وتفرده والإخلاص له، وأبو طالب رفض هذا الشرط.. رفض وحدانية الله.. رفض الإخلاص له.. رفض: لا إله إلا الله.

أبو طالب بطل. نعم بطل. هو شـهم، وشـجاع، وكريم، كعنترة.. كحاتم. والإسلام يشطره مثلهم، يؤيده في مواقف، ويشجبه في مواقف.

كـم تمنينا لو كان مسـلماً، لكن مـاذا بأيدينا، ماذا يفعل حزننـا بالحقيقة؟ هل سـيغيرها. إن حبنا لعلي لا يجب أن يطغى علـى حبنا لله، فإن فعلنا ذلك فنحن نعبد علياً من دون الله.

أبو طالب مات بطلاً، لكن إلى النار. ونهايته مأساة حزينة، لكنه هو الذي اختارها. أما ابنه:

الفتى الحزين علي

علي بن أبي طالب.. أول من أسـلم من الفتيان، فلا شـك أنه قد دعا يوماً أباه إلى الإسلام.. لا شك أنه يشعر بالأسى على أبيه.. يشعر بالمرارة لهذه الخاتمة السيئة. لقد مات أبوه دون أن يسـره بكلمة التوحيد، فذهب يسـحب خطاه نحو رسول الله ﷺ.. قد تشـبع بالحزن حتى أثقله، فيقول له وقلبه يعتصره الكمد: (إن عمك الشـيخ الضال قد مات فمن يواريه؟)[1]. سـؤال غاضب من إصرار هذا الشيخ على الشرك.. سؤال يبكي هذا الشيخ الضال. إنني أشعر بمرارتها في حلقه وهو يقول: الضال. كمن يقولها بعد أن استنفذ كل محاولات الإقناع لشخص متهور يريد الانتحار، فأبى إلا الانتحار.

الكلمات بعد ذلك تخرج مزيجاً من الغضب والحزن والأسـى. لكن رسول الله ﷺ

---

(١) سنده صحيح. رواه الطيالسي ٢-٩٠. وغيره حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب، يقول: شهدت عليا. أبو إسحاق هو عمرو ابن عبد الله، تابعي ثقة عابد مكثر، صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة ناجية ابن كعب الأسدي. انظر التقريب ٥٥٧.

كان طبيباً للقلــوب.. طبيباً للنفوس. قال لعلي الحزين: (اذهب فوار أباك، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني.

يقــول علــي بن أبي طالب: فأتيته، فأمرني، فاغتســلت، ثم دعــا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء)[١].

يا لعام الحزن هذا.. أبو طالب غاب، وخديجة مضت، فما الذي ســيحل برســول الله ﷺ؟ وماذا ستفعل قريش المتوثبة؟

تقول إحدى بنات أبي بكر: (ما زالت قريش كاعة[٢] حتى توفي أبو طالب)[٣].

فلما توفي هجمت وســلت، وازداد توحشــها، فهرب ﷺ منها عله يجد من يؤويه وينصره، لكن إلى أين؟

إلى الطائف

يشــق الأودية والجبال على قدميه الدامتــين المتعبتين، بلا راحلة.. فقيرٌ لا يملك ثمنهــا.. يحمله حزنــه.. يصعد به جبال الطائف يفتش عن أمــل.. يبحث عن معين.. يبحث عن يــد حانية تحمل هذا الدين برفق.. تقدمــه للتائهين.. للجائعين للمعدمين وحتى للمترفين.. يبحث عن بقية خير في قلوب خارج مكة وعن أقوام تتمرد على هذه الأصنام، والعادات والشرع الشركي الملوث.

يقول عبد الله بن جعفر: (لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشــياً على قدميه يدعوهم إلى الإسلام)[٤]. و(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: (عبد ياليل بن عمرو

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود الطيالسي وهو الحديث السابق.

(٢) متراجعة جبانة.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٤٩: حدثنا الحاكم، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عقبة المجدر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي اللــه عنها: العباس حافظ ثقــة. التقريب ٢٩٤ وعقبة بن خالد المجدر صــدوق صاحب حديث، التقريب ٣٩٤والبقية أئمة.

(٤) حديث حسن بشواهده سيمر معنا.

بن عمير)، و(مسعود بن عمرو بن عمير)، و(حبيب ابن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف).

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسل.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يئس من خير ثقيف)[1].

قام والحزن في كبده.. قام وحاله تتفطر لها القلوب.. جوع وعطش، وسير بالليل والنهار، وأحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها.. تذكره بخديجة وأبي طالب، ودعوة مطاردة، وأتباع تتخطفهم أيدي الطغاة.

قام ﷺ فالتفت إلى هؤلاء القساة لعل بقية من الإنسانية لا تزال عالقة في قلوبهم.. يرجوهم كتمان أمره، حتى لا تشمت به قريش، وتحمله من الضيم ما لا يطيق. قال لهم: (إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني - كره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم[2] ذلك عليه - فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبه بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة[3] من عنب، فجلس فيه - وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف - وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بن جمح. فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني: إلى

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) يجعلهم يجترئون عليه.

(٣) الحبلة هي الكرم أو القضيب من الكرم.

بعيــد يتهجمنــي. أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوســع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشــرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وما لقي، تحركت لـه رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانيــاً يقــال له عداس. فقالا: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهــب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ. ثم قال له: كل. فلما وضع رسول ﷺ فيه يده قال: «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد،

فقال رســول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال عداس: نصرانــي، وأنا رجل من أهل نينوى[1]. فقال رســول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رســول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي.

فأكب عداس على رســول الله ﷺ يقبل رأســه ويديه وقدميه. فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفســده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يــا عداس، ما لك تقبــل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ وقال عداس: يا ســيدي ما في الأرض شــيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف)[2].

---

(١) مدينة في العراق.

(٢) حديث مرســل. رواه ابن إســحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. ويزيد ثقة والقرظي تابعــي ثقة، لكنه لم يذكر من شــيخه هنا. لكن الحديث روي مرســلاً أيضاً عــن الزهري، وعن عروة بن الزبيــر -وهــو الحديث الذي بعده.. ما عدا الدعاء في هذا الحديث، فشــاهده عند الطبراني، وقد قال الهيثمــي في المجمع (٦/٣٥) ورجاله ثقات وفيه ابن إســحاق وهو مدلس ثقــة، ثم وجدت الحديث عند الطبرانــي فــي الدعاء، وعند ابن عدي في الكامل وســنده هو: ابن إســحاق عن هشــام بن عروة عن.. وهذا الســند ضعيف لأن ابن إســحاق مدلس وقد عنعن وإن كان هشــام من أقرانه وشــيوخه وقد ثبت لقاؤهما.. ولا يقوي هذا الطريق ما عند ابن إســحاق فقد رواه دون ســند -أي روى الدعاء دون ســند-. وقــد أوردت الحديث لا لصحته، ولكن لأن ســياقه ينســجم مع الحديث الصحيح الــذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أشــد الأيــام التي مرت عليه هــي أيام الطائف ويدل على ذلك نزول ملــك الجبال لينتقم منهم.

ترى كيف ستحمل هذا المكروب المسكين أقدامه، وهي لا تزال تنزف حزناً ودماً؟ كيف سيعود ولا أبا طالب بعد اليوم؟ من سيضمد جرحه وخديجة تحت الثرى؟ من يا ترى يكف أفواه قريش عن الشماتة؟

كانت أياماً لكن همومها أحالتها سنوات.. سألت بنت أبي بكر رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن أشد يوم مر به؟ فأشار إلى أيام الطائف وقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال. فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب)[1].

إنه الهم الذي حمله ومشى به، حتى حنت عليه السحاب، وأشفقت لمنظره الحجارة وأغصان الشجر، واستعدت الرواسي الشم للانتقام له:

الجبال تنتقم

يقول ﷺ مواصلاً حديثه: (فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2] فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[3].

صلى عليك الله يا نهر الرحمة.. في اليمين جبل وفي الشمال جبل. لو كنت ممن ينتقم لنفسه لكان دك الجبال يطحن تلك الجماجم، ولسالت من جبال الطائف دماء يراها أهل مكة، لكنه ما خرج لنفسه، ولا أحضر شيئاً من عنده.

رفض ﷺ الانتقام لأنه جاء ليجعل الحياة إيماناً وسعادة، وفي قلبه يهتز أمل يتلألأ.. يقول: إن في الأصلاب ربيعاً قادماً يتنفس الإسلام.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق) ومسلم.

(٢) جبلا مكة.

(٣) بقية حديث البخاري.

عاد ﷺ مطروداً.. جريحاً.. منكسراً كما خرج، فانسل إلى بيته الصغير، حيث ابنته وريحانته فاطمة. لا بد أنها بكت وارتفع نشيجها عندما رأت ذلك الشحوب على وجهه الكريم.. عندما رأت الدماء تتلألأ في جروحه، فسارعت لمواساته ومواساة جراحه، وربما دمعت عيناه ﷺ عندما رأى ابنته أم كلثوم، فذكرته بحبيبته خديجة، وذكره بيته بها، ففيه عاشا سوياً، وها هي الآن ذكريات عذبة لا تكف عن الحضور، وهاهو الآن شوق إليها.

محمد حزين اليوم، فهل لهذه الأحزان من نهاية؟

لم تكن هناك نهاية، لكن أمراً عظيماً حدث، وتسلية مذهلة تمسح بعض أحزانه السابقة، وتخفف ما ألم به من وجع.. ضغطت له المسافات، حتى رأى في ليلة واحدة ما خلف الكواكب والنجوم، وما خلف السموات.. جمع له الزمن حتى أصبح بين يديه ساعات يقلبها.. مراكب يبحر بها.

الإسراء والمعراج

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]. متى كان ذلك؟

سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد، لكنه بين أعطاف أيام مكة الحزينة قطعاً. أما في أي سنة كان ذلك؟ في أي شهر؟ في أي يوم؟

الله أعلم، فكل ذلك غير معروف بالتحديد[2] وكل ما نقطع به أنه حدث في ليلة من ليالي مكة، وما دام الأمر كذلك، فدعونا منه.. دعونا نتسلل بهدوء من الضجيج المحيط بتوقيته إلى أحداث الإسراء والمعراج.. من بدايتها إلى مواجهة قريش بما حدث، فكيف كانت البداية.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) ليس هناك حديث صحيح يبين أي يوم أو أي شهر أو أي عام من أيام مكة حدث الإسراء، لذا فتحديد ليلة معينة للإسراء رجم بالغيب يحتاج إلى سند علمي.

شق للسقف.شق للصدر

ليالي مكة واحدة تــكاد لا تتغير.. فيها يهدأ الجميع. الصحابة متعبون من الأذى والمطاردة، والمشــركون متعبون أيضاً، فقد أهــدروا طاقاتهم طوال النهار في التعذيب والمطاردة لرســول الله ﷺ وأصحابه، الذين يتمتعون بإزاحة العناء بجعل ليلهم مناجاة لخالقهــم، وتهجداً وصفاء، مقاتلون مناضلون في النهار.. عباد في جوف الليل.. ذلك الليل الذي يغرفون منه هدوءه وتأمله..

فــي ليلة غريبة.. في ليلة لا كالليالي.. هبط جبريل عليه الصلاة والســلام على رســول الله ﷺ على غير عادته، وبطريقة استثنائية.. يتحدث عنها ﷺ فيقول: (فرج عن ســقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غســله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه)[١].

شق للسقف، وشق للصدر! لم؟ وأين تم ذلك الشق الآخر؟

كان ﷺ نائماً في بيته، ثم أُخِذَ للمسجد الحرام، وكان في المسجد نيام، أما رسول الله ﷺ فأخذ بين النائم واليقظان.. أُخِذَ بين الناس نحو بئر زمزم.

يقول ﷺ: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان - وذكر يعني رجلاً بين رجلين- فأُتِيتُ بطست[٢] من ذهب مليء حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق[٣] البطن، ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيماناً)[٤].

شــق آخر للنبي ﷺ استعداداً لرحلة عجيبة مدهشة ومعجزة، لكن كم من الزمن ستستغرقه هذه الرحلة؟ ومن سيحمله فيها؟

البراق

جلب جبريل عليه الســلام حيواناً غريباً ليركبه ﷺ، فوصفه وقال: (وأُتِيتُ بدابة

---

(١) متفق عليه -البخاري كتاب الصلاة ومسلم - الإيمان - الإسراء.

(٢) الطست هو إناء نحاسي مستدير.

(٣) ما لانَ منه و رَقَّ أي المناطق الرقيقة من البطن.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق).

أبيض، دون البغل، وفوق الحمار «البراق»)[1] وبعد أن (أتي رسول الله ﷺ بالبراق ليلة أسـري به، مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه. فقال له جبريل عليه السلام: ما حملك على هذا؟ والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه. فأرفض[2] عرقاً)[3].

أما سـرعة هذا البراق، فيقول ﷺ عنها بأنه: (يضع حافره عند منتهى طرفه).. والله أعلم بمنتهى ما يصل إليه طرفه وبصره، لكنه يبدو بعيداً جداً.. يدل على ذلك أن زمن الرحلة كان قصيراً، بحيث يعجز الإنسان عن قياس سرعة ذلك المخلوق العجيب.

يقـول حذيفة رضـي الله عنه: (أتي ﷺ بالبراق - وهـو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل - فلم يزايلا ظهره هو وجبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس)[4].

هذا ما جاء عن البراق.. البراق الذي نسـج حوله الكذابون الأساطير. فقالوا: إن له رأس آدمي، وعرفاً من اللؤلؤ، وأذنين من الزمرد، وغير ذلك من الأكاذيب.

البراق باختصار: دابة أكبر من الحمار، وأصغر من البغل.. أبيض اللون، وخطوته تصل إلى أقصى نقطة يستطيع مشاهدتها، وقد ركبه ﷺ حتى أوصله إلى:

المسجد الأقصى

وفي طريقه ﷺ إلى المسـجد الأقصى مر على موسـى وهـو يصلي في قبره[5] (فأوثق ﷺ الفرس - أو قال: الدابة في الخرابة)[6] وفي ذلك يقول ﷺ: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) سال عرقه.

(٣) سـنده صحيح (الترمذي تفسير سـورة الإسـراء) والبيهقي (٢/٣٦٣) عن عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس، وقتادة ثقة مدلس، لكن هذا الشك زال بروايته للحديث قائلاً: حدثت عن رسول الله ﷺ، وللحديث شواهد ستمر معنا.

(٤) سـنده حسن رواه الطيالسـي ٢-٩١ واللفظ له، والترمذي والبيهقي ٢-٣٦٤ من طريق عاصم بن بهدلة، وهو حسـن الحديث ثقة في نفسه لكن في حفظه بعض الشيء وشيخه زر بن حبيس تابعي ثقة مخضرم التهذيب ٥-٣٨ والتقريب ٢١٥.

(٥) رواه مسـلم ٤-١٨٥٤بلفظ: (مررت ليلة أسري بي على موسى وهو يصلي في قبره، والصلاة هنا الدعاء، وحياة القبر تختلف تماما عن حياتنا المادية.

(٦) سـنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٦١ وأبو يعلى (ت ابن كثير ٨/٥) عن معتمر بن سـليمان عن أبيه، سمعت أنس. وهما ثقتان. التهذيب ١٠-٢٢٧ التقريب ٢٠٤ و٢٥٢.

فيــه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه الســلام بإناء مــن خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال جبريل: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: لقد بعث إليه.

ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، (قاعد، على يمينه أســودة[1]، وعلى يســاره أســودة، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمنه وشماله نسم[2] بنيه، فأهل اليمين منهم: أهل الجنة. والأســودة التي عن شــماله: أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[3] ، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى الســماء الثانية، فاســتفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قــال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال جبريل: قد بعث إليه.

ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيســى بن مــريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومــن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

ثم عرج بنا إلى الســماء الرابعة، فاســتفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟. قــال: جبريل. قـيل: ومــن معك؟ قـال: محمد. قيل: وقد بعــث إليه؟ قـال: قد بعث إليــه، ففتح لنا، فإذا أنــا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

(١) جمع من الناس.
(٢) يعني أرواح أبنائه.
(٣) هذه الزيادة عند البخاري ١-١٣٥.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير. (فلما جاوزت بكى. فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)[1].

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. (فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها[2] كأنه قلال هجر، وورقها كأنها آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل. فقال: أما الباطنان ففي الجنة. وأما الظاهران: النيل والفرات)[3]. (فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[4] (وغشيتها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك)[5].

(ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)[6].

فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى عليه السلام. فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال:

---

(١) زيادة عند البخاري ٣-١١٧٣

(٢) النبق: حمل السدر.

(٣) رواه البخاري ٣-١١٧٣ معنى ذلك (عنصرهما) كما في البخاري. والحديث.

(٤) زيادة عند مسلم ١-١٤٥.

(٥) زيادة عند البخاري ١-١٣٥. ومسلم (الإسراء من كتاب الإيمان). واللفظ له.

(٦) البخاري ١-١٣٥.

ارجـع إلى ربك فاســأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلــك، فإني قد بلوت[1] بني إسرائيل، وخبرتهم.

فرجعت إلى ربي. فقلت: يا رب خفف على أمتي. فحط عني خمساً، فرجعت إلى موســى. فقلت: حط عني خمساً. قال موســى: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال ﷺ: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عشــر، فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها تكتب سيئة واحدة. قال ﷺ: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ - فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)[2].

ترتيب الأحداث

تلك هي قصة الإسراء والمعراج فلنرتبها مع إضافة بعض التفاصيل التي فاتتنا.

١- في بيت رسول الله:

ذلك عندما كان نائماً في بيته، فانشق سقف البيت ليدخل منه جبريل.

٢- في المسجد الحرام عند بئر زمزم:

عندمــا أخذ ﷺ من بين النيام.. وكان في حالة بين النائم والمســتيقظ.. ثم أخذ إلى بئر زمزم ثم:

٣- شق صدره ﷺ:

فبعد إحضاره إلى بئر زمزم شــق صدره الشــريف للمرة الثالثة اســتعداداً لهذه الرحلة العظيمة، وحشي إيماناً وحكمة، وكأن ذلك تحضير لتلك الرحلة الخارقة.

---

(١) جربت واختبرت.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ١-١٤٥ عن أنس.

٤- إحضار البراق:

وهـو دابـة حجمه فوق حجم الحمـار، وأصغر من حجم البغـل.. أبيض اللون.. خطوته عند مد بصره، وله سـرعة مذهلة لا يعلمهـا إلا الله (وكان البراق كلما صعد عقبةً استوت رجلاه مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه)[١].

٥- ركوب البراق:

وقد وجد ﷺ صعوبة في ركوبه أول الأمر، شـمس وامتنع البراق لكن جبريل قال له: (ما حملك على هذا، والله ما ركبك خلق قط أكرم على الله عز وجل منه فارفض عرقاً)[٢] وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل بيت المقدس. وهذا يدل على سرعته، وعلى أنه قد سبق وأن ركبه غير رسول الله ﷺ.

٦- المرور بقبر موسى:

مر ﷺ بقبر موسـى وهو في طريقه نحو المسـجد الأقصى (وموسـى يصلي في قبره)[٣] وصلاة موسـى تختلف عن صلاتنا على ظهر الأرض، لأن حياة القبر ليسـت كحيـاة الأرض (الدنيا)، إنها أشـبه بما يمـر بالنائم من رؤى. والصـلاة هنا معناها: الدعاء، وحتى الدعاء في القبر.. لا ندري كيفيته، وفي الكون مما لا يستطيع الإنسان إدراكه بحواسه، ما لو علمه لذهل وطار صوابه وتحير. والقبر في جميع الأحوال، إما حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة. كيف يكون ذلك..؟ الله أعلم.

٧- الوصول للمسجد الأقصى:

حيث ربـط الفرس أي البـراق بالخرابة.. وربطها ﷺ (بالحلقـة التي يربط به الأنبيـاء)[٤] وهذا يـدل على أن البراق قد ركبه أنبياء آخـرون من قبل، مما يدل على أهمية فعل الأسباب مع التوكل وتفويض الأمر لله، وهذا هو التوكل الصحيح على الله،

---

(١) سنده جيد رواه الحسن بن عرفة في جزئه (تفسير ابن كثير ١٧/٣) حدثنا مروان بن معاوية وهو ثقة عن شيخه الصدوق قنان بن عبد الله النهمي عن شيخه الثقة أبي جناب.

(٢) مر معنا وإنه حديث صحيح الإسناد.

(٣) مر معنا وإنه قد رواه مسلم.

(٤) مر معنا وهو عند مسلم.

وإلا فالبـراق لن يهرب والله قد أحضره لنبيه ﷺ، ثم صلى النبي ﷺ في المسجد الأقصى ركعتين.

٨- الخمر واللبن:

وبعد أن صلى رسول الله ﷺ ركعتين خرج فاستقبله جبريل بإناءين.. في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر. وكان على رسول الله ﷺ أن يشرب أحدهما، فاختار اللبن فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام: (اخترت الفطرة)[١] ولم يتضح معنى هذه الكلمة في عصر كما اتضح في عصرنا هذا، فاسأل الأطباء. كما قال جبريل عليه الصلاة والسلام: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)[٢]. بعد ذلك ينتهي الإسراء، ويبدأ المعراج.

العروج للسماء الدنيا

حيث صعد جبريل عليه السلام بمحمد ﷺ آخذاً بيده إلى السماء.

يقول ﷺ: (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا)[٣] وفي هذا الحديث إشارة إلى وجود خازن من الملائكة للسماء الدنيا. كما أن في بقية الحوار بين جبريل وخازن السماء الدنيا ما يدل على أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تعلم ما يحدث على وجه الأرض، وذلك لأنهم يسألون جبريل في كل سماء فيقولون: وقد بعث إليه؟ أو: وقد أرسل إليه؟..

مَنْ مِنَ الأنبياء في السماء الدنيا

لقد شاهد ﷺ أبانا آدم عليه الصلاة والسلام، فسلم عليه رسول الله ﷺ، ورد آدم عليه السلام. كما شاهد ﷺ خلقاً كثيراً عن يمينه، وخلقاً كثيراً عن شماله، وكان آدم إذا نظر إلى يمينه ضحك مبتهجاً مسروراً، وإذا نظر إلى شماله بكى حزناً وأسى، فشد ذلك السلوك نبينا محمد ﷺ فسأل عنه جبريل؟ فأجابه جبريل: (هذه الأسودة عن يمينه، وعن شماله نسيم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله

---

(١) حديث صحيح مر معنا.
(٢) حديث صحيح. متفق عليه.
(٣) حديث صحيح مر معنا.

أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)[1] ثم ودع آدم رسول الله ﷺ بعد أن رحب به ودعا له بخير

في السماء الثانية

جرى حوار كالحوار الأول بين جبريل عليه السلام وخازن هذه السماء، ثم صعد رسول الله ﷺ فوجد عيسى بن مريم وابن خالته يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فرحبا به، وقد وصف رسول الله ﷺ أخاه عيسى بن مريم عليه السلام فقال: (رأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)[2]. (أحمر كأنما خرج من ديماس)[3].

السماء الثالثة

في هذه السماء شاهد رسول الله ﷺ أجمل خلق الله وجهاً.. شاهد يوسف بن يعقوب النبي الأمين عليه السلام، فوصفه ﷺ قائلاً: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن»[4]. وقال مرة: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)[5] وقد رحب به يوسف ودعا له بخير.

في السماء الرابعة

حيث رأى من قال الله فيه: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[6] إنه إدريس عليه الصلاة والسلام.

وفي السماء الخامسة

شاهد رسول الله ﷺ أخاه هارون.. خليفة موسى في بني إسرائيل، ووزيره وأخوه صلى الله وسلم عليهم جميعاً. فرحب به ودعا له بخير.

---

(١) حديث صحيح مر معنا.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٣) حديث صحيح. متفق عليه. انظر صحيح الجامع (١٠٨/٥) والديماس هو الحمام.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) حديث صحيح. رواه الحاكم. انظر صحيح الجامع (٣٥١/١).

(٦) سورة مريم: الآية ٥٧.

وفي السماء السادسة

لقي ﷺ أخاه موسى عليه السلام، وقد وصفه ﷺ فقال: مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام: (رجل آدم، طوال، جعد[١]، كأنه من رجال شنوءة)[٢]. (فسلمت فقال: مرحباً بك من أخ ونبي)[٣]. لكن موسى عليه السلام بكى بعدما صعد رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة، فقيل لموسى ﷺ، ما أبكاك. قال: (يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي)[٤]. ولم يكن ذلك حسداً من موسى، فالحسد يموج هناك على وجه الأرض، لكنه كان يبكي متحسراً.. آسفاً لعناد أمته وتعنتها، وإلا فهو يحب أمة محمد ﷺ ويعطف عليها، يدلنا على ذلك حديث طويل جرى له مع رسول الله ﷺ حول عدد الصلوات المفروضة، والتي بسبب موسى عليه السلام خفف الله الصلاة عن أمة محمد من خمسين إلى خمس صلوات، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

في السماء السابعة

وهي آخر السموات، وفيها شاهد أباه إبراهيم مسنداً ظهره إلى «البيت المعمور» وهو: بيت يطوف به ويصلي سبعون ألف ملك كل يوم.. لا يعودون بعدها، ودخل ﷺ هذا البيت وسلم على والده إبراهيم فرحب به، وحمَّلَه وصية لأمته قال فيها: (يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التراب، عذبة الماء، وإنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[١].

أما وصف هيئة إبراهيم عليه السلام، فقد قال رسول الله ﷺ: (ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به)[٢] ويقول: (ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب من آرابه إلا نظرت إليه مني، كأنه صاحبكم)[٣].

---

(١) ومعنى آدم أي يميل للسمرة، أما الجعد فمتثني الشعر.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -الإسراء) وشنؤة قبيلة ومعنى آدم أي .
(٣) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟
(٤) حديث صحيح مر معنا. البخاري. بدء الخلق؟
(٥) حديث حسن رواه الترمذي. انظر صحيح الجامع (٣٤/٥).
(٦) متفق عليه.
(٧) إسناده حسن، رواه أحمد من طريق هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وهلال حسن الحديث. انظر المجموعة القصيمية (الإسراء والمعراج).

وهذه الشجرة الرائعة والسدرة العظيمة (إليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منهـا، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها)[1] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: (فراش من ذهب)[2]، ويصف ما حدث لها من تشكلات مذهلة فيقول: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)[3] جمال وألوان وثمار تقف لغات الدنيا ملجمة أمامها.. يحار العقل ويعجز الإبداع عن تجليتها ووصفها، أو التعبير عن معاناة الوقوف أمامها وأسرها.

هذا هو رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم يقول: فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فكيف يكون جمال الجنة يا ترى؟ كيف هي قصورها التي لم تبن بالحجارة أو الطين أو الإسمنت، بل من الذهب والفضة والذهب واللؤلؤ والألماس وما شئت من الأحجار الكريمة؟ كيف طرقات الجنة وهي ليست من تراب أو إسفلت، بل ترصف بالأحجار الكريمة التي لا حصر لأنواعها وألوانها وأشكالها هناك؟ كيف هي زهور الجنة الملايينية التي لا نهاية لألوانها وعبقها وعطورها؟ كيف هي أنهارها وأوديتها وبحارها التي لا تعرف التلوث أو الملوحة أو التغير، وقيعانها التي لم تعد من الطين والطمي والحصى، بل إن شئت فقل قيعان لؤلؤية ومرجانية ومسارب ألماسية.. كيف وكيف وكيف؟أطلق خيالك في سماء الأماني لن تبلغ بدايات الجنة وأدنى منازلها[4].

فلنعد لسدرة المنتهى.

وفي أصل هذه السدرة (أربعة أنهار، نهران باطنان، نهران ظاهران)[5]. (أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران: النيل والفرات)[6] أي (عنصرهما)[7]، وليس معناه أن النيل والفرات الآن متصلان بها.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٥٧/١).
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١٥٧/١).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإيمان -الإسراء).
(٤) إن شئت سياحة في أمنيات الجنة فصاحبني في كتابي (الجنة حين أتمنى) جمعنا الله بها.
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (بدء الخلق -ذكر الملائكة).
(٧) حديث صحيح. رواه البخاري ٦-٢٧٣٠.

ثم عرج به ﷺ لكن ماذا بعد السموات السبع.

صريف الأقلام

يقول ﷺ: (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام)[1] وفي تلك الدرجة العليا من السمو يتساءل المرء عن حال جبريل رفيق المعراج.. كيف كانت هيأته وهو في الملأ الأعلى؟

شاهده النبي ﷺ فوصفه بقوله: (مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله)[2] كان جبريل كالثوب الرقيق.. قد ذاب من خشية الجبار سبحانه وتعالى.

فرض الصلوات

صعد ﷺ هناك.. أعلى من السحب.. أعلى من الشمس والنجوم والمجرات والكواكب. لقد اخترقها كلها.. إنه الآن فوق السموات السبع.. محمد ﷺ ينتظر شيئاً في هذه الأجواء الشفافة المتوهجة الطاهرة، وفي هذا العلو المقدس أوحى الله إلى محمد ما أوحى: خمسين صلاة في اليوم والليلة.

عاد بها ﷺ مطيعاً كعادته، ولكن وفي طريق النزول اعترضه موسى سائلاً عما حدث له؟ فأجابه بأن الله قد فرض عليه خمسين صلاة. فأرشده موسى إلى أن أمته تحتاج إلى تخفيف، فصعد إلى ربه يسأله التخفيف، وما زال يتردد بين المكان الذي يوحى إليه فيه، وبين موسى حتى جعلها الرحمن الرحيم خمس صلوات في اليوم والليلة، لكن لها أجر خمسين صلاة.. تفضلاً منه سبحانه وتعالى، وفي تلك الأجواء المهيبة أوحي إليه

آيات من تحت العرش

آيتان عظيمتان.. أعطاهما الله نبيه ﷺ من كنز تحت العرش، وفي ذلك يقول ﷺ

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (كتاب الصلاة -ومسلم كتاب الإيمان).

(٢) حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط. انظر صحيح الجامع (٥/٢٠٦).

مغتبطاً بفضل الله عليه من بين الأنبياء: (أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يعطها نبي قبلي)[1].

والآيتين هما (خواتيم سورة البقرة)[2]. أي قول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

ولذلك يقول ﷺ: (من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه)[3].

تفضل آخر

ومن فضل الله على رسول الله ﷺ وعلى أمته أيضاً.. ذلك الفيض الغامر رحمة، عندما أبلغ رسوله ﷺ أنه قد: (غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات)[4]. كل هذا الفضل.. العطاء.. كان وحياً، أم كان خطاباً يسمعه رسول الله ﷺ كما سمعه موسى يا ترى.

هل رأى ربه وسمعه

كما سمعه موسى عليه الصلاة والسلام، أما السماع، فقد مر معنا أنه قد أوحي إليه وحياً، وأما الرؤية، فقد كفانا أبو ذر مهمة حمل السؤال لرسول الله ﷺ حيث قال رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى[5] أراه»)[6]، (رأيت نوراً)[7]. لكنه رأى الجنة ودخلها، ووصفها فكيف وصف:

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني والبيهقي. انظر صحيح الجامع (١/٣٥٠).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (١/٢٥٧) قال عبد الله:... وأعطي خواتيم سورة البقرة.

(٣) أي تكفيه حديث صحيح رواه البخاري ١٩١٤/٤.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) أي كيف أراه.

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان/ باب نور أنى أراه)

(٧) حديث صحيح. المصدر السابق.

دخول الجنة

لقـــد قـــال ﷺ: (أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المســـك)[1]. ثم جرى في طريق عودته

حوار بين الأنبياء

حوار حول الساعة، وأمرها ومتى تكون؟ يقول ﷺ: (لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموســـى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال ﷺ: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى عليه السلام. فقال: لا علم لي بها.

فردوا الأمر إلى عيســـى عليه السلام. فقال: أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله، ذلـــك وفيما عهد إلى ربي عـــز وجل: أن الدجال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يـــذوب الرصاص، فيهلكه الله، حتى إن الحجر، والشـــجر ليقول: يا مســـلم.. إن تحتـــي كافر فتعال فاقتله، فيهلكهم اللـــه، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ثم يرجع الناس إلي، فيشكونهم، فأدعو الله فيهلكهـــم ويميتهم، حتى تجوي الأرض من نتن ريحهم، فينزل الله عز وجل المطر، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر)[2].

ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك فإن الســـاعة كالحامل المتام التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً)[3].

المسيح الدجال

ذلك القائد اليهودي، الذي ذكره عيســـى بن مريم ﷺ. هل رآه رسول الله ﷺ في رحلته العجيبة..؟

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم (كتاب الإيمان -الإسراء). والجنابذ هي القباب

(٢)حسن من أجل مؤثر بن عفازة ١-٣٧٥. انظر ما بعده.

(٣) إسناده جيد، رواه أحمد ١-٣٧٥ وغيره حدثنا هشيم، أخبرنا العوام، من جبلة بن سحيم، عن مؤثر عفارة، عن ابن مسعودة. العوام بن حوشب ثقة ثبت من رجال الشيخين، وجبلة بن سحيم تابعي ثقة. انظر الجرح والتعديل ٢-٥٠٨ وشـــيخه تابعي ثقة أيضاً. انظر ثقـــات العجلي (٤٤٣)، والحافظ لم ينقل توثيق العجلي وفي ذكر نسف الأرض نكارة.

لقد قال أحد الصحابة أنه (ذكر الدجال)[1] وأنه (رأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس مناماً قال ﷺ: رأيته فيلمانياً[2]، أقمر[3] هجاناً[4]، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة)[5].

خازن جهنم

ملَك رهيب اسمه مالك.. لا يبتسم، وصورته الحقيقية لا تسر، ولا يستطيع بشر مهما كان قوي القلب الصمود أمامها.. ملك مخيف جداً.. يتطاير الرعب من قسماته ونظراته.. لا يعرف الشفقة، ولا يرحم أحداً، وكيف يرحم وهو خازن جهنم، وممزق أعداء الله ومعذبهم. رآه ﷺ أثناء الإسراء والمعراج عندما (قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام)[6].

ولم يرَ ﷺ خازن جهنم فقط، بل رأى جهنم نفسها، فجبريل عليه السلام أراه الجنة والنار (فنظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلاً أحمر أزرق، جعداً شعثاً إذا رأيته.

قال ﷺ: من هذا يا جبريل؟ قال عليه الصلاة والسلام: هذا عاقر الناقة)[7] التي جعلها الله آية لنبيه صالح عليه الصلاة والسلام، فكان بجريمته هذه أشقى قومه ثمود.

وقد قص سبحانه وتعالى قصته على رسوله ﷺ فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -الإسراء).

(٢) الفيلمان: العظيم.

(٣) الأقمر: الأبيض.

(٤) الهجان: الأبيض.

(٥) سنده حسن، رواه أحمد ١-٣٤٧ وإسحاق بن سليمان (سيرة الذهبي ٢٥١) عن هلال بن خباب وهو حسن الحديث، عن عكرمة عن ابن عباس، وليس في هلال كلام يضر.

(٦) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٧) إسناده حسن. رواه أحمد ١-٢٥٧ حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس. عثمان هو العيسى ثقة، التهذيب ٧-١٤٩، وجرير بن عبد الحميد بن قرط ثقة صحيح الكتاب، وقابوس حسن الحديث إذا لم يخالف فجرحه غير مفسر أفرط ابن حبان في جرحه كعادته، ووالده تابعي ثقة اسمه حصين بن جندب الجنبي.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾[1].

ومر ﷺ بأقوام تركوا ألسنتهم تزحف.. أفاعي تنهش الغافلين.. تنهش المجتمع، لتواصل زحفها حتى تسحب أهلها إلى الجحيم، فقال: (مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال عليه السلام: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)[2].

أما في الجنة

في عالم الجمال والأنوار والفتنة، والحب المتجدد في قلوب أهلها حول المياه والخضرة الساحرة، والقصور الفارهة، والطرقات الفسيحة، والبحيرات والشلالات والسفن واليخوت والمركبات والطائرات المترفة.. كان لبلال خشف هناك.. خشف لنعلي ذلك الشريد الذي تتقاذفه قبضات قريش، فتحتضنه تجاويف الجبال والخوف وغيرانها.. يرجف يصبغها بالدماء والبكاء.. بلال الأسود كان هناك كالملاك.

يقول ﷺ: (دخلت الجنة ليلة أسري بي، فسمعت في جانبها وجساً، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال)[3]. واستمر خشف بلال حتى بعد الإسراء، فقد قال عليه السلام له: (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة.

قال بلال: ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي منفعة، من إني لا أتطهر طهورا تاماً، في ساعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي)[4].

بلال في الأرض.. في مكة سلعة تباع وتشترى، وتعرض في الأسواق. لا يملك بيتاً، ولا يملك نفسه، لكنّ في أعماقه بلال آخر.. بلال مسلم حر مزق الشرك والخضوع..

---

(١) سورة الشمس.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد وأبو داود. صحيح أبي داود (٣/٩٢٣).

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير.

(٤) صحيح مسلم ١٩١٠.

يتبختر في القصور هناك.. هناك في النعيم.. في الجنة.. سيداً من سادات الأرض والسماء والإسلام. سيداً في عالم الجنات حيث لا عين رأت مثل ذلك الحب والجمال والأنوار، ولا أذن سمعت، ولا خطر شيء من ذلك في خيال بشر.. مهما هام وأبدع وتألق، أو غاص عوالم الأحلام والأماني. أشرع الله أبوابها للموحدين، ونثر مفاتيحها في دروب الجميع، فمن تخلف فلا يلومن إلا نفسه.

وصية

قالتها الملائكة.. لرسول الله ﷺ: (ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا كلهم يقول لي عليك يا محمد بالحجامة)[1].

العودة للمسجد الأقصى

بعد هذه الرحلة الممتعة في عوالم الخلود العلوية.. عاد ﷺ إلى المسجد الأقصى، (فلما دخل النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)[2].

ثم ركب البراق فإذا هو في مكة في زمن يخرس الأرقام.. محمد يعود والناس نيام، فماذا سيقول لهم غداً، وأي كفر ذلك الذي ستشهده شمس الصباح؟

رسول الله حزين معتزل

يقول رسول الله ﷺ: («لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلاً حزيناً»، فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال: كالمستهزئ: هل من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو جهل: ما هو؟ قال ﷺ: «إنه أسري بي الليلة». قال أبو جهل: إلى أين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «إلى بيت المقدس». قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: «نعم».

---

(١) سنده حسن رواه أحمد ١-٣٥٤وغيره عن عبد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً، وعباد صدوق مدلس لكنه سمع من عكرمة عند الترمذي ٤-٣٩١

(٢) سنده حسن وقد مر معنا ويشهد له ما بعده. وهو حديث مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

فلم يُرَ[1] إنه يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

فقال أبو جهل: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدِّثْ قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة». قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: «إلى بيت المقدس». قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال ﷺ: «نعم». فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً)[2] (فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل. وقال أبو جهل: يخوفنا محمد شجرة الزقزم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا)[3].

لكن أبا بكر لا يقول: كذبت

أبو بكر الصديق يعرف أكثر من غيره نبع الصدق.. أكثر من يعرف رسول الله ﷺ في صباه وشبابه، وبعد نبوته. سمع بالخبر فجاء لرسول الله ﷺ وقال له: (أشهد أنك رسول الله)[4].

قريش تطلب الدليل

للتعجيز.. لإثبات أن رسول الله ﷺ يكذب، ولو لمرة واحدة يلوثون بها تاريخه النقي كأنهار الجنة. طلبت قريش دليلاً على ما يقوله ﷺ، فأخبرهم بقافلتهم القادمة ووصفها لهم، لكن هذا الأمر يتطلب الانتظار، وقريش تريد التكذيب في الحال، لذا طالبته أن يصف بيت المقدس فهو لم يره من قبل.

---

(١) أي تظاهر أبو جهل بأنه يصدق ذلك الخبر، ظاناً أن تكذيبه في هذا الوقت سوف يجعل رسول الله ﷺ يتراجع عن قول الحقيقة إذا اجتمع القوم.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) حديث صحيح رواه البيهقي والبزار (٣٥/١) قال البيهقي: إسناده صحيح وليس كما قال، بل فيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وهو صدوق في نفسه إلا أن الحافظ قال: يهم كثيراً، التقريب ٩٩، وضعفه ليس بالشديد وله شاهد صحيح عند أبي يعلى ٧-١٢٦

يقول رسـول اللـه ﷺ: (لقد رأيتني في الحجر وقريش تسـألني عن مسـراي، فسـألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسـألوني عن شـيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسـى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شـنوءة، وإذا عيسـى بن مريم عليه السـلام قائم يصلي، أقرب الناس به شـبهاً عروة بن مسـعود الثقفي. وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم «يعني نفسه» فحانت الصلاة فأممتهم)[1] ويقول ﷺ: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)[2].

ويقول أحد الصحابة: (قالوا: هل تسـتطيع أن تنعت لنا المسجد - وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد؟

فقـال رسـول الله ﷺ: (فذهبت أنعـت، فما زلت أنعت حتـى التبس علي بعض النعت، فجيء بالمسـجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقيل، فنعته، وأنا أنظر إليه.. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب)[3].

أما قافلة العير فساحت نحو بطحاء مكة.. تنشد الشعر والحداء.. محملة بأقوال تبشر بصدق معراجه وبصدق امتطاء البراق، فابتهجت قلوب المؤمنين، وتهللت وجوههم، وانصرف الشامتون يجرون خيبتهم، ويجترون جمراً.. إنهم لم يروا محمداً إلا متجدداً طاهراً نقياً لا شائبة فيه، أما هو فاتجه يبشر أصحابه بـ:

الصلاة المفروضة

كان ذلك بعد الإسـراء مباشـرة.. حيث نزل جبريل فعلم رسـول الله ﷺ أوقات الصلاة عند الكعبة مرتين.

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٢)حديث صحيح. رواه مسلم (الإيمان -ذكر المسيح).

(٣) إسـناده صحيح. رواه أحمد ١-٣٠٩ وغيره عن عوف عـن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس، وعوف ثقة كان يقال لـه: عوف الصدوق التهذيب ٨-١٦ وشـيخه زرارة بن أوفى العامري الحرشـي، تابعي ثقة عابد، مات فجأة وهو يصلي. التقريب ٢١٥.

يقول ﷺ: («أمني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس[١]، وكانت قدر الشراك.

وصلى بي العصر حين كان ظله[٢] مثله.

وصلى بي المغرب حين أفطر[٣] الصائم.

وصلى بي العشاء حين غاب الشفق.

وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم[٤].

فلما كان من الغد: صلى بي الظهر حين كان ظله مثله.

وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه.

وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم

وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل.

وصلى بي الفجر فأسفرت[٥] ثم التفت إلي وقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين »[٦])[٧].

وكانت الصلاة بمكة (ركعتين.. ركعتين)[٨]، كل صلاة ركعتان إلا المغرب فثلاث ركعات.

حملها ﷺ إلى أصحابه.. علَّمَها إياهم زاداً مفروضاً يريحهم بها ساعات الضيق والضنك.. تعيد تنظيم أوقاتهم كما أعاد التوحيد نظام حياتهم، وكان ﷺ في بعض الأوقات يسير نحو الكعبة.. يعبد الله عندها، ويؤدي هذه الصلوات هناك، لكن ذلك لم يعجب طواغيت قريش.. لم يرق لهم ما يفعله هذا النبي الجريء.. الذي يتحدى بصلاته أصنامهم، وحجارتهم وأخشابهم التي يسمونها آلهة.

---

(١) تحركت الشمس من زاوية ٩٠ْ نحو الغروب.

(٢) مثله في الطول أى في زاوية (٤٥ْ).

(٣) وقت غروب الشمس.

(٤) فيه فائدة حول وقت السحور. وأنه عند بداية ظهور نور الفجر وكان ذلك في أول الأمر.

(٥) يقول ﷺ: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر». صحيح الجامع للألباني (٥/٢٣٧).

(٦) أي وقت كل صلاة ما بين الوقتين اللذين أداها بينهما.

(٧) حديث صحيح. انظر المصدر ما قبل السابق (٥/٤٦٣).

(٨) حديث صحيح. رواه البخاري (١/١٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

لقد أجج ذلك التحدي جحيم الانتقام الذي يغلي داخل صدور المشــركين، وجدد محاولاتهم الســابقة للإيذاء والتنكيل، بل والقتل. والذي سيتكفل بهذه المهمة اليوم هو طاغوت قريش وفرعون الأمة.

أبو جهل يمنع الصلاة

عندما نفخ صدره أمام أشباهه يوماً، ثم نفث سماً قائلاً: (لئن رأيت محمداً يصلي عنــد الكعبة، لأطأنَّ على عنقــه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل، لأخذته الملائكة)[1]. ثم مشــى ﷺ إلى بيت الله واثقاً من وعده، وصلى وركع وســجد ودعا وابتهل. فعلم أبو جهل، فجاء كالمسعور نحو رسول الله ﷺ فقال له: (ألم أنهك عن أن تصلي يا محمد؟! لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني.

فانتهره النبي ﷺ فقال جبريل: فليدع ناديه، ســندع الزبانية، والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية العذاب)[2].

لكــن أبا جهــل كان حاقداً على النبوة.. حاقداً علــى صاحبها، لأنه ليس من أهل بيته.. لأنها ليست فيهم، فليحطمها، وليحطم صاحبها. أبو جهل كان طافحاً بالعصبية الجاهلية.. حيث يغيب العقل وتموت الحكمة فلا يرى صاحبها غيره، وكأن محمداً ﷺ وأتباعه داخل صدره القاتم يمنعون عنه الهواء.

عقد أبو جهل حاجبيه واســودت الدنيا أمامه (فأتى رســول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجئهم[3] منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنــا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وأنزل الله عز وجل[4]: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٩٦/٤).

(٢) سنده صحيح، رواه البيهقي (١٩٢/٢) وغيره من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود ثقة متقن التقريب ٢٠٠ وشيخه مولى ابن عباس تابعي ثقة معروف.

(٣) باغتهم دون توقع لهذا التصرف.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب المنافقين).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾[1].

فامتثل ﷺ وسجد رغم أنف أبي جهل وأنوف من معه.

لقد كان ما حصل لأبي جهل رادعاً له، لو كان له قلب.. لو كان يظن أن محمداً يكذب. لكنه كان يشرك بالله عن علم ودراية.. عناداً وتجبراً، وغروراً بما لديه من نسب ومال وسلطة، ولهذا وأمثاله جزاء رادع.. في يوم لا تنفعه هذه الأشياء، وفي أمثال هذا نزل الوحي من السماء: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[2].

ولى أبوجهل مذعوراً، ومرت أيام، وعاد ليمارس هو وزبانيته نوعا قذراً من الأذى لا يليق إلا بالرعاع.. إلا بمن لا أخلاق لهم.

يضعون السلا على ظهره

شاهدهم عبد الله بن مسعود فلم يستطع فعل شيء.. كان محطم القلب واليدين، وهو يشاهد حبيبه ﷺ (يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور[3] بالأمس.

فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور «بني فلان» فيأخذه، فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟

فانبعث أشقى القوم، فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر - لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ - والنبي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جويرية - فطرحت عنه.

---

(١) سورة العلق.

(٢) سورة الهمزة.

(٣) الجزور من الإبل يطلق على الذكر والأنثى والمراد به هنا سلا الأنثى من الإبل.

ثم أقبلت عليهم تسـبهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً. وإذا سأل، سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش».

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال ﷺ: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشـام، وعتبة بن ربيعة، وشـيبة بن ربيعة، والوليـد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع ولم أحفظه»)[1].

لقد استنفذ ﷺ - دون يأس - كل الوسائل فـ:

لم يبق إلا الدعاء

قريـش أصبحت جداراً.. أم القـرى لهيب نار.. اليوم صوتهـا رمضاء.. دروبها عمـاء.. دروبها حبـال.. حصار فوقه حصار.. تلبد الحصـار كالجبال كالمحال.. لكنه الإيمان.. نبض الموحدين يمضغ المحال.. وفي السـماء قطرة ستغسل الجبال.. ستزرع الحياة في القلوب.. في كل حبة من الرمال..

البحث عن الأنصار

بعد أن أصبحت قريش جداراً من العناد والحصار.. جد ﷺ في البحث عن أنصار يحملون دين الله بقلوبهم.. يفتش عن أرض وصدور أرحب.. ولذلك: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سـوق عكاظ، وقد حيل بين الشـياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشـهب فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السـماء، وأرسـلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث.

فانطلقـوا فضربوا مشـارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هـذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السـماء. فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق (عكاظ)، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن،

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والسير، والبيهقي (٢٨/٢) واللفظ له.

تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم. فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[1].

إذاً فقد سمع الجن واستمعوا، ورسول الله ﷺ لا يدري باختلاط الجن من حوله واضطرابهم، ثم إنصاتهم وخشوعهم، فمع خيوط الفجر كانوا قد انحدروا، ومع طيوره وأنسامه كانوا قد (هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن (ببطن نخلة). فلما سمعوه قالوا[2]: أنصتوا، صه. وكانوا تسعة أحدهم (زوبعة) فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم

---

(١) سورة الجن.

(٢) الفتنة: الامتحان والابتلاء.

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

هذه الآيات نزلت، ونزل غيرها فيما بعد.. تبشر رسول الله ﷺ بأن له أتباعاً لا يراهم ولا يسمعهم.. ليسوا من الملائكة ولا من البشر، بل هم من الجن: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[2].

ومحمد ﷺ نبي للإنس والجن، وقد أمره الله بأن يلتقي بوفد من الجن.. في ليلة بحث الصحابة فيها عن حبيبهم ﷺ، فلم يجدوه، ووجدوا الحزن والخوف في كل مكان يفتشونه.. في كل مكان يقصدونه، حتى ظنوا أن أيدي المشركين تخطفته وفتكت به.

تلك ليلة كالحداد.. تحدث عنها ابن مسعود فقال: (كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: أستطير؟! اغتيل.

فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. فقلنا: فقدناك فطلبناك، فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن.

فانطلق ﷺ بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد.. فقال ﷺ: كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً[3]، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم..

قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بها، فإنهما طعام إخوانكم»[4]. هذه ليلة لم يحضرها أحد.. لم يشهد أحداثها سواه ﷺ، لكن هناك ليلة أخرى أحب ﷺ أن يكون له فيها رفيق من صحابته، فكان عبد الله بن مسعود الذي يقول: (قال رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ -٥٨.

(٣) أي إن العظام التي يذكر اسم الله عليها عند أكل لحمها تعود طعاماً للجن.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل. فلم يحضر منهم أحد غيري.

فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط.

ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني، فقال: ما فعل الرهط؟ قلت: هم أولئك يا رسول الله. فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم)[1].

هذه هي قصته ﷺ مع الجن. سمعوه وهو يصلي في طريقه إلى عكاظ، ثم التقى بهم مرة، وأخرى، وربما ثالثة ورابعة.

لقد أُمر ﷺ بإرشادهم.. بإنقاذهم من عوالم الشرك التي تموج ولا نراها، لكنه لم يؤمر بالاعتماد عليهم، ولا بإقامة علاقة بينهم وبين أصحابه، فكلٌّ يدعو في مجاله، وكل يتوهج في ميدانه. هنا عالم للإنس، وهناك عالم للجن، وما يهمنا هو عالمنا، فماذا فعل ﷺ بعد أن فرغ من صلاته متجهاً نحو عكاظ؟

في عكاظ

وصل ﷺ إلى عكاظ.. تتبع القبائل.. دخل خيامهم، وبشرهم ودعاهم. كل القبائل دون استثناء.. بني عبس، وكندة، وتميم، وبكر بن وائل، وبني عامر بن صعصعة، وبني حنيفة، وغيرهم.

كانت بعض القبائل تصرفه بلطف، والبعض بعنف، وهناك من يشتمه ويسبه ويتهمه، وكان خلف ذلك الرفض أكوام الوصايا تحذر من فتى قريش ﷺ.

---

(١) حديث حسن، رواه ابن جرير تفسير ابن كثير ٤-١٦٤ من طرق عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري عن ابن عثمان بن شبة. والصحيح: ابن سنة كما قال الحافظ عن ابن مسعود، وله علتان، الأولى: رواية يونس عن الزهري، فهو ثقة إلا أن روايته عن ابن شهاب فيها وَهْمٌ قليل، وابن سنة لم يوثق، وله طريقان يرتقي بهما إلى درجة الحسن، هما: جرير عن قابوس عن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن مسعود، وهذا الطريق حسن لذاته وقد مر معنا تخريجه.. كذلك طريق آخر عند أبي نعيم. انظر تفسير ابن كثير (١٦٤/٤).

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين، يتبع الحاج في منازلهم، في المواسم: مجنة، وعكاظ ومنازلهم بمنى: من يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة. فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مصر، أو من اليمن، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه، فيقولون: احذر فتى قريش لا يفتنك. يمشي بين رحالهم، يدعوهم إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب)(١).

عشر من السنين يرفع الخباء.. يشع في الخيام كالشموس كالضياء.. يحط كالأمطار كالربيع والظباء.. لينعم الجميع.

كان ﷺ لطيفاً ليناً في حديثه.. يحترم من أمامه، ويدعوه بأحب الأسماء إليه. ها هو في لقاء مع رجل من:

همدان

فبينما (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل؟

فأتاه رجل من همدان، فقال الرسول ﷺ: ممن أنت؟ فقال الرجل: من همدان. قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟

قال الرجل: نعم.

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: آتيهم فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل، قال ﷺ: نعم. فانطلق)(٢).. ألهذه الدرجة بلغ الخوف من القوم؟! ألهذه الدرجة صحراء العرب موحشة وقاسية على هذا النبي ﷺ، وعلى أصحابه المساكين؟! كأنهم سيتحالفون مع الموت.. مع الفناء.. أما لهم عقول! أم تحولوا إلى صخور؟ ومع ذلك، لا يأس.. يعود عليه السلام ويداه خالية منهم، وهمُّ العالم

---

(١) هو قطعة من حديث صحيح سيمر معنا عند لقاء الأنصار.

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٣٩٠ وغيره من طرق عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر. وسالم ثقة سمع من جابر. جامع التحصيل ٢١٧ وعثمان ثقة. التهذيب ٧-١٥٥ وإسرائيل بن يونس ثقة معروف. التهذيب ١-٢٦١.

يدور برأســه.. يعود إلى بيته حيث لا خديجة.. لا زوجة تمسح الجراح.. تبادله الحب والحنــان. يتذكر خديجة في بيته الذي يفتقدها.. يتذكر خمســة وعشــرين عاماً من الحب عاشها معها، ولا يعرف من تلك الطاهرة إلا ما يثلج صدره ويبهجه. ما ذكر امرأة غيرها ولا طرق باباً للزواج بعدها! كأنها لم تمت، لكن إرادة الله كانت وحياً في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي يستيقظ حقيقة على الأرض. فما الذي جرى في المنام؟

فتاة وحرير ليالي الحج

في ليلة من ليالي توافد الناس للحج، وقبل عامين من الهجرة كان ﷺ نائماً، فجاءه في المنام رجل مرتين.. يحمل ابنة صاحبه الصديق أبي بكر (عائشـــة) رضي الله عنها.. يحملها (في ســـرقة من حرير[1] فيقول: هذه امرأتك. فأكشفها فإذا هي أنت[2]. فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه)[3].

الزواج بعائشة وسودة

كانت هذه الرؤيا وحياً من الله.. مَنَّ به على رسول الله ﷺ فضلاً منه.. لم يسع إليه ﷺ، بل ساقه إليه.

تقول عائشـــة رضي الله عنها: (لما ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون. قالت: يا رســـول الله، ألا تزوج؟ قال ﷺ: «من؟» قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال ﷺ: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر. قال رسول الله ﷺ: «ومن الثيب؟» قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول. قال ﷺ: «فاذهبي فاذكريها علي».

لكن عائشة مخطوبة

فدخلـــت بيت أبي بكر، فقالـــت: يا أم رومان[4] ماذا أدخـــل الله عليكم من الخير

---

(١) قطعة حسنة من الحرير.

(٢) يخاطب ﷺ في هذا الحديث زوجته عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (١٩٥٣/٥). ومعنى يمضه: أي يتمه.

(٤) هي أم عائشة رضي الله عنها.

والبركة. قالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت أم رومان: انتظري أبا بكر حتى يأتي.

فجـاء أبو بكر. فقالت: يـا أبا بكر ماذا أدخل عليكم من الخير والبركة. قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال أبو بكر: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسـول اللـه ﷺ، فذكرت له ذلك. قال ﷺ: «ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي».

فرجعت فذكرت ذلك. قال أبو بكر: انتظري. وخرج.

قالـت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على مطعم بن عدي، وعنده امرأته - أم الفتـى[1] - فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصب[2] صاحبنا - مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟

قال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ قال المطعم: إنها تقول ذلك[3].

فخرج من عنده، وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسـه من عدته التي وعده. فرجع فقال: ادعي لي رسول الله ﷺ.

فدعته، فزوجها إياها - وعائشة يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت، فدخلت على سودة بنت زمعة، فقالت: ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة. قالت سودة: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه.

قالـت: - وودت - ادخلـي إلى أبي فاذكري ذاك له، وكان شـيخاً كبيراً قد أدركه السـن، قد تخلف عن الحج. فدخلت عليه، فحييته بتحية الجاهلية[4]. فقال: من هذه؟

---

(١) أي أم الفتى التي خطبت له عائشة.

(٢) الصابئ من ترك دينه وقد خافت أم الفتى أن يدخله أبو بكر في الإسلام بعد زواجه.

(٣) جـاء في رواية أن المطعم (أقبل علـى امرأته فقال لها: ما تقولين، فأقبلت على أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليك تصبئه وتدخله في دينك؟ فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟ فقال المطعم: إنها لتقول ما تسمع. فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء. انظر سيرة الذهبي (٢٨١).

(٤) في رواية عند الذهبي: فقلت له: أنعم صباحاً.

قلت: خولة بنت حكيم. قال: فما شـأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة. قال: كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذاك. قال: ادعيها إلي.

فدعيتها. قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم. أتحبين أن أزوجك به؟ قالت سودة: نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله ﷺ إليه، فزوجها إياه. فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجعل يحثي في رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة)[1].

ودخلت سودة بنت زمعة بيت رسول الله ﷺ.. أول امرأة بعد خديجة، وكانت مثل خديجة، حيث سبق لها الزواج برجل قبل رسول الله ﷺ، وربما كانت أسن منه. أما عائشة الصغيرة، فالزواج في سنها كان معروفاً ومعتاداً، بل كانت مخطوبة لابن المطعم بن عدي، وها هي تحدثنا فتقول: (تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة قبل مخرجه إلى المدينة بسنتين، وأنا بنت سبع سنين)[2].

دخل ﷺ على سودة، لكنه لم يدخل على عائشة في مكة أبداً، أما سودة فالتحقت ببيته ﷺ.. تصلح من شأنه، وترعاه وتزيح عنه الكدر والأذى الذي يلاحقه في شوارع مكة كظله.

عروس ولكن

أصبح ﷺ عروساً يبتهج بحياته الجديدة، كما تبتهج زوجته به، لكنهما عريسان للكفاح.. للنضال. يريدان جعل الأرض كلها أعراساً وأفراحاً.

حمل ﷺ ثياب عرسه واتجه نحو تجمعات القوم من جديد، فلن يكون للعرس لذة والناس محرومون من لذة الإيمان، فالتوحيد كالماء .. كالهواء. لا بد أن يدخل كل بيت،

---

(١) سنده حسن. رواه أحمد ٦-٢١٠ وغيره عن محمد بن عمرو بن علقمة حدثنا أبو سلمة ويحيى قالا: وظاهره الإرسال، لكنه جاء متصلاً كما في سيرة الذهبي حيث قال يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: قالت عائشة. وهو ممن روى عنها وهو حسن من أجل ابن علقمة فهو حسن الحديث. وقد جاء الحديث متصلاً عند الطبراني ٢٣-٢٤.

(٢) تزوجها في مكة لكنها لم تزف إليه ﷺ إلا في المدينة، والحديث رواه البخاري ومسلم.

ويعمـــر كل قلب، وعلى حامله أن يحفر القناة بمعوله.. بيديه بأظفاره. فالناس عطاش والأرض جفـــاف. اتجه ﷺ إلى قبائـــل العرب.. يرافقه أبو بكـــر الصديق وابن أخيه الشـــاب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فكانت هذه القصة المنســـوجة بالأشعار والأنساب:

في خيام ربيعة

يقول علي رضي الله عنه: (لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه علـــى قبائل العرب، وأنا معه، وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم، أبو بكر وكان مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نســـابة - فســـلم، وقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة.

قال أبو بكر: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها، أي من لهازمها[1]؟

فقالوا: من الهامة العظمى.

فقـــال أبو بكر رضي الله عنه: وأي هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر؟ قـــال أبو بكر: منكـــم عوف الذي يقال له: لا حر بوادي عـــوف؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جساس بن مرة، حامي الذمار[2] ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس، أبـــو اللواء، ومنتهـــى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان، قاتل الملوك، وســـالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف، صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: أخوال الملـــوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: أصحاب الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال: فلســـتم من ذهل الأكبر، أنتم من ذهل الأصغر.

فقام إليه غلام من بني شيبان يقال له «دغفل» حين تبين وجهه فقال:

إن علـــى ســـائلنا أن نســـله   والعـــبـــو لا نـــعـــرفـــه أو نجـهـلـه

يا هذا.. قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئاً، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: أنا من قريش.

---

(١) اللهزمة عظم في اللحى تحت الحنك. أي من أشرافها.

(٢) أي ما يحمي كالأهل والعرض والمال.

فقال الفتى: بخٍ.. بخٍ، أهل الشرف والرياسة. فمن أي القرشيين أنت؟ قال أبو بكر: ولد تيم بن مرة.

فقال الفتى: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أمنكم قصي[١] الذي جمع القبائل من فهر، فكان يدعى في قريش مجمعاً؟ قال أبو بكر: لا. قال: فمنكم هشام[٢] الذي هشم الثريد لقومه، ورجال مكة مسنتون عجاف؟ قال: لا. قال: فمنكم شيبة الحمد: عبد المطلب[٣] مطعم طير السماء، الذي كان وجهه القمر يضيء في الليلة الداجية؟ قال أبو بكر: لا. قال: فمن أهل الإفاضة[٤] بالناس أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الحجابة[٥] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل السقاية[٦] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الندوة[٧] أنت؟ قال: لا. قال: فمن أهل الرفادة[٨] أنت؟ قال: لا.

فاجتذب أبو بكر رضي الله عنه زمام الناقة، راجعاً إلى رسول الله ﷺ، فقال الغلام:

صادف در السيل دراً يدفعه ... يهضبه حيناً وحيناً يصدعه

أما والله لو ثبت لأخبرتك من قريش، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال علي: يا أبا بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة. قال أبو بكر: أجل يا أبا الحسن، ما من طامة، إلا وفوقها طامة، والبلاء موكل بالمنطق)[٩].

وعند مفروق وقومه

قال علي رضي الله عنه: (ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم. فقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة.

---

(١) جد النبي ﷺ.
(٢) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.
(٣) كل هؤلاء أجداد رسول الله ﷺ.
(٤) انصراف الحجاج من عرفات.
(٥) حجابة الكعبة.
(٦) السقاية: حياض لعبد قصي توضع بفناء الكعبة. يسقى فيها الماء العذب للجميع.
(٧) دار الندوة كانت قريش تقضي فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من غير أولاد قصي إلا من بلغ أربعين سنة.
(٨) الرفادة: أموال تخرجها قريش من أموالها في كل عام يصنع منه طعام للحجاج.
(٩) سنده قوي يأتي تخريجه في نهاية القصة.

فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر الناس، فيهم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك.

وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولساناً، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته[1]، وكان أدنى القوم مجلساً، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق بن عمرو: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال المفروق: إنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدلنا[2] مرة، ويدلي علينا أخرى، لعلك أخا قريش؟ فقال أبو بكر: قد بلغكم أنه رسول الله؟ ألا هو ذا. فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذاك، فإلى ما تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله ﷺ، فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله الغني الحميد». فقال مفروق ابن عمرو: وإلامَ تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[3] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾.

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك[4] قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا.

---

(١) عظم الصدر.

(٢) أدل الإنسان بحجته: احتج بها وأحضرها.

(٣) الفقر.

(٤) كذب.

فقال هانئ بن قبيصة: لقد سمعت مقالتك يا أخا قريش، إني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا على دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، أنه زلل في الرأي، وقلة نظـر فـي العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنـا قوم نكره أن يعقد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر. وكأنه أحب أن يشـركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى بن حارثة: سـمعت مقالتك يـا أخا قريش، والجواب في جواب هانئ بـن قبيصة فـي تركنا ديننا ومتابعتك على دينك، وإنا إنمـا نزلنا بين صريين اليمامة والسـمامة، فقال رسول الله ﷺ: ما هذان الصريان. فقال المثنى: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسـرى فذنب صاحبه مغفور، وعنده مقبول، وإنما نزلنا علـى عهدٍ أخـذه علينا أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثـاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا قرشـي مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب. فعلنا.

فقال رسـول الله ﷺ: ما أسـأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصـره إلا من حاطه من جميـع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم. أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذلك.

فتلا رسـول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

ثم نهض رسـول اللـه ﷺ قابضاً على يـدي أبي بكر وهو يقول: يـا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية ما أشـرفها، بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم.

قـال علي رضي الله عنـه: فدفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا، حتى بايعوا رسول الله ﷺ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وقد سر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم)[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٢) سـنده قـوي رواه البيهقـي فـي الدلائل ٢-٤٢٢ واللفـظ له، وأبو نعيـم ٢٨٢ من طرق عـن أبان بن =

ففي خيمة المفروق لا عطاء.. لكن مجلس المفروق كان آخر الأحزان.. لم يحث في الوجوه.. شتماً ولا تراب.. رطباً طرياً كان مجلس المفروق.. يوحي بأن في الصحراء.. قلباً وماءً.. نبعاً يرطب العروق.. يشدها نحو السماء.

لقاء الأنصار

دفع ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى خيام الأوس والخزرج.. القادمين من حرة يثرب، فكان لقاء الغرباء بالغرباء.. جدد الدنيا وحول التاريخ، وأعاد للإنسانية المطحونة مكانتها.

(لما لقيهم رسول الله ﷺ. قال لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال ﷺ: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال ﷺ: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانت الأوس والخزرج أهل شرك، وأصحاب أوثان، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالت اليهود: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1].

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم اعلموا والله أن هذا الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه لمَّا دعاهم إلى الله عز وجل، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد

= تغلب، عن عكرمة، عن ابن عباس عن علي. وأبان بن تغلب الربعي ثقة وقال النسائي: ثقة، لكنه قد عرف بالتشيع. قال الحافظ: (التشيع في عرف المتقدمين: اعتقاد تفضيل علي على عثمان.. وأما التشيع في عرف المتأخرين فهو الرفض المحض، فلا تقبل رواية الرافض الغالي ولا كرامة) وهذا الرجل ليس من الرافضة، ولذلك قال الحافظ في التقريب ثقة تكلم فيه للتشيع. وعكرمة: ثقة مر معنا كثيراً. وقد تكلمت عن الحديث وطرقه بأطول من هذا في (تخريج أحاديث السيرة). وقد قال الحافظ في الفتح: وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن. انظر فتح الباري (٧١/١٥) وقول القسطلاني في المواهب: أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم بإسناد حسن.

(١) إرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة لهم. وهذه العبارة موجودة في توراة اليهود حتى اليوم.

تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله عز وجل أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا)[1]. ولما وصلوا إلى يثرب.. تسللوا إلى قلوب بعض قومهم، فاستجابوا لهم وأسلموا، فصار في تلك الديار من يعبد الله وحده لا شريك له، ويصلي على رسول الله ﷺ. فلما كان موسم الحج التالي قدمت قوافل يثرب من المشركين تحج مكة، وكان بين الركب مطايا للموحدين.. مطايا للأنصار مشوا إلى رسول الله ﷺ بعد انقضاء شعائر الحج.. غسلوا أيديهم من دماء الثارات والعنف الجاهلي بماء زمزم الطاهر.. غسلوها ومدوها لرسول الله ﷺ طاهرة.. يبايعونه ليلاً، وعيون مكة نائمة عما يجري على أرض العقبة، أي على أرض منى، وفي ليلة من ليالي رمي الجمرات.

العقبة الأولى

وعندما رأى ﷺ أيديهم تصل إليه إذعاناً وامتثالاً لله ورسوله.. قال لهم: (تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا... ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)[2].

فبايعوه وشدت الأيدي للنهوض بالحق، وبذله للجميع.. لشعوب الأرض جميعاً. والرجال المبايعون في العقبة الأولى كانوا قلة. يقول أحدهم وهو عبادة بن الصامت: (كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً)[3].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه البيهقي ٢-٤٣٣ وأبو نعيم ٢٩٨ والطبراني. حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه: لما لقيهم، فالأشياخ هم الذين قابلوا رسول الله ﷺ، وعاصم بن عمر روى عن بعض الصحابة، وهو تابعي ثقة.

(٢) رواه البخاري، ٣-١٤١٣. وفي الفراغ كلمة ولا تزنوا.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ابن هشام ٢-٥٧ حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني،=

بيعــة حملهــا الأنصــار وابتهجــوا بها، وكانــت فخرهــم عندما يلــوح الرجال بإنجازاتهم.

يقول أحدهم واسمه كعب بن مالك: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها)[1]).

وممن شــهد العقبة: جابر بــن عبد الله الأنصاري القائل: (أنــا وأبي وخالي من أصحاب العقبة)[2] والقائل: (شهد بي خالاي العقبة)[3].

تلك بيعة حطمت جدراناً ســوداء تحجب عن الدنيا أنواراً للآخرة.. بيعة توقظ.. بيعة تهز هذا الإنسان الرث الملتحف ببقايا السنين المظلمة.. تقول له: هذا ربك فاعبده وحده، وأنت خليفته وسيد كونه، فاجعله ربيعاً يبتسم. وهذا مالك منثور في كل مكان.. ابحــث عنه والتقطه، ودع غيرك يبحث، ولا تمدن يديك إلى ما في أيدي الغير.. حتى تكون خليفة وسيداً للكون أيضاً. وتزوج فالحب أنفاس الحياة، فلا تلوثها برائحة البغايا المنتنة. إنها بيعة تلاحق ذلك الرجل المتجه كالغضب نحو المقابر.. تمسك به وتهز كتفيه وتصرخ في وجهه: ويحك قف ما هذا الذي تحمله على ظهرك قاصداً به نحو المقابر؟ ويحــك.. قف، إنه مــا زال حياً.. إنها ابنتك ونبض قلبك! ماذا جنت حتى تهيل التراب عليها؟ وهي شاخصة تبلل لحيتك وقبرها بدموع تناشدك شيئاً من حنان.

مبادئ عظيمة قبض عليها الأنصار بأيديهم، وحملوها إلى يثرب، فلما أروها بعض قومهم قدموا إلى مكة طمعاً في مثلها فكان: (يأتيه الرجل، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإســلام)[4]. ويبتهجون بتلك المبادئ التي غرسها في أعماقهم هذا

= عن عبد الرحمن بن عســيلة الصنابجي، عن عبادة بن الصامت، ابن إســحاق سمع من شيخه الثقة يزيد تهذيب ١١-٣١٨ ومرثد تابعي ثقة التهذيب ١٠-٨٢ وابن عسيلة رحمه الله رحل إلى رسول الله ﷺ فوجده قد مات، وقد وثقه العجلي التهذيب ٦-٢٢٩.

(١) حديث صحيح. (البخاري -مناقب الأنصار).

(٢) حديث صحيح. رواه (البخاري -مناقب الأنصار).

(٣) حديث صحيح. رواه (المصدر السابق).

(٤) ســنده صحيــح. رواه أحمد ٣-٢٢ وغيره من طريق: ابن خثيم عن أبــي الزبير أن جابر حدثه: أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس ثقة وهو مدلس لكنه سمع من جابر هنا وعبد الله بن عثمان بن خثيم ثقة. قاله النسائي وابن سعد والعجلي وزاد ابن معين: حجه.

الدين المدهش.. حفظت لهم أعراضهم وأموالهم وأطفالهم، وأذابت ما بينهم من صدأ الجاهلية.. كحبات المطر يمتزجون سـيلاً يغيث الصحراء. لا فرق بينهم، لكن أكرمهم عند الله أتقاهم، ومع ذلك كانوا بحاجة إلى معلم يقرأ عليهم كتاب الله، فكان:

مصعب بن عمير في يثرب

لقد (بعثوا إلى رسـول اللـه ﷺ: أن ابعث إلينا رجلاً مـن قبلك، فيدعو الناس بكتاب الله، فإنه أدنى أن يتبع. فبعث إليهم رسول الله ﷺ «مصعب ابن عمير» أخا بني عبد الدار، فنزل في «بني غنم» على أسعد بن زرارة، فجعل يدعو الناس سراً، فيفشو الإسلام ويكثر أهله، وهم في ذلك مستخفين بدعائهم)[1].

غربة مصعب

لم تخل حياة هذا المعلم الغريب من المعاناة، فهو بعيد عن مكة.. بعيد عن رسول الله ﷺ. ظهره مكشوف للجميع ولا يملك شيئاً.. لا أهلاً، ولا مالاً، ولا سلاحاً.. كل ما يملكه رسالة ربه.. هي زاده وسلاحه.. يقتحم الأهوال بها.. لا يأبه إن ضرب أو مات، فما خرج من مكة يبحث عن حطام الدنيا، بل كان يتحسـس حطام القلوب والأرواح، ليجمعها من جديد.. كان يحمل الحياة نحو هوة الموت ليردمها، ثم يزرعها للجميع.. خضراء أشرقت يثرب بمصعب بن عمير، لكن من يحملون في صدورهم غلا جاهلياً ساءتهم تلك البهجة وذلك الاخضرار، فأخبروا سـيداً لهم ليضع للأمر حداً، ولمصعب ومن معه نهاية يقفون عندها، وكان اسـم سـيدهم هذا (سـعد بن معاذ، فأتاهم في لأْمَته[2] معه الرمح، حتى وقف عليهم فقال لأسـعد بن زرارة: علام تأتينا فـي دورنا بهذا الوحيد الفريد الطريح الغريب، يسفه ضعفاءنا بالباطل، ويدعوكم إليه، ولا أراكم بعدها بشيء من جوارنا.

فرجعـوا. ثم إنهم عادوا الثانية لبئر مرق[3] أو قريباً، فأخبر بهم سـعد بن معاذ، فتواعدهم توعداً دون الوعيد الأول.

---

(١) حديث حسن بالشواهد وتخريجه في الحديث الذي يليه فهو جزء منه.

(٢) عدة الحرب.

(٣) بئر من آبار المدينة، وبداية هذا الحديث عند هذا البئر كما جاء في أول القصة: إن أسعد ابن زرارة أقبل هو ومصعب بن عمير حتى أتيا بئر مرق، أو قريباً منه، فجلسـا هناك، وبعثا إلى رهط من أهل الأرض، فأتوهم مسـتخفين، فبينا مصعب بن عمير يحدثهم ويقص عليهم، وأخبر بهم سـعد بن معاذ، فأتاهم في لأمته، الرمح.. إلخ.

فلما رأى أسعد بن زرارة منه ليناً قال: يا ابن خالة، اسمع من قوله، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه، وإن سمعت حقاً فأجب إليه. فقال سعد: ماذا يقول؟ فقرأ عليه مصعب بن عمير: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فقال سعد بن معاذ: ما أسمع إلا ما أعرف.

فرجع وقد هداه الله تعالى، ولم يظهر لهم الإسلام حتى رجع إلى قومه، فدعا بني الأشهل إلى الإسلام، وأظهر إسلامه، وقال: من شك فيه من صغير أو كبير، أو أنثى أو ذكر، فليأتنا بأهدى منه نأخذ به، فوالله لقد جاء أمر لتحزَّنَّ فيه الرقاب.

فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه، إلا من لم يذكر، فكانت أول دور من دور الأنصار أسلمت بأسرهم، ثم إن بني النجار أخرجوا مصعب بن عمير واشتدوا على أسعد بن زرارة، فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكانت المسلمون أعز أهلها، وصلح أمرهم، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ)[1].

عاد المقرئ إلى معلمه ونبيه ﷺ.. يبشره بأن يثرب قد ملئت دروبها بحطام الأصنام.. يبشره بأن أبوابها مشرعة للشمس والهواء.. للقلوب المحبة المبتسمة، وللأيدي تصافح.. يبشره بأن التوحيد ينعش أجواء يثرب، فلقد عادت الحياة إليها من جديد.

أما قريش فقد كانت أسوأ مما تركها عليه.. لقد تحولت في وجه رسول الله وصحبه إلى سدود صلبة، وأقفال لا مفاتيح لها. كان المشركون صمتاً مخيفاً يفوح مكيدة وخبثاً، أما الموحدون فكانوا صمتاً متفائلاً ينتظرون لقاء الأنصار في العقبة الثانية.

---

(١) خبر ليس بحديث وسنده مرسل عند أبي نعيم ٣٠٦ وهو مرسل عروة، وروى مرسلاً عن الزهري، لكن للخبر شاهد عند ابن إسحاق (ابن هشام ٢/٦٠): حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وهذان تابعيان ثقتان ولبعض الخبر شواهد صحيحة مر بعضها.

حان موعد الحج، فتداعى الحجيج وسالوا من كل فج نحو بيت ربهم، لكن الكعبة لـــم تكـــن تنتظر إلا وفداً قادماً مـــن حرة يثرب، فهم وحدهـــم لا يحملون أصناماً، ولا يعلقون تمائم.. إنهم يحملون توحيداً تعشقه وطال شوقها إليه.

الشـــاعر كعب بن مالك أحد هؤلاء الموحدين يحمل شعراً.. يحمل طهراً ويحدثنا فيقول: (خرجنا في الحجة التي بايعنا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومنا، ومعنا «البراء بن معرور» كبيرنا وســيدنا، حتى إذا كنا بظاهر «البيداء» قال: يا هؤلاء تعلمون أني قد رايت رأياً، والله ما أدري توافقون عليه أم لا؟

فقلنـــا: وما هو يا أبا بشـــر؟ قال: إني قد أردت أن أصلي إلـــى هذه البنية[1]، ولا أجعلها مني بظهر. فقلنا: لا والله لا تفعل، والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام. قال البراء بن معرور: فإني والله لمصل إليها.

فكان إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشـــام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء بن معرور: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رســـول الله ﷺ حتى أســـأله عما صنعته في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي.

فخرجنا نسأل عن رسول الله، فلقينا رجلاً بالأبطح. فقلنا: هل تدلنا على محمد بـــن عبـــد الله بن عبد المطلب؟ فقال: فهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه – ولم نكن رأينا رســـول الله ﷺ – فقال: فهل تعرفـــان العباس بن عبدالمطلب؟ فقلنا: نعم. وقد كنـــا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة، فقال: فإذا دخلتما المســـجد فانظرا العباس، فهو الرجل الذي معه.

فدخلنا المســـجد فإذا رســـول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا، ثم جلســـنا، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال العباس: نعم. هذا البراء بن معرور ســـيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فوالله ما أنســـى قول رســـول الله ﷺ: الشـــاعر؟ قال العباس: نعم. فقال له البراء: يا رســـول الله إني قد كنت رأيت في ســـفري هذا رأياً، وقد أحببت أن أســـألك عنه لتخبرني عما صنعت

(١) يعني يريد استقبال الكعبة عندما يصلي.

فيـه. قال ﷺ: «وما ذاك؟» قال البراء: رأيت أن أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها.

فقال له رسـول اللـه ﷺ: قد كنت على قبلة. لو صبرت عليهـا. فرجع إلى قبلة رسـول اللـه ﷺ)[1] ورجع هو ومن معه إلى رحال قومهـم. وفي أواخر أيام الحج هذه تجهز الأنصار لموعد رسول الله ﷺ السرِّي في ليلة رمي الجمرات:

العقبة الثانية

يقول كعب بن مالك: (وقد واعدنا رسـول الله ﷺ العقبة أوسـط أيام التشريق، ونحـن سـبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حـرام «أبو جابر» وإنه لعلى شـركه، فأخذناه فقلنا: يا أبا جابر، والله إنـا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غداً حطباً، وإن الله قد بعث رسولاً يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله ﷺ للبيعة.

فأسـلم وطهر ثيابه، وحضرها معنا، فكان نقيباً، فلمـا كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا[2]، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة، فأتانا رسول الله ﷺ، وعمه العباس، ليـس معه غيره، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، فـكان أول متكلم، فقال العباس: إن محمـداً منا حيث قـد علمتم، وهو في منعة من قومه وبـلاده، وقد منعناه، ممن هو على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم تخشـون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه، فإنه في منعة من عشـيرته وقومه. فقلنا: قد سمعنا ما قلت. تكلم يا رسول الله.

فتكلم رسـول الله ﷺ، ودعا إلى الله عز وجل، وتلا القرآن، ورغب في الإسـلام، فأجبناه بالإيمان به والتصديق له، وقلنا له: يا رسـول الله خذ لربك ولنفسـك. فقال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم.

---

(١) انظر تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

(٢) نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء.

فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم، والذي بعثك بالحق ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فعــرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رســول الله، إن بيننا أقواماً حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم»

فقال البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك.

فقال رسول الله ﷺ: «اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً». فأخرجوهم له.

فكان نقيب بني النجار: أسعد بن زرارة.

وكان نقيب بن سلمة: البراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام.

وكان نقيب بني ساعدة: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو.

وكان نقيب بني زريق: رافع بن مالك بن العجلان.

وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع.

وكان نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت.

وفي الأوس من بني عبد الأشهل: أسيد بن حضير، وأبو الهيثم بن التيهان.

ونقيب بن عمرو بن عوف: سعد بن خيثمة.

فكانوا اثني عشــر نقيباً: تســعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. فأخذ البراء بن معرور بيد رســول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا)[1] فامتزجت القلوب والأيدي في مهرجان حب وولاء، تلك الأيدي كانت في تمازجها تخنق مخلوقاً مخيفاً لا يُرى ولا يُســمع.. حشــته بيعة العقبة الثانيــة جمراً محرقاً، فصرخ يدعو جيوشه المشركة لتطفئ ما به من حريق، لقد كان ذلك الصارخ هو عدو الإنسانية كلها:

---

(١) انظر تخريجه في نهاية هذا الخبر، وهو حديث صحيح.

الشيطان يصرخ

يحاول إيقاف غطيط المشـركين علهم يتنبهون لما يجـري حولهم. يقول كعب بن مالك: (فصرخ الشـيطان على العقبة بأبعد - والله - صوت ما سـمعته قط، فقال: يا أهـل الجباجب[1]، هلاَّ لكم في مـذمم[2] - ما يقول محمد- والصباء معه قد اجتمعوا علـى حربكم. فقال رسـول الله ﷺ: «هـذا أزب[3] العقبة، هذا ابن أزيـب، أما والله لأفرغن لك. ارفضوا[4] إلى رحالكم».

فقال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شـئت لنميلن على أهل منى بأسـيافنا؟ فقال رسـول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم».

فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلة من قريش، فيهم: الحارث بن هشـام[5] فتى شـاب وعليه نعلان جديدان، حتى جاءوا في رحالنا، فقالوا: يا معشـر الخـزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتسـتخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشـب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم؟

فانبعث من هناك من قومنا من المشركين، يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى أبي جابر (عبد الله بن عمرو بن حرام) - وهو صامت - وأنا صامت.

فلما تثور القوم لينطلقوا، قلت كلمة كأني أشركهم في الكلام: يا أبا جابر أنت سيد من ساداتنا، وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

فسمعه الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إلي، وقال: والله لتلبسنهما. فقال أبو جابر: مهلاً أحفظت لعمر الله الرجل - يقول أخجلته - أردد عليه نعليه.

---

(١) أسماء منازل بمنى، وسميت به لأن كروش الأضاحي تلقى فيها أيام الحج. اللسان.

(٢) هكذا كان الحاقدون المشركون يسمونه ﷺ، فيقولون مذمماً بدلاً من محمد.

(٣) شيطان اسمه أزب العقبة.

(٤) ارفضوا، أي تفرقوا إلى رحالكم.

(٥) الحارث هذا هو أخو أبي جهل، وأبو جهل هو عمرو بن هشام.

فقلت: والله لا أردهما، فَأْلٌ صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنه)[1].

أمـا جابر بن عبد الله الأنصاري فيقص أحداث العقبة الثانية فيقول: (بعثنا الله عـز وجل له ﷺ من يثرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن بـه ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسـلمون بإسـلامه، حتى لم يبق دار من يثرب إلا وفيها رهط من المسـلمين، يظهرون الإسـلام، ثم بعثنا الله عز وجل وائتمرنا واجتمعنا - سبعين رجلاً منا، فقلنا: حتى متى نذر رسـول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شعب العقبة، فاجتمعنا فيه من رجل ورجلين، حتى توافينا عنده، فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟

قال ﷺ: «بايعوني على السـمع والطاعة في النشـاط والكسـل، وعلى النفقة في العسـر واليسـر، وعلى الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، وعلـى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين رجلاً سناً، فقال: رويداً يا أهل يثرب. إنا لم نضرب إليه أكباد المطايا إلا ونحن نعلم أنه رسـول الله. إن إخراجه اليوم: مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم[2] السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السـيوف إذا مسـتكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسـكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله عز وجل؟ فقلنا: أمط[3] يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها. فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة)[4].

---

(١) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٤٤٤: حدثني معبد بن كعب ابن مالك بن القين، أخو بني سـلمة، عن أخيه عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك. شـيخ ابن إسـحاق، ثقة من رجال الشيخين، وأخوه ثقة له رؤية. التقريب ٣١٩.

(٢) أي تضربكم وتشد عليكم.

(٣) أي أبعد.

(٤) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٣٣٩) والبيهقي (٢/٤٤٢) من طرق عن: عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير: أنه حدثه جابر بن عبد الله.. ابن خثيم ثقة. انظر التقريب (١/٤٣٢) وأبو الزبير تابعي مدلس لكنه صرح بالسماع من جابر وهو محمد بن مسلم بن تدرس وحديثه صحيح.

شـــمس جديدة كالذهب، وصباح منعش كالمطر، ورواحـــل الأنصار تودع البطاح.. تحمل عهداً.. تحمل حباً لمحمد.. تنثر منه للتلال للكثبان.. تنعش به الأجواء.. تبشـــر به التائهين على صفحة الأرض كلها.

أما قريش فالأيام تزيد في جنونها، وطغاتها حارت بهم الدروب. كلما أغاروا على مسلم ضعيف لم يجدوه.. لم يجدوا في بيته سوى الجدران.. سوى الرياح تنوح داخله باكيـــة تبحث عن أحبتها، فلا تجدهم، أما الأبـــواب فكانت تصطفق.. تضطرب كقلب عاشـــق مهجور، فلن تعانق بعد اليوم تلك الأيادي المتوهجة بالوضوء. ما الذي حدث يا مكة..؟ ماذا فعلت بك تلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ؟

رؤيا

رآها ﷺ، فأســـر بها إلى أصحابه المثقلين بقيود قريش. قال لهم: (إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان[1].

فهاجـــر من هاجر قِبَلَ[2] المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشـــة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة.

فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال ﷺ: «نعم».

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف[3] راحلتين كانتا عنده: ورق السمر[4] - وهو الخبط - أربعة أشهر)[5].

جـــاءت هذه الرؤيا تبعث الأمل من جديـــد، بعد أن ضاقت مكة واصطكت جبالها على الموحديـــن.. بعد أن أصبح الموت يتلصص عليهم، ويرقبهـــم في الزوايا والممرات متوثباً يريد الفتك بهم وبدينهم، فلم المكوث في هذا الاختناق؟

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار.

(٢) نحو..

(٣) أطعمها العلف.

(٤) شجرة الطلح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

هجرة عمر بن الخطاب
وعياش وهشام

قصة نسج أحداثها وتضحياتها عمر وعياش وهشام رضي الله عنهم، وساهم في مآسيها أبو جهل وأخوه الحارث.

يقول عمر رضي الله عنه: (اتعدت لما اجتمعنا للهجرة أنا و «عياش بن أبي ربيعة» و «هشام ابن العاص»: الميضأة[1] - ميضأة بني غفار - فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه. فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف[2]، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما- حتى قدما علينا المدينة، فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك؟

فرق لها، فقلت له: يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت.

قال عياش: إن لي هناك مالاً فآخذه. قلت: والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى إلا أن يخرج معهما. فقلت له لما أبى علي: أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول[3] فالزم ظهرها، فإن رابك[4] من القوم ريب فانج عليها. فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطرق قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال عياش: بلى.

فلما أناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عديا عليه وأوثقاه، ثم أدخلاه مكة، وفتناه، فافتتن، فكنا نقول: والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا يقبل توبة. قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك

---

(١) أي تواعدنا في مكان يقال له (الميضأة).

(٢) أي أرض قباء.

(٣) سهلة الانقياد.

(٤) أصابك الشك.

لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم وفي قولنا لهم وقولهم لأنفسهم: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى، أصعد بها وأصوب[2] حتى فهمتها، فألقي في نفسي أنما نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت، فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة)[3].

قصة كان عمر فيها بطلاً.. شهماً.. بعيد النظر.. يعرف من يكون طاغوت قريش الملقب بـ (أبي جهل) وألاعيبه، لذلك مد يديه مفتوحتين يتناثر منهما ماله وناقته.. يبذلها بسخاء افتداءً لأخيه من المجهول المخيف، لكنَّ أخاه كان رقيق القلب تجاه أمه، فنجحت التمثيلية ووقع عياش في الأسر والحزن، وحاصرته جبال مكة حتى اقتربت من أضلاعه، وطوته الأيام بالهموم حتى نزل الفرج من الله.. كلمات تشرح الصدور، وتغرس فيها الآمال من جديد. ولم يكن عياش وهشام وحدهما في المعاناة من الهجرة.

امرأة اسمها هند بنت أبي أمية (أم سلمة) كانت حزناً ينزف في طريق الهجرة.. أم سلمة كانت غربة تبحث عن أرض كالحب.. كالأمان تجد نفسها بها وعليها.. مناضلة هامت على وجهها تبحث عن حياة حقيقية تليق بمسلمة مثلها.. لا ترضى بالذل ولا بالتخلف معها. ركبت البحر إلى الحبشة بصحبة زوجها العظيم (أبي سلمة رضي الله عنهما)، وركبته ثانية عائدة إلى مكة بعد أن لاح في الأفق أمل للحرية في أجواء مكة. عادت وزوجها فوجدا مكة أكثر ظلمة، وأكثر أنياباً، ولما سمعا بأن في حرة المدينة أذرعاً وقلوباً مفتوحة، وشمساً مشرقة.. التفتا إليها لعل هذا الهم ينفض عن قلبيهما، وسارا نحو مدينة الإسلام الجديدة.. لا يعلمان ماذا تخبئ الجبال خلفها، ولا أي حزن كانت تغطيه رمال الطريق.

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٢) صعد النظر أي نظر إلى أعلاه وصوبه أي خفضه.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن هشام ٨٥/٢.٤) فقال: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال: اتعدت لما أردنا الهجرة.. وهذا الإسناد صحيح ورجاله ثقات أعلام معروفون، وابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه نافع.

تقول رضي الله عنها: (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني «سلمة بن أبي سلمة» في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد «رهط أبي سلمة»[1] فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي: سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

ورد بنو عبد الأسد - أي عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.. أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان[2] بن طلحة بن أبي طلحة -أخا بني عبد الدار- فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وابني هذا. قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت أستأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي. حتى أقدمني

---

(١) أي قومه.

(٢) أسلم هذا الشهم فيما بعد.

المدينــة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو ابن عوف بـ (قباء) قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف.

فكانت أم سلمة رضي الله عنها تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم مــا أصاب أبا ســلمة، وما رأيت صاحبــاً قط كان أكرم من عثمان بــن طلحة)[1]. في غربة الدروب والأســفار لا طفل لا حبيب.. لا ظل لا أشــجار.. عام بلا نهار.. عام بلا أقمــار.. في الأبطح المــزروع بالرماح والقضبان.. هند تموت.. في كل ســاعة تموت، والشرك شــرطة تحاصر الأنفاس.. وترفض العبور تقفل المكان، وتفسح الطريق عبر غابة الأكفان. للحزن والرمضاء والزمام.. عثمان يخطف الزمام.. وينقش الشــهادتين والوعود.. كي يعود.. لأنهر الحياة والإسلام.. لا بد أن يعود. فإن بين جوانح هذا الشهم إســلاماً مكتوف اليدين.. يحتاج إلى شــرارة تحرق قيده، وتزيح ركام الجاهلية الجاثم على أنفاسه.

وعندما وصلت أم سلمة عرفت الناس بنفسها، فلم يصدقوا أن ابنة رجل بارز مثل أبيهــا تهاجر وحدها، حيث تقول رضي الله عنها: (أنها لما قدمت المدينة أخبرتهم أنها إبنة أبي أمية بن المغيرة، فكذبوها ويقولون: ما أكذب الغرائب. حتى أنشــأ ناس منهم إلــى الحج، فقالوا أتكتبــين إلى أهلك؟ فكتبت معهم. فرجعو إلــى المدينة يصدقونها، فازدادت عليهم كرامة)[2].

مأســاة كانت أم سلمة.. مآسي كانت دروب الفرار من الاضطهاد إلى بلد الحرية المفتوح، لكن ماذا عن ســيد المهاجرين؟ هل ســيبقى وحيداً فــي مكة وبيوت أصحابه خالية إلا من بكاء الريح؟ ترى متى سيهاجر؟

---

(١) رواه ابن إسحاق ابن هشام ٢-٨٠ وقد صرح بالسماع من والده، عن سلمة بن عبد الله عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة: والد ابن إسحاق (يسار) ثقة. أما سلمة فهو تابعي وثقه ابن حبان فيحتاج إلى مزيد من التوثيق وقد أوردته لأن سلمة روى عنه عدد من ثقات التابعين وأعلامهم ومنهم: الثقة الثبت عمرو بن دينار، وعطاء بن أبي رباح وهو ثقة فقيه فاضل ووالد ابن إســحاق. التهذيب ٤-١٤٨ ولأنه يروي هذا الخبر عن جدته.

(٢) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٦ - ٢٣٥ أخبرنا ابن جريج قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو والقاسم بن محمد بن عبد الرحمن أخبراه أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته.

رسول الله يؤمر بالهجرة

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ بمكة، فأُمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾[١].

وبعـد نزول هـذا الأمر الكريم اتجه ﷺ نحو صاحبه أبي بكر في سـرية تامة.. متلثماً، وفي وقت يلوذ الناس ببيوتهم، وتخف وطأتهم على الطرقات والدروب لشـدة الحـر والرمضاء. في هـذا الوقت الذي يتجول فيه السـموم واللهـب وحدهما عبر الطرقات.. كان ﷺ يطرق باب أبي بكر الصديق بحذر شـديد، فتقول عائشـة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[٢] - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعةإلا أمر. فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسـول الله. قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: «الصحابة»[٣] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»)[٤]. أي سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله رسـول الإسـلام ﷺ، أما أعداء الإسـلام والحياة.. طواغيت قـريـش، فكانوا في تلك الأيام في شـغل وهـم ومكائد ينسـجون خيوطها في مكان يقال له:

---

(١) سنده حسن. رواه أحمد ١-٢٢٣ حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، وقد مر معنا تخريجه، وقال ابن كثير بعد أن ذكره: قال الترمذي: حسن صحيح. سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٦ - ٢٣٥ أخبرنا بن جريج قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو والقاسـم بن محمد بن عبد الرحمن أخبراه أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته

(٢) متغطياً بثوب متخفياً عن أعين قريش.

(٣) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٥).

دار الندوة

حيث تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسـمة إلى حمم من الغضب.. دار الندوة تحولت إلى بركان ثائر يريد رأس رسـول الله ﷺ بأي ثمن، فقد أيقنت قريش بأنه لا محالـة خارج إلى مدينة الإسـلام الجديدة متلحقاً بأصحابـه. فالوضع مخيف جداً، وقريش يخيفها مسـتقبلها المجهول إن انتصر عدوها، لذلك اجتمعت في يوم أسـمته (يـوم الزحمة) الذي تحدث عنه أحد الصحابة فقال: (لمـا اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت[1] لـه، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سـمع بالذي اتعدتم لـه، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح، قالوا: أجل، فادخل.

فدخـل معهم، وقد اجتمع فيها أشـراف قريش كلهم مـن كل قبيلة: من بني عبد شمس: شيبة وعتبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

ومـن بنـي نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبيـر بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل.

ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة.

ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام.

ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.

ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

ومن بني جمح: أمية بن خلف. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان، وما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

---

(١) البت: هو الكساء الغليظ.

ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشـباهه من الشـعراء الذين قبله: زهيراً، والنابغة، ومن مضـى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم. فقال الشـيخ النجـدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبسـتموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فلأوشـكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره ثم تشاوروا.

فقـال قائل منهـم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنـا، فإذا خرج فوالله ما نبالـي إلى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنـا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشـيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقـه، وغلبتـه على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لـو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسـير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشـام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سـيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل[1]. فعقلناه لهم. فقال الشـيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي لا رأي لكم غيره،

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون لـه)[2].

---

(١) أي الدية.

(٢) حديث حسـن بطرقه، رواه ابن إسـحاق، ومن طريقـه رواه الطبري ٢-٣٧٠ من عـدة طرق، صرح فيها بالسماع. سمعه من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الطريق لا يفرح به لأن فيه الكلبي تالف، أما الطريق الثانية: الحسـن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة، عن مقسـم، عن ابن عباس. والحسـن هذا متـروك، أمـا الطريق الثالثة فرجالها ثقات: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس، ومجاهد إمام تابعي ثقة معروف وعبد الله بن أبي نجيح ثقة، لكنه ربما دلس أي أنه قليل التدليس، وللحديث شـواهد تجعله حسـناً لا شـك، فقد رواه عبد الرزاق عن قتادة (٣٨٩/٥) مرسلاً وهذا شاهد يكفي، كذلك له شواهد عند الواقدي عن علي وعائشة وسراقة. والواقدي متروك.

ذلك ما أسـفر عنه يوم الزحمة، أما بيت أبي بكر حيث تزحم الحكمة بالحماس بالتخطيط، فلم يكن أقل نشاطاً مما يحدث في دار الندوة، فالكتمان والصمت والعمل الدؤوب شعار للجميع.

تقول عائشـة: (فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين)[١]، فتاتان من فتيات الإسـلام يواجهن الموت ليل نهار.. يردن بذلك وجه الله، وينشـرن أذرعهن طريقاً لمدينة الإسلام.. هاتان الفتاتان ليستا وحدهما من بين شباب الإسلام. كان هناك شاب عظيم طرح للموت جسداً باعه لله يفتدى به رسوله ﷺ ذلك هو:

علي بن أبي طالب على فراش الموت

فعندما اتفق الطغاة على تحديد ليلة ينكسـون فيها سـيوفهم في ذلك الجسـد الطاهر.. ثمانية سـيوف، وربمـا أكثر تتلمض.. تريد أن تسـتحم بدمائه ﷺ.. تريد إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كان فوق كل حبة رمل سيف لأعدائه.

أرسـل الجبار سـبحانه وحياً يحمله جبريل (فأتى جبريل رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشـك الذي كنت تبيـت عليه، فلما كان العتمة من الليل اجتمعوا على بابه، فترصدوه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسـول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، واتشح[٢] ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام)[٣]، فامتثل الشاب لأمر سـيده ﷺ، واتشـح بالبرد، وكان على استعداد ليتشح بالدماء، فقد علمه الإسلام كيف يبذل روحه لله وحده.. علمه كيف يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه. وخرج رسول الله ﷺ متسللاً، وبعد خروجه (جاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، فقال: يا نبي الله. فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري، وقد مر معنا أوله. ومعنى أحث الجهاز أي أسـرعه، والجراب وعاء يوضع فيه الطعام والنطاق هو الحزام.

(٢) أي تغطى.

(٣) جزء من حديث طويل مر معنا وهو عن اجتماع دار الندوة وهو حسن بالشواهد.

فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار، وجعل علي يُرْمَى بالحجارة كما كان يُرْمَى نبي الله ﷺ وهو يتضور[1]، قد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشف رأسه، فقالوا: إنك للئيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك)[2].

إذاً حدث تغيير بسيط في خطة الهروب، فبعد أن علم ﷺ بالمؤامرة لم ينم على فراشه، بل تسلل ﷺ بعد تخطيط محكم وخدعة بارعة انطلت على جميع الأغبياء والأذكياء منهم.. على كل سيف صلت قد سل خلف بابه، ولم تكتشف أكداس الكفر خلف الجدار ما حل بهم، إلا بعد أن تنفس الصبح في وجوههم.. يوقظهم ليسخر منهم. علي بن أبي طالب كان فتى يعدل أمة، ويخدع طواغيتاً قد ركمهم الحقد وحنطهم الغل حول الباب، بينما كان رسول الله ﷺ يأخذ بيد صاحبه أبي بكر عند بئر ميمون، ويواصلان المسير على عجل.. يدفعان الجبال عنهما دفعاً. بالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. لقد كانا مسرعين يقصدان جبلاً عيَّناه وحدداه، ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطة الهروب، وهما الآن يعجان إليه.

لكن أبا بكر الصديق لم يكن على عادته.. كان مرتبكاً.. طريقة سيره توحي بذلك، فهو يحمل روحه في إحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى خمسة آلاف درهم هي كل ما يملكه من مال، لكن حركته واضطرابه لا توحي بأنه خائف على روحه، ولا على ثروته فمم كان يتوجس؟

ماذا دهاك يا أبا بكر

أتدرون ماذا كان يفعل (يكون أمام النبي ﷺ مرة، وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى[3] من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت

---

(١) يتلوى.

(٢) سنده جيد، رواه أحمد ١-٣٣٠ من طريقين، عن أبي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانه اسمه: وضاح بن عبد الله اليشكري، ثقة ثبت. التقريب ٥٨٠ وشيخه يحيى بن سليم حديثه حسن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشهور وثقة عابد. التقريب ٤٢٧.

(٣) أي تهاجم وتصاب.

أن تؤتى من خلفك)[1] واستمر أبو بكر في تصرفه حتى عندما لامست أقدامه صخور الجبل.. وعند الصعود فعل ذلك (حتى انتهى إلى الغار من ثور).

عندهـــا فعل أبو بكر مـــا لا يفعله غيره (قال أبو بكر: كما أنت[2]. حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك)[3].

كان أبو بكر طيفاً من الحنان.. ســحابة حب تظل رســول الله ﷺ.. كأني به يود لو صنع من جسده درعاً يحمي به رسول الله ﷺ حتى يصل إلى أحبابه المنتظرين في حرة المدينة، وبين نخيلها، فلا عجب أبداً بعد هذا أن يحمر وجه عمر بن الخطاب غضباً على رجـــال فضلوه على أبي بكر.. لقد كان يعرف من هو أبو بكر، فقد (ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر، فقال رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشـــي ســـاعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رســـول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشـــي ســـاعة خلفي، وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب[4] فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد[5] فأمشي بين يديك. فقال رســـول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شـــيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال رضي الله عنه: نعم. والذي بعثك بالحق.

فلمـــا انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رســـول الله حتى اســـتبرئ، فدخل فاســـتبرأ ثم قال: انزل يا رســـول الله. فنزل ثم قال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر)[6].

---

(١) حديث حســـن بالشـــواهد: رواه البغوي (ســـيرة ابن كثير ٢/٢٣٧) وابن هشام، حدثنا داود الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة. داود الضبي ثقة التقريب ١٩٩ ونافع ثقة ثبت التقريب ، وابن أبي مليكة تابعي ثقة أدرك ثلاثين صحابياً واســـمه عبد الله بن عبيد الله، إذاً فالنص مرســـل، لكن يشهد له حديث عمر، وســـند آخر جاء عن عمر. في دلائل البيهقي (٢/٤٧٧) وســـنده مرســـل عن الحسن رواه ابن هشام فالحديث حسن.

(٢) أي قف مكانك.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

(٤) من يسيرون خلفه طلباً لدمه.

(٥) أي من يترصدون له في طريقه.

(٦) إسناده صحيح لولا الانقطاع، رواه البيهقي (٢/٤٧٦) أخبرنا موسى بن الحسن بن عباد، حدثنا عفان بن مســـلم حدثنا الســـري بن يحيى، حدثنا محمد بن ســـيرين. وهؤلاء ثقات لكن الإمام ابن سيرين لم يدرك عمر، افلحديث حسن بما قبله، وبأحاديث ستأتي إن شاء الله.

ذاك جسـد لأبي بكر باعه لله، وتلك دماء تشـخب منه تنقش على جدران الغار حب الله وحب رسوله ﷺ: (لقد كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر، فقال:

إن أنـت إلا إصبـع دميـت ... وفـي سـبيل الله مـا لقيـت)[1]

ذاك جسد أبي بكر، أما مال أبي بكر.. كل ماله، فمنثور بين يدي رسول الله ﷺ فـي الغار.. حمله كله، وقدمه لرسـول الله ﷺ كله، حتى صـار بيت أبي بكر في مكة خالياً إلا من الإيمان، وفتيات رباهن الإسلام وأبو بكر.

هذه إحداهن.. الشابة المجاهدة العظيمة، التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم عادت لتواصل جهادها.. لم يمنعها ثقل حملها بابنها البكر من المساهمة في أعظم رحلة غيرت وجه الأرض والعالم.. ذات النطاقين أسـماء بنت أبي بكر تقول: (لما خرج رسـول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسـة آلاف درهم أو سـتة آلاف -فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي: أبو قحافة[2]- وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم[3] بماله مع نفسـه. قلت: كلا يـا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة[4] في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليهـا ثوبـاً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هـذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن هذا الشيخ بذلك)[5].

إنهن بنات أبي بكر.. والدهن شـريد طريـد، مختبىء فوق أحد الجبال.. مختبئ بدينـه ونبيـه ﷺ، وهذه هي أحوال الدعاة بين مهاجر بعيد عن الأهل والمال، وأسـير تفتك به أظافر قريش، ومطارد لا يدري ما تطوى له التلال والدروب. أما قريش فـ:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه عباد حدثه عن جدته أسماء. ويحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

(٢) اسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي، مات ابنه أبو بكر قبله وقد أسلم.

(٣) آلمكم وآذاكم، أي أنه لم يترك لكم لا نفسه ولا ماله.

(٤) الكوة: الخرق في الجدار.

(٥) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن جدته أسماء. يحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

قريش غاضبة

تفجرت كالشظايا في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين الجبال والدروب.. تقلب الصخور، وتفتح الأبواب وتهز أغصان الأشجار، وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة.. تتمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال.. تبحث عنك يا رسول الله.. تتمنى لو وقعت في قبضتها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[1].

يقول أحد الصحابة: (تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً - يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)[2].

وعن غضب قريش يحدثنا حفيد أبي بكر فيقول: (إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه، وإما أن يسجنوه، وإما أن يخرجوه، وإما أن يوثقوه، فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[3].

وبلغه ذلك اليوم الذي أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبي بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه، وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قِبَل الغار بثور، وهو الغار الذي ذكره

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) رواه أحمد (١-٣٤٨): حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس: قال ابن كثير: هذا إسناد حسن، وليس كما قال رحمه الله، ففي الإسناد: عثمان الجزري، وحديثه حسن بالشواهد فيحتاج إلى شاهد.. وهذا الشاهد جاء عن الحسن البصري مرسلاً ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٣٩)، أما ذكر الحمامتين اللتين باضتا على فم الغار فلم أعثر له على سند قوي.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

اللــه عــز وجل في القرآن، وعمــد علي بن أبي طالب فرقد على فراشــه، يواري عنه العيون)[1]. وقد وصل المشــركون ورســول الله ﷺ نائم على فراشــه، وكانوا ينتظرون خروجــه، وللتأكــد كانوا يرمونه بالحجارة فلا يتحرك، ثم أمــر ﷺ علياً أن يرقد في فراشــه فكانت هذه القصة التي يرويها ابن عم رســول اللــه ﷺ وابن عم علي رضي الله عنهم حيث يقول: (شــرى عليٌّ نفســه، ولبس ثوب ا لنبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشــركون يرمون رسول الله ﷺ وقد كان رســول الله ﷺ ألبسه بردة، وكانت قريش، تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وســلم فجعلــوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، -فنظروا- فإذا هو علي فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك)[2].

(فســألوه عن النبي ﷺ، فأخبرهم أنه لا علم له بــه، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبــوا في كل وجه يطلبونه، وبعثــوا إلى أهل المياه يأمرونهــم، ويُجعلون لهم الجُعل العظيــم[3]. وأتــوا على ثور الذي فيه الغار، الذي فيه رســول الله ﷺ، وأبو بكر، حتى طلعوا فوقه، وســمع النبي ﷺ أصواتهم، فأشــفق[4] أبو بكر عند ذلك، أقبل على الهم والخــوف، فعنــد ذلك قال لـه النبي ﷺ: «لا تحزن إن اللــه معنا». ودعا، فنزلت عليه ســكينة من الله عز وجل: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

إذاً فقــد حامت الأقدام حــول فم الغار.. لحظات تحبــس الأنفاس وتتقلب فيها القلوب والأبصار، ويهجم الخوف والرعب من شــقوق الغار.. من سيوف الطغاة، ومن العيون التي تتطاير إجراماً وشرراً لكن:

---

(١) إســناد مرســل ويشهد له ماسبق، ويرفعه إلى درجة الحسن. انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢-٤٦٥)، وانظر كذلك مغازي عروة للعلامة الأعظمى (١٢٨).

(٢) ســنده حسن. رواه الحاكم ٣-٤ والطيالســي وأحمد (١١٨/٢٣) عن أبي عوانه عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانة: الوضاح وهو ثقة ثبت التقريب ٢٩٠ وشيخه حسن الحديث فهو صدوق ربمــا أخطــأ وهو تابعي صغير مر معنا ، وابن ميمون فهو ثقة مخضرم مشــهور، وقد مر معنا قبل قليل.

(٣) أي جائزة عظيمة مقابل ذلك.

(٤) أي خاف، ومعروف خوف أبي بكر وأنه على رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً كما مر معنا.

(٥) سورة التوبة. وما بعده وما قبله يقويه لأنه مرسل عروة عند البيهقي ٢-٤٧٨.

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة، ويحدث الجميع بما جرى من حوار هامس بينه وبين حبيبه ﷺ فيقول: (نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)[1].

إذا كان الأمر كذلك، فوالله لو سار مع قريش كل الأحياء، وتشققت المقابر فخرج الأموات.. يسحبون أكفانهم خلف أبي جهل.. يقلبون معه حجارة الأرض، ويجتثون أشجارها، ويزحزحون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما، فكيف تقدر قريش.. هذا أمر لن يحدث أبداً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وانحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث، وتتصبب عرقاً وهزيمة.. تدحرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها، وأعلنت لمن حولها عن هزيمة قاسية تلقتها من محمد ﷺ، وأعلنت عجزها وضعفها، فبدأت بالاستنجاد وطلب العون من أي شخص كان، عله ينجح في القبض على محمد ﷺ فهو:

مطلوب حياً أو ميتاً

وقد فتحت قريش صناديق الحلال والحرام، وعرضت الهدايا والهبات أمام الجميع.. تقدمها لمن يحضر رسول الله حياً، أو يسحبه ميتاً، أو يحمل رأسه ورأس صاحبه إليها.

أحد الذين سمعوا بالجائزة.. أحد الذين فركوا أيديهم طمعاً فيها رجل اسمه: سراقة بن مالك.. يحدثنا فيقول: (جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل واحد منهما، من قتله أو أسره)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٧١٢ ومسلم ٤-١٨٥٤ واللفظ له.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٣) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا. رواه البخاري.

إذاً فقريش قد استنفرت رجالاتها وأموالها، وتوجهت إلى كل العرب ضد رسول الله ﷺ تستحثهم وتغريهم، لكن رسول الله ﷺ كان أذكى من الجميع، وقد أعد خطة محكمة لتذهب ضربات قريش في الهواء.. خطة تجعلها لا تجني من ركضها سوى الغبار والعرق، أما تنفيذ هذه الخطة فقد بدأ حالما انحدرت قريش من جبل ثور، فرسول الله ﷺ لم ينحدر بعدها. لقد قرر أن يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.. هذه الأيام الثلاثة ستكون محمومة بالبحث والتفتيش، وهي كفيلة بالفتِّ من عزيمة الكفار، وتسريب الإحباط إلى نفوسهم. لكن كيف سيعرف رسول الله ﷺ وصاحبه ما يجري؟

كان الجواب شاباً من أبناء أبي بكر الصديق أيضاً.. ملأه الإيمان حباً وحماساً وبذلاً.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر.. يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم.. يكلمهم.. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم، ثم يحملها إذا جن المساء، فيصعد بها الجبل. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها وخرائطها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه، وقبيل طلوع الشمس عند الفجر، وبعد أن يؤدي الصلاة مع رسول الله ﷺ ينحدر إلى مكة ثانية، ليقوم بمهمته من جديد. وعبد الله لم يكلف في هذه المرحلة إلا بمهمة واحدة.. هي حمل الأخبار فقط، حتى لا يثير شك من يصادفه في طريقه.

أما الطعام، فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضاً.. إنه أحد رعاة الغنم، واسمه: عامر بن فهيرة.. كان يسوق غنماته ويسيح معها في نزهة خارج مكة، وهذا أمر طبيعي لا يلفت الانتباه أبداً، فهو راعي غنم ومهمته تقتضي أن يكون خارج المدينة، فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء، ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (فَكَمِنا[١] فيه ثلاث ليال، ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب، ثقف[٢]، لقن[٣]- فيدلج[٤] من عندهما بسحر[٥]، فيصبح مع قريش بمكة كبائت[٦]، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك

---

(١) اختفيا في الغار.
(٢)حاذقاً: خفيفاً.
(٣) ذكي.
(٤) الإدلاج: هو السير أول الليل، والمراد هنا إنه يسير من عندهما وقت السحر.
(٥) السحر: هو قبيل الصبح.
(٦) أي كأنه نائم في مكة.

حين يختلط الظلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر- منحة[1] من غنم، فيريحها[2] عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما[3]- حتى ينعق[4] عامر بن فهيرة بغلس[5]، يفعل ذلك في كل ليلة من الليالي الثلاث)[6].

إذاً هناك بطلان: أحدهما يكشف تفكير العدو، والآخر يحمل الطعام. لكن هل سيدوم الحال على هذا الوضع؟ لقد اشترى أبو بكر راحلتين فأين هما؟ أعند عبد الله، أم بين أغنام عامر بن فهيرة؟ وكيف سيحصلان عليهما وعيون قريش تدور.. تتلصص في كل مكان؟

لم تكن الإجابة صعبة على رسول الله ﷺ، فقد أعد لذلك خطة محكمة.. هذه الخطة تقضي بألا تكون الراحلتان عند عبد الله بن أبي بكر، ولا عند عامر بن فهيرة، فلو كانتا عند أحدهما لارتبات قريش وزرعت شكها عيناً تلاحقهما حتى تظفر بما تريد، ورسول الله ﷺ يدرك ذلك كله، ويدرك ما هو أبعد من ذلك، لذلك استخدم كل الوسائل المباحة المتاحة في أرجاء الكون الفسيح له، فاسند لهذه المهمة رجلاً مشركاً، لكنه كان أميناً، واعده ﷺ الليلة الثالثة كي يحضر الراحلتين، وكان هذا الرجل من أعلم الناس بطبيعة الطريق ومسالكه.. يعرف كيف يتسلل بهما بعيداً عن حوافر الشرك ورماحه.

تقول عائشة: (واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل - وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خريتاً. والخريت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاصي بن وائل السهمي - وهو على دين كفار قريش- فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، بعد ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل)[7].

---

(١) عطية.

(٢) المراح: هو ما تأوى إليه الإبل والغنم بالليل.

(٣) اللبن الذي رضفت فيه الحجارة المحماة بالنار لينعقد ويثخن وتزول رخاوته.

(٤) النعق: صوت الراعي بغنمه.

(٥) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٧) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

على دروب السواحل

على دروب السـواحل.. الفجر سـار يناضل، والليل صار مخيفـاً، والخوف كان الرواحـل. فهذه الرحلة يحدد نجاحها قيام دولة للإسـلام في يثرب، أو موت حلم ثم البـدء من جديد، والبحث من جديد. يقـول الصديق رضي الله عنه: (أدلجنا من مكة ليلاً، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا[1]، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا صخرة، فانتهيت إليها، فإذا بقية ظل لها، فسـويته، ثم فرشت لرسـول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسـول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض[2] ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا براعي غنم يسـوق غنمه إلى الصخرة، يريد منهـا الـذي نريد - يعني الظل- فسـألته، فقلت: لمن أنت يا غـلام؟ فقال: لرجل من قريش فسـماه. فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم.

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفـض كفيه - فقال هكذا، فضرب إحدى كفيـه على الأخرى - فحلب لي كثبة[3] من لبن، وقد رويت معي لرسـول الله ﷺ أداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته وقد استيقظ فقلت: أتشرب يا رسول الله؟ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سـراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. قال: لا تحزن إن الله معنا. فلمـا أن دنا منا، وكان بيننا وبينـه قيد رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسـول الله - وبكيت. فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسـي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك.

فدعا عليه رسول الله ﷺ: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها.

---

(١) وقت الظهر.

(٢) أتحسس وأحرس وأراقب المكان.

(٣) قليل.

فوثب عنها. ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا.. وكذا..، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ)[1].

مَن سراقة هذا، وما الذي أتى به خلف رسول الله ﷺ؟ وكيف عرف أنهم يسلكون طريق السواحل؟

سراقة يتحدث

ويقص كيف علم بمسلك رسول الله ﷺ، بعدما أخبره رجل لمحهم يسيرون بقرب الساحل، وكان ذلك الحديث في مرابع بني مدلج (قوم سراقة) فيقول: (جاء رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر «دية» كل واحد منهما: من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي - بني مدلج - أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه)[2].

سراقة يبحث عن الدماء والدية

فحالما سمع حديث الرجل تهادت في مخيلته (مائة من الإبل)[3] تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ ودم صاحبه.. تخيل سراقة تلك الإبل المائة، وهي تسيل بين الأودية نحوه ليضمها ويلحقها بما يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة في طريق المدينة. لذلك حاول إخراس ذلك المتكلم وتثبيط عزيمة السامعين من قومه حتى لا يلحقوا بالمهاجرين فيخسر الإبل الجائزة. لقد قال سراقة لذلك الرجل: (إنهم ليسوا بهم، ولكن رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم)[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٢-٤٨٣) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي رأيت أشخاصاً قرب الساحل.

(٣) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي (٢/٤٨٧).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أي ذهبوا يبحثون عن شيء ضاع لنا.

ويواصل سراقة حديثه فيقول: (ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[1]، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه[2] الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام[3]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات. ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان[4] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[5]، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ)[6] بعد أن أعطى الأمان لذلك الباحث الذي يريد قتله وحز رأسه. معجزة مخيفة ورادعة ما حدث لسراقة، كان يظن نفسه قادرا على بث الرعب في نفسيهما، فعاد يطلب منهما الأمان.

إذاً فرسول الله ﷺ في حصن حصين، ولن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول لسراقة: أخف عنا. لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشد من الخوارق، والجنود التي لا يعلمها إلا الله؟

---

(١) الأكمة: هي التل.

(٢) الزج: هو الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٣) جمع الزلم، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً دخل يده فيه وأخرج سهماً، (أي زلماً)، فإذا خرج ما فيه الأمر استمر في عمله، وإن خرج العكس رجع عنه.

(٤) هو الدخان أو الغبار.

(٥) أي لم يأخذا منه شيئاً.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

إنه يقولها لأنه رسـول جاء بمنهج من عند الله ملائم للبشـر، وعلى البشر مهمة نشـره هنا وهناك، فبجهدهم ينتشـر، وعلى البشـر أن يركضوا هنا وهناك بحثاً عن الأسـباب الموصلة للنجاح، ورسـول الله ﷺ في هجرته يرسم خطاً لا يمكن أن ينتشر الإسـلام إلا بالسير عليه، ألا وهو فعل الأسباب مع عدم التوكل عليها، بل التوكل على الله وحده.

لقد هاجر ﷺ بعد أن خطط ورسم، وتكتم وتلثم، وسار في الليل والناس نيام، ثم جعل نتائج كل ذلك إلى الله سبحانه، إنه لم يتحدث لأبي بكر قبل الهجرة عن معجزات سـتحصل في الطريق، لأنه فعل الأسـباب كما طلب منه، ثم فوض أمره إلى الله، إن الهجرة تطبيق عملي لقوله ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[1] فإذا أتقنه فقد انتهى دوره، وهذه طاقة البشـر لا يكلفهم الله فوق طاقتهم. فإن قبض عليه المشركون وقبضوا على صاحبه، فقد أديا ما طلب منهما ولا شيء عليهما، وإن أكرمهم اللـه بمعجزة أو خارقة، فذلك فضل من الله. لكن المسـلم يأثم إن لم يتقن عمله أملاً فـي حدوث معجـزة أو كرامة تقلب الأوضاع، وعليه أن ينتظر النكسـة في أية لحظة تطرق بابه. لقد استوعب رسول الله ﷺ وأصحابه المستضعفون هذه الحقيقة، فدعوا وأسروا واختفوا، ولاقوا ما لاقوا في سبيل ربهم، ولما أقفلت قريش أبواب مكة كلها في وجوههم.. تركوها لهم. غادروها وهي أحب البقاع إلى الله وإليهم. لقد وقف ﷺ يوماً (بالحزوراء في سـوق مكة فقال: إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجـت منك ما خرجت وقال: علمت إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)[2].

غادرها ﷺ بعد أن ضاقت به، وغادرها الصحابة نحو مدينة مفتحة الأذرع والأبواب.. للهاربين للخلاص.. للحاملين سـورة الإخلاص. غادروها إلى مدينة عطوف.. يحن فيها كل شـيء.. حتى الجذع يحن إلى رسـول الله ﷺ.. حتى الحجارة فيها بادلت الصحابة عشقاً. ألم يلتفت ﷺ إلى جبل أحد فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] إن الهجرة ترافق

(١) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (٢/١٤٤).

(٢) إسـناده صحيح. رواه البيهقي (٢/٥١٨،١٧) من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سـلمة ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزوراء في سوق مكة وهذا الإسناد صحيح وهو المحفوظ كما قال البيهقي.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. ٤-١٤٩٨.

الشمس كل صباح.. تحيي الغرباء وتقول لهم: إذا أتقنتم أعمالكم تحولت مدن العالم إلى مدائن للحب والأنصار، وشغف الشجر والحجر بكم، كما شغف جبل أحد بأسلافكم.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير، وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام، وشاهدا بينهما الراعي، فطلبا منه السقيا؟

فقال: (ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخرجت، وما بقي لها لبن، فقال ﷺ: «ادع بها». فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب[1] وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك قط؟

قال ﷺ: «أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»)[2].

هذا الراعي المسكين نشأ في الصحراء حتى صار قطعة منها، تهتز ربيعاً وجمالاً عندما يغشاها المطر، وقد اهتز إيماناً عندما رأى المعجزات وحسن الأخلاق تجتاح مشاعره وتفتح عقله، ليفيق من سبات الإشاعات التي نشرتها قريش وأوصلتها إلى مسامعه. هذه الماعز التي لم يكن في ضرعها سوى الجفاف درت حليباً وأنزلت، أما هذا الرجل المطارد المتهم، الذي حلبها فلم يشرب رغم عطشه. لقد أسرت هذا الراعي أخلاق لم يعهدها، يحلب وهو نبي الله، ويسقي منهم دونه، ثم يشرب آخرهم، وهو الذي لو أراد لأدار الله له هذه الأرض ينتقي منها ما يشاء.

أسلم الراعي وآمن، وقرر ترك الصحراء والغنم ما دام بصحبة نبي، لكن خلق النبي ﷺ الكريم، وخوفه على أتباعه من الاضطهاد جعله يريثه إلى أجل لا يعلمه إلا الله، حتى يسمع بقيام دولة الإسلام.

فامتثل الراعي وصبر رغم شوقه ولهفه. امتثل هذا الراعي الذي أظنه:

---

(١) الذي حلب هو رسول الله ﷺ ، ثم سقى الجميع ثم شرب آخرهم.

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي وأبو يعلى، وانظر تخريج الذي بعده فهو هو.

أبو معبد

الـذي صادفه ﷺ في طريـق الهجرة، فإنه (لما انطلق رسـول الله ﷺ وأبو بكر يسـتخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله ما لنا شـاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رسـول الله ﷺ: «فما تلك الشاة؟» فأتى بها. فدعى رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عسـاً[1] فسقاه، ثم شـربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك».

قال: أشـهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك؟ قال رسـول الله ﷺ: «لا». حتى تسمع أنا قد ظهرنا)[2].

وتجاوز رسـول الله ﷺ غنمات أبي معبد، بعد أن ترك أبا معبد ظلاً.. تركه فيئاً يسـتظل به المتعبون.. ربيعاً بعد أن كان حقلاً من الجفاف.. تركه مرشـداً بعد أن كان يخبط في الظلام، وتحرك ﷺ لترحب به بعد مسافة ليست بالقصيرة:

خيمتا أم معبد

(أم معبـد الخزاعية، وكانت برزة جلدة[3] تحتبي[4] بفناء القبة ثم تسـقي وتطعم فسـألوها لحماً وتمراً ليشـتروا منها، فلم يصيبوا عندها شـيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين[5]، مسنتين[6]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[7]، فقال: ما هذا الشاة يا أم معبد؟

قالت: شـاة خلفها الجهد عن الغنم. قال ﷺ: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال ﷺ: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، نعم. إن رأيت بها حلباً

---

(١) العس: هو القدح الكبير.

(٢) سـنده صحيح. رواه البزار كشـف الأسـتار ٢/٣٠١ وغيره عن عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس. عبيد الله صدوق ووالده ثقة التقريب ٣٦٩ و١١٦ وقيس صحابي.

(٣) هي التي لا تحتجب كالشابات رغم عفافها، ومعنى جلدة أي قوية أو جزلة.

(٤) الاحتباء: هو الجلوس مع ضم الفخذين إلى البطن بواسطة الذراعين.

(٥) أي نفذ ما عندهم كأنهم لصقوا بالرمل.

(٦) أصابتهم سنة أي القحط.

(٧) أي جانب الخيمة.

فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها بيده، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شـــأنها، فتفاجت[١] عليه ودرت واجترت، فدعا بإناء يربض الرهط[٢]، فحلب فيها ثجاً[٣]، حتى علاه البهاء[٤]، ثم ســـقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا[٥]، ثم حلب ثانياً بعد حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها، ثم ارتحلوا عنها)[٦].

عودة أبي معبد

بعد رحيل هؤلاء الأطهار (ما لبثت إذ جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً[٧]، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين هذا والشاة عـــازب حائـــل[٨].. ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا واللـــه إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله: كذا.. و كذا. فقال: صفيه لي يا أم معبد.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة.. أبلج[٩] الوجه، حســـن الخلق لم تعبه ثجلة[١٠]، ولم تزر به صعلة[١١]، وسيم قسيم، في عينه دعج[١٢]، وفي أشفاره عطف[١٣]، وفي صوته صهل[١٤]، وفي عنقه سطع[١٥]، وفي لحيته كثاثة[١٦]، أزج أقرن[١٧]. إن صمت فعليه الوقار

---

(١) أي فرجت ما بين رجليها للحلب.
(٢) يربض: أي يروي.
(٣) ثجاً: أي لبناً سائلاً كثيراً.
(٤) هو بريق رغوة الحليب.
(٥) أي شربوا عللاً بعد نهل أي الشرب الثاني.
(٦) انظر تخريجه في نهاية الخبر.
(٧) هزيلة.
(٨) أي لم تحمل.
(٩) مشرق الوجه مسفر.
(١٠) ضخامة البطن واسترخاؤه.
(١١) النحافة.
(١٢) اشتد سوادها وبياضها.
(١٣) الأشفار: طرف جفن العين التي ينبت منها الشعر، أي إنها طويلة حتى انعطفت.
(١٤) وقيل: صحل أي أنه حاد الصوت.
(١٥) سطع: أي طال عنقه.
(١٦) اجتماع وكثرة.
(١٧) أي لا قليل ولا كثير.

وإن تكلم سـماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه من قريب، حلو المنطق.. فصل لا نـذر ولا هذر، كأنه منطقه خرزات نظم تحـدرن، ربعة[1].. لا بائن مـن طول، ولا تقتحمه عين من قصر[2]، غصن بين غصنـين، هو أنظر الثلاثة منظراً وأحسـنهم قدراً، له رفقاء يحفون به.. إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود[3]، ولا عابس ولا معتد.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره. ما ذكر بمكة «ولقد هممت بأن أصحبه» ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يدرون من صاحبه:

جزى اللـه رب البيـت خير جزائه ... رفيقـين قـالا خيمتـي أم معبـد

همـا نزلاهـا بالهـدى واهتدت به ... فقد فـاز من أمسـى رفيق محمد

فيـال قصـي مـا زوى اللـه عنهم ... بـه مـن فعـال لا تجازى وسـؤدد

ليهـن بنـي كعـب مقـام فتاتهـم ... ومقعدهـا للمؤمنـين بمرصـد

سـلوا أختكم عـن شـائها وإنائها ... فإنكـم إن تسـألوا الشـاة تشـهد

دعاهـا بشـاة حائـل فتحلبـت ... عليـه صريحـاً صرة الشـاة مزبد

فغادرهـا رهنـاً لديهـا لحالـب ... يرددهـا فـي مصـدر ثـم مـورد

وأصبح صوت بالمدينة بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون من يقوله)[4].

---

(١) وسيط القامة.

(٢) أي لا تتجاوزه العين إلى غيره احتقاراً.

(٣) مطاع في قومه يسرعون لخدمته.

(٤) رواه أبو نعيم في الدلائل - واللفظ له - (١-٣٣٧) والحاكم (٣-٩) والطبراني (مجمع الزوائد ٥٨/٦) وابن سعد (١/٢٣٠). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو يعتبره صحيحاً لأسباب هي قوله: إن نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد، وإن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً=

سمع شاعر الحياة الجديدة حسان بن ثابت تلك الأبيات وهو في يثرب، فهاجت شاعريته، وأطلق الشعر يخطف ما لدى كفار قريش من فضائل ويحملها أنواراً نحو مدينة الإسلام الجديدة:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليه ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... فأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم هاديه كل مهتدي
وقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وبعد أن ودع ﷺ أم معبد أحث السير، وربما صادفه في مسيره آخرون، فكان يواجه كل شخص بأسلوب مناسب، فإن كان المار ممن يخشى منه تسرب الأخبار.. تكفل أبو بكر بالإجابة. ولذلك يقول أحد الصحابة: (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني

= بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها أنه له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها إن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي رويناه بسياقه: الحديث عن الكعبين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة، وقد علونا في حديث الحر بن الصباح هذا ما قاله الحاكم رحمه الله. لكن هناك ملاحظات على قوله رحمه الله منها: أن الحديث حسن لكن ليس بهذا النص لشدة ضعف طرقه... خاصة حديث الحر بن الصباح ففي سنده متهم. ومنها: أن الشعر المذكور وأن قائله من الجن ضعيف ويحتاج إلى طرق أخرى تقويه. لكن القصة إجمالا قوية برواية البيهقي والبزار اللتين ذكرهما ابن كثير في السيرة (٢/٢٥٨) وهي رواية مختصرة.

سـبيل الخير)[1] الذي يصل الدنيا بالآخرة، ويحطم الأبواب بينهما، فتشع أنوار الجنة في قلوب المؤمنين ودروبهم.. أينما حلوا أو ارتحلوا.

محطات

مر ﷺ ورفقته بمحطات عديدة تذكرها عائشـة جيـداً فتقول رضي الله عنها وهـي تتحدث عن زوجها وأبيهـا بعد أيام الغار: (هدأت عنهمـا الأصوات، وأتاهما أن قد سـكت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيرهما، فانطلقا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه على رحله، ليس معهما إلا عامر بن فهيرة وأخو بني عدي يهديهما الطريق:

فأجاز بهما «في أسـفل مكة»، ثم مضى بهما حتى «حاذى بهما السـاحل أسـفل من عسـفان» ثم اسـتجاز بهما حتى عـارض الطريق بعدما جاوز «قديداً» ثم سـلك «الخـرار»، ثم أجاز على «ثنية المرة» ثم أخذ علـى طريق يقال لها «المدلجة بين طريق عمـق وطريق الروحاء» ثم توافوا طريق «العرج» وسـلك ماء يقال له «الغابر عن يمين ركوبة» حتى يطلع على بطن «رئم» ثم جاء حتى قدم المدينة على «بني عمرو بن عوف» قبل القائلة)[2].

إذاً فنهايـة تلك المحطات هـي محطة بن عمرو بن عوف، لكن لماذا لم يذهب ﷺ إلى يثرب مباشرة.. لماذا مال إلى بلدة بني عمرو بن عوف المشهورة بـ (قباء). ما شعور الأنصار وهم ينتظرونه على مشـارف يثرب، فتأتيهم الأخبار أن نبيهم في قباء الآن.. أسئلة ملحة والإجابة عند نبي الله ﷺ الذي ودع مكة ولكن.

النبي ﷺ يودع مكة

وَدَّع حبيبتـه وهي لا ترد، ولو أجابت لأبكت من حولها.. ودع حبيبته.. تركها وهو كاره.. حالت الجاهلية بينه وبينها.. لم يستطع البقاء بين أبياتها وجدرانها، فحملها في

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. رواه البخاري (٣٩١١).

(٢) سنده صحيح رواه ابن جرير ٢-٣٧٥: حدثنا علي بن نصر وحدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قالا: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبان بن العطار، حدثنا هشـام بن عروة عن عروة عن عائشـة، وعلي وعبد الوارث ثقتان. وعبد الصمد صدوق ٣٥٦ وأبان ثقة ٨٧ وبقية السـند معروف وقد توبع هشـام ومن بعده عند الحاكم (٢-٨).

قلبه وارتحل، وتمر أيام وأعوام، ويكبر ذلك الحب، ويزداد به الشـــوق، فيقسم بالله لها أنه ما زال يحبها: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخْرِجتُ منك ما خرجت)[1]. (ما أطيبك من بلدٍ وأحبَّكِ إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2].

لم يستبدل ﷺ حباً بحب، بل أضاف حباً إلى حب.. وهو في طريقه الآن إلى يثرب.. يثرب!! لا، إنها ليست يثرب، فلا يثرب بعد اليوم.. لقد وهبها قلبه، ووهبها اسماً جديداً.

اسم جديد

فما ذلك الاسم؟ يقول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب! وهي «المدينة» تنفي الناس[3] كما ينفي الكير خبث الحديد»[4].

إذاً فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة).. المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق، أما أهلها، فعلى طريق مكة يترددون.. ينتظرون (يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)[5].. فرحوا بأصحابه واستقبلوهم، وفتحوا لهم بيوتهم وصدورهم و(لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا[6] قدومه، كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه، حتى تغلبهم الشـــمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا، وذلك في أيام حارَّة)[7].

هـــذه هي المدينة المشـــتاقة وهؤلاء هم أهلها، أما رســـول الله ﷺ، فقبل وصوله، وفي مســـيره ذلك يلتقي بشابٍ يحبه.. يلتقي بشاب من أبطال الإسلام، إنه زوج (ذات النطاقين) زوج أســـماء بنت أبي بكر الصديق واسمه: الزبير بن العوام، فهل كان قادماً

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد ٣-٣٠٥ وغيره من طرق عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه. أبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وغيره. صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٢/٩٧١).

(٣) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم ٢-١٠٠٦ والبيهقي (٢-٥١٩).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٦) أي توقعوه وسألوا عنه.

(٧) سنده قوي رواه ابن إسحاق (تاريخ الطبري ١-٥٧١) حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ســاعدة عن رجال من الصحابة. ومحمد ثقة ٤٧١ وعبد الرحمن ولد على عهد النبي ﷺ وروايته عن الصحابة ويشهد له ما قبله.

من المدينة؟.. لا. لقد كان في الشام.. سافر مع قافلة من قوافل الصيف ثم عاد، وفي طريق عودته (لقي رسول الله ﷺ في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً بالشام قافلين إلى مكة، فعارضوا رسول الله ﷺ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً)[1]. قبل ﷺ الهدية من ابن عمته الزبير، ولبس وصاحبه الثياب، وأقبلا على المدينة.. يختلط بياض ثيابهم ببياض السراب، لكن بعد أن أحرقت الشمس المنتظرين، فعادوا بعد انتظار طويل لبيوتهم.

أقبل رسول الله ﷺ وأبو بكر، فلم يرهما أحد من الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين، ولا حتى من المشركين عابدي الأوثان، لكن يهودياً رآهما.. كان فوق حصن قومه، واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حاراتٍ مغلقةٍ عليهم، وما زال جزء منهم كذلك إلى أيامنا هذه. ربما كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأن بقية البشر لا يستحقون شرف الاتصال بهم. سندع اليهود وما يعتقدون لنتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى وماذا فعل؟ وماذا جرى للأنصار بعد ذلك؟ وهل دخل ﷺ المدينة أم تريث أم..؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشرة.. هل خاف من يهود؟ هل كان خائفاً من شيء؟ لا، لكنه مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء) ونزل على أناسٍ من الأنصار يقال لهم (بنو عمرو بن عوف) وهذه هي القصة:

(سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أُطم[2] من آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[3] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب.. هذا جدكم[4] الذي تنتظرون.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(١) الأطم: هو الحصن.

(٢) أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير.

(٣) أي حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/ ٣٨٤).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار – ممن لم ير رسول الله ﷺ – يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[1]. أما الأنصار، فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ.. تقله تظله، وتتوهج من حوله، أما قباء ف:

كيف كانت قباء

كانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه.. تفخر به على من حولها حتى انتشر الخبر وشاع فوصل إلى يهودي آخر فلم يصبر، لقد أطلق قدميه للريح والفزع.. يتجه بهما نحو ابن عم له كان يجلس بين نخلٍ له فقال: (يا فلان، قاتل الله بني قيلة[2]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي)[3].

لا أعرف ما حدث لليهودي، لكنني أعلم ما حدث لأحد عبيده.. كان عبده الكادح الحزين فوقه.. فوق نخلةٍ في رأس عذق يعمل.. يتصبب منه العرق والفزع.. سمع الخبر فأخذته رعدةٌ هزته وهزته حتى كاد يسقط من على العذق، لكنه تماسك حتى انحدر منها، وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر فقال له: (ماذا تقول.. ماذا تقول..؟)[4] صمت اليهودي الذي حمل الخبر ولم يجبه. لكن سيده أجابه عن هذا السؤال إجابةً يهوديةً.. أجابهُ لكمةً شديدة ثم قال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)[5]. تجرع العبد المسكين الآلام والقهر، وأخرج من صدره اعتذار المساكين وقال: (لا شيء، إنما أردت أن أستنبئه عما قال)[6].

وعندما خيم الليل على مرابع بني عمرو بن عوف وقباء.. كان شبح ذلك العبد المسكين يتسلل كالظلام في الظلام، وبين طرقاتها المظلمة متخفياً خائفاً.. يتسلل حتى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).
(٢) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.
(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٤) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٥) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٦) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

ظفر بمجلس رسـول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره. كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره، وتوشك أن ترتحل أو يرتحل.

دخـل هذا الكادح على رسـول الله ﷺ ثم قال: (إنه قـد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شـيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسـول الله ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسـك[١] يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة)[٢].

ثم انصرف ذلك الرجل الغريب بعد أن حصل على واحدة! عاد من حيث أتى.. عاد إلى سيده اليهودي. ترى هل أرسله سيده، أم أنه ذهب من تلقاء نفسه؟ وما معنى قوله: هذه واحدة؟ ولماذا انصرف بهذه السـرعة؟ لغز محير هذا المسكين القادم من العبودية والمجهول، ولعل الأيام تكشف لنا مزيداً من أسراره.

ذهب المسكين، وذهب الليل وراءه، ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشـرة ليلة، وأسس المسـجد، وصلى فيه رسول الله ﷺ)[٣] وصلى فيه أصحابه، وبشـر كل من يأتي إلى هذا المسـجد ببشـرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)[٤].

وبقي ﷺ أربع عشرة ليلة في قباء بين قلوب أهلها الفسيحة، ولما تحرك قلبه نحو المدينة.. بعث رسـولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدومه، فجاءوا متزينين بالفرح والسلاح.

يقول أحد الأنصار: (لما قدم رسـول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم: «بنو عمرو بن عوف» فأقام فيهم «أربع عشـرة ليلة» ثم أرسـل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)[٥].

---

(١) أي كف يده ولم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.

(٢) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.

(٣) حديث حسن عدا المحذوف رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٤) حديث صحيح رواه ابن ماجة ١-٤٥٣ من طريقين قويين عن أسيد وسهل.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

ويقول رديفه على الناقة أبو بكر رضي الله عنه: (ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار، أخوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رسول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)[1] كانت أمسيةً صاخبةً بالهتاف للأضياف.. أمسية صاخبة فشمس محمد تجوب شوارع المدينة.. المدينة تعانق هذا النور المنساب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال... وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ. أشرقت الشمس بعد أن نهض الجميع للصلاة.. أشرقت الشمس والأطفال بوجه محمد ﷺ حيث كان يتحرك نحو المكان الذي أمر به.. كان صباحاً منعشاً وجميلاً، وكان موكبه ﷺ يتهادى بين القلوب والبيوت...

الأطفال يركضون.. يقفزون.. يهتفون، وتلك العيون البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة.. كان الأطفال لوحة من مطر وبراءة.

أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال.. يصف فرحته وشغفه وركضه معهم فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد..

وأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد..

فأسعى.. ولا أرى شيئاً.

حتى جاء النبي ﷺ وصاحبه، فكمنا في بعض جدر المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالوا: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق[2] لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٢/٥٠٦).

(٢) أي الفتيات المراهقات.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٢٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. هاشم يلقب بـ قيصر وهو ثقة التهذيب ١١-١٨ وسليمان ثقة، وثابت البناني تابعي ثقة. والحديث صححه الذهبي في سيرته ٣٣٣.

ويقول: (شـــهدت يوم دخل النبي ﷺ، فلم أرَ يوماً أحســـن ولا أضوأ منه)[1]، وعبر أنس عن ذلك اليوم بحروف تنبض بالمشاعر فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء)[2].

مشاعر.. مشاعر

المدينة في تلك اللحظات كانت تتبختر بالمشـــاعر.. تتزين بالإسلام.. كانت مدينة منورة بلقاء الحبيب الذي طال الشـــوق إليه. أحقاً رســـول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شـــوارعها وتصافحه قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مســـلم أن يعيشها، وأن يسكب في حضرتها شيئاً من الدموع.

لقـــد كان الموكب يتحرك ببـــطء، فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع، وابتســـامات الأطفال والتفاتاتهم البريئة الســـعيدة. أبو بكر كان أســـعد الناس وأحظى الناس بعد رســـول الله ﷺ بهذا الحب والاحتفال.. يحدثنا فيقول: (ومضى رســـول الله ﷺ وأنا معه حتـــى قدمنا المدينة، وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأناجير[3]، واشـــتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمد)[4].

(جاء رسول الله.. جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد)[5].. أحد أطفال الأنصار المبتهجين يتحدث، واسمه البراء بن عازب يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به، حتى رأيت الولائد[6] والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله)[7].

وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشـــي عن فرحهم بمحمد ﷺ بأســـلوبهم المميز. أنس بن مالك ذلك الطفل السعيد.. طاف المدينة، وطاف حول الموكب، وشاهد

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وأحمد ٣-٢٤٠ من طريق حماد عن ثابت عن أنس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجة (١-٢٧٣) للإمام الألباني.

(٣) السطوح.

(٤) حديث صحيح. متفق عليه ورواه أحمد ١-٢واللفظ له.

(٥) جزء من رواية البخاري ومسلم.

(٦) أي البنات.

(٧) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٨٦.

فرح أهلها، ووصف فرح الصحابة من أهل الحبشة فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الحبشـــة بحرابهم فرحاً بقدومه)[1] ولم يكن الرقص هو الأسلوب الوحيد في التعبير.. كان هناك الغناء بمحمد ﷺ، وبجوار محمد.

الغنـــاء والدفـــوف والمشـــاعر شـــاهدها ﷺ فماذا فعـــل؟ وماذا قـــال ﷺ لتلك الفتيات؟

أنـــس بن مالك أيضاً يحدثنا عن ذلك فيقول: (مر رســـول الله ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف «ويتغنين ويقلن»:

نحـــن جـــوار مـــن بنـــي النجـــار   يـــا حبـــذا محمـــد مـــن جـــار

فقـــال النبي ﷺ: «الله يعلـــم أن قلبي يحبكن»)[2] يا لهذا النبـــي ما أعظمه، وما أبسطه وأرق مشاعره التي يعلنها للصغير وللكبير.. في البيوت وعلى الطرقات، بل إنه يعلن حبه حتى على الجبال القاســـية من حولـــه.. يمر ﷺ من عند جبل أُحد بالمدينة فيقـــول: (هذا جبل يحبنا ونحبـــه)[3] نبي الله يحب المدينة وأهلهـــا، والمدينة وأهلها.. أشجارها وجبالها يحبون الله ورسوله.. الكرم يسيل، و الدماء تسيل فرحاً به ﷺ، هذا أحدهم يقول: (لما قدم ﷺ المدينة نحرتُ جزوراً)[4].

---

(١) صحح إســـناده الإمام الألباني في صحيح أبـــي داود ٣-٩٣٠) ورواه أحمد ٣-١٦١ من طريق عبد الرزاق أخبرنـــا معمر عن ثابت عن أنس. ورجاله ثقات لكن فيه ضعفاً لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابـــن معين: إذا حدثك معمر عن العراقيـــين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس. وقال مرة: حديث معمر عن ثابت وعاصم وهشـــام وهـــذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشـــيخ ناصر طريق أخرى فهو ضعيف.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وابن ماجة (الصحيح ١-٣٢٠) واللفظ للبيهقي عدا ما بين المعقوفتين فلابن ماجة... وســـنده: عيســـى بن يونس، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة عن أنس.. وعيســـى ثقة. انظر التقريب ٤٤١ وعوف بن أبي جميلة ثقة أيضاً. التقريب ٤٣٣ وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٣) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٤) ســـنده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٩١) حدثنا وكيع، حدثنا شـــعبة عن محارب ابن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

ويواصل موكب الحب مسيره في شوارع المدينة وسط مهرجان من السعادة.. زحامٌ من البهجة يحيط برسول الله ﷺ.. اشتد الزحام (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد.. يا رسول الله، يا محمد.. يا رسول الله)[1].

في المدينة كانت القلوب بيوتاً، وكانت البيوت قلوباً.. كانت الأيدي تمتد إلى الزمام، والعيون البراقة تحتضنه وتعانقه.. تحاول الارتواء منه، فتزداد عطشاً ولهفةً، وتواصل الركض والنداء حتى..

توقفت الناقة

(فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟»

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري.. وهذا بابي.

فقال ﷺ: «اذهب فهيئ لنا مقيلاً».

فذهب فهيأ لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلاً.. قوما على بركة الله فقيلا)[2]. وحل ﷺ في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثمن الشرف الذي حل بين جدران منزله.. المدينة كلها إلا عيوناً كانت تتأمل من بعيد.. وقفت كما وقف عمر بن الخطاب وهو يرقب مشهد النازحين إلى أنهار الحبشة، لكن هذه العيون المتلصصة لم تكن حزينة كحزن عمر، ولا نادمة كندم عمر.. إنها منغمسة في دبق الأحقاد الأسود.. من بين هذه القلوب قلب رجل اسمه:

عبد الله بن أُبي بن سلول

من عبد الله هذا.. وما قصته..؟

كان بين الأوس والخزرج حروب مريرة، وثارات أوشكت على إفنائهم، وكان بين تلك الحروب فترات من التعب، والهدنة والفتور.. تنطمر معها جمرة الحرب تحت رماد

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ للبيهقي (٢/٥٢٨).

من التعقل أحياناً، والملل أحياناً، أو التحفز للانقضاض أحياناً أخرى. وكانت السنوات التي بايعوا فيها الرســول ﷺ سنوات من الركود.. كانت المدينة فيها ترقد على بركان هادئ من الثارات والدماء، وفي تلك السنوات تصالح الطرفان مبدئياً على تتويج رجل اســمه عبد الله بن أبي بن ســلول، ليكون زعيماً ليثرب، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فرغم الاحتفاء بالهدنة وحقن الدماء، إلا أن المدينة كانت لا تتنفس ابن أبي ســلول في هوائها، فهو مجرد هدنة هشةٍ، لا أكثر. وقد سئموا الهدن الهشة.

لقد كانت أجواء المدينة مشبعة بالقادم.. مرطبة بالانتظار.. المدينة وَثَنِيُّوها ويهودها يشــعرون بغدٍ هابط لا يحمل على جناحه رجلاً مؤقتاً كابن ســلول، أما اليهود فكانوا ينتظرون نبياً يفنون به العرب والوثنيين، ويخلصهم من هذا الشــتات المخيف. تأثر بهم بعــض الوثنيين من أهل المدينة فكانوا ينتظرونه، ويريدون أن يســبقوا اليهود إليه حتى ولو اضطروا إلى مزاحمة اليهود في حصونهم، وكان من هؤلاء المنتظرين ثلاثة من بني هذل هم:

أسد وأسيد وثعلبة

ثلاثة من الشــباب ليسوا من اليهود، انصهروا مع اليهود ليفوزوا معهم بهذا النبي القادم كالصباح، ويحدثنا عنهم رجلٌ من يهود بني قريظة.. رجل عاش مع أسد وأسيد وثعلبة في حصون قريظة.. يحدثنا ويحدث رجلاً جالساً بقربه اسمه عاصم فيقول له: (هل تدري ما كان علامة إسلام ثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد - نفرٌ من بني هذل ليســوا من بني قريظة ولا بني النضير؟ (كانوا فوق ذاك) نسبهم من بني (هذل) أتوا بني قريظة، كانوا معهم في الجاهلية ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال عاصم: قلت: لا.

قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام يقال له: (ابن الهيبان)، قدم علينا قبل الإسلام بـ (ســنتين) فحل بــين أظهرنا، والله مارأينا رجلاً قــط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له: يا ابن الهيبان قم فاستســق لنا، فيقول: لا واللــه حتى تقدموا بين يــدي مخرجكم صدقة. فيقولون: كم؟ فيقول: صاعاً تمراً، (أو مدين من شــعير) عن كل إنســان. فنخرجها، فيخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي

لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه حتى يمر السحاب السراح سائلة، ونسقى به، ففعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، ثم حضرته الوفاة، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قلنا: الله أعلم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحدٌ)[1].

لكن الأنصار سبقوا اليهود فأسلموا، ودعوا رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستقبلوه استقبالاً كالحلم، فانهارت أحلام عبد الله بن سلول بالزعامة، بعد أن أدرك أهل المدينة أن وحدتهم لن تدوم بزعامته، ولن تمتد تلك الزعامة في الأعماق والزمان إلا برسالة يخلع الجميع كل ما عليهم ليلبسوها، فتنحوا عنه، وامتدت الأيدي والقلوب إلى الله ورسوله. وكأني بابن سلول يتمنى لو لم يطل به العمر ليرى هذا الاحتفال الجميل، وموقف ابن سلول هذا موقف قاصر، فقد كان بإمكانه أن يصبح زعيماً وعظيماً وخالداً لو صافح رسول الله ﷺ، لكنه أبى وتولى. هذا هو ابن سلول فهل هناك من يشاركه هذا الشعور؟.

أجل.. هناك اليهود الذين تركوا أرض الخمر والخمير من أجله، فهم ينتظرونه منذ سنوات وسنوات، لكن ما الذي حدث؟ كيف ينتظرونه، فإذا رأوه وتحققوا أنه هو رفضوه وعادوه؟

طفلة بريئة لم تلوثها أحقاد اليهود اسمها (صفية بنت حيي بن أخطب) تحدثنا عن موقفهم وسبب عداوتهم، فوالدها زعيم من زعماء يهود، وعمها أيضاً زعيم، أما هي فكانت أحب أولادهم على الإطلاق.. يهشون للقائها.. يبشون في وجهها ويبتسمون، إلا في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تذكره صفية جيداً فتقول: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحدٌ أحب إليهما مني.. لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رسول الله ﷺ قباء، ونزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي «أبو ياسر بن أخطب» مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/٨١) واللفظ له عدا ما بين المعقوفين. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة وعالم جليل.. التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي من بني قريظة.

كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى[1]، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم. والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟. قال: عداوته والله ما بقيت)[2].

ولكن لماذا هذه العداوة.. لماذا هذا الفتور والإحباط؟

إنها العنصرية، فهذا الرجلان يمثلان خطاً يسلكه معظم اليهود.. اليهود المغضوب عليهم، وقد غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وينكرونه. جاءهم عيسى فأنكروه، بل حاولوا قتله، وها هو محمد ﷺ بين أيديهم.. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يرفضونه، لإن محمداً عربي وليس من أبناء قبيلة (إسرائيل).. إذاً فهو مرفوض، وكما رفض حيي بن أخطب وأخوه الدخول في الإسلام، فقد عاند وكابر يهودي آخر مثلهما.. تنصل من كل وعوده السابقة لليهود ولأهل المدينة، فما هي وعوده السابقة؟ وكيف تنصل منها؟

تلك قصة حضرها طفل آخر مضطجع بفناء أهله، حفظها لنا ثم قصها علينا بعد قدوم رسول الله ﷺ للمدينة.

يوشع يرفض الإسلام

اسم هذا الطفل (سلمة بن سلام بن وقش) وهو يقول: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.. فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل -وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليَّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي[3] - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار.. فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟

---

(١) مشيٌ فيه فتور وضعف.

(٢) في سنده ضعف، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم والبيهقي (٢-٥٣٣) وفي سنده جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمد بن عمرو بن حزم وله رؤية وليس له سماع إلا من الصحابة (التقريب ٢-١٩٥) وحفيده تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (١-٤٠٥ التقريب) وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٢-٥٣٢).

(٣) المتكلم هو سلمة بن سلام.

قال: نعم.. والذي يحلف به، (لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي، وأني أنجو من النار غداً[1])[2].

قالوا: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن. قالوا: متى تراه؟

فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا[3]، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا: ويحك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به (وكان يقال له يوشع)[4].

وطفل آخر اسمه (محمد بن سلمة) يروي حجم الكراهية اليهودية للآخرين، ورفض الحق إن لم يكن مصدره من بني إسرائيل فيقول: (لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له «يوشع» فسمعته - وإني لغلام في إزار يقول: قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً)[5] ولم يقتصر اليهود على ذلك، بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. قاموا بطمس أسمائه المكتوبة في التوراة، لكن بقيت كلمات حتى اليوم لا تنطبق إلا على محمدٍ عليه السلام، مثل هذه العبارة الموجودة الآن في التوراة المحرفة والتي تقول: (وحي يأتي من بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، قابلوا الهارب بخبزه، فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب، وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)[6].

---

(١) أي من شدة نار جهنم أعاذنا الله منها يتمنى أن يوضع في أعظم فرن في الدنيا ثم يطبق عليه ويحرق فيه أهون عليه من دخول نار جهنم.

(٢) ما بين المعقوفين لفظ البيهقي.

(٣) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٧٨) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة: صالح تابعي ثقة التقريب ٢٧١ ويشهد له ما بعده.

(٥) ذكره ابن كثير في سيرته (١-٢٩٣) فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا السند صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٦) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٣).

ظن اليهود أن هذا النبي القادم من أرض العرب الوعرة الشـديدة الوعورة -وهي مكـة -.. ظنوا أنه سـوف يفني أبناء عدنـان، وهم العرب على أيدي بني إسـرائيل، فتهافتوا على جزيرة العرب ليشاركوا في ذلك. ولكنهم صدموا بنقل النبوة من قبيلتهم إلى أحد أبناء قيدار أي عدنان العربي، فحسدوه.

لكن لم يحسدونه؟ السبب موجود في هذه القصة

قصة إبراهيم وأبنائه

كان لإبراهيم ﷺ ولدان.. إسـماعيل، وإسـحاق، وإسـماعيل هو الأكبر، وهما نبيان عليهما الصلاة والسلام. إسماعيل هو جد العرب، وإسحاق هو والد يعقوب جد اليهود، وليعقوب ﷺ اسم آخر هو (إسرائيل).

رزق يعقوب أو إسـرائيل باثني عشـر ولداً.. أحدهم نبي الله يوسـف عليه الصلاة والسـلام، وعندما صار يوسف عليه الصلاة والسلام وزيراً عند عزيز مصر انتقل والده وإخوته إلى هناك، فيوسـف وإخوته هم أبناء إسـرائيل، حيث تزوجزا، وتكاثروا، وتحول أحفادهم إلى اثنتي عشـرة عائلة (قبيلة)، وتزايـدت أعدادهم في مصر، حتى جاء زمن الطاغية فرعون. في تلك الأثناء ولد نبي اسـمه (موسى) وأخوه (هارون) عليهما الصلاة والسلام، وقد بعثه الله نبياً بالتوحيد لإنقاذ بني إسرائيل من الشرك والاضطهاد، ثم تولى القيادة من بعد موته في سيناء تلميذه النبي: يوشع عليه الصلاة والسلام. ثم جاء أنبياء كثيرون من أبناء إسرائيل من بينهم داود، وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام، حتى جاء الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو أيضاً من أبناء إسرائيل.

كل هـؤلاء الأنبياء أرسـلوا لإعادة قومهم إلـى التوحيد، وترك الشـرك والبدع والانحراف، ومع ذلك اسـتمر انحراف أغلب اليهود - بني إسـرائيل- حتى وصل بهم الإجـرام الأمر إلى اغتيال وذبح بعـض الأنبياء، كما حدث لنبي الله زكريا وابنه يحيى الذي هو ابن خالة عيسـى بن مريم عليهم الصلاة والسلام. بل حاولوا اغتيال عيسى، ولمـا رفعه الله تعقبوا أتباعه بالقتل والتشـريد، وكان من أشـرس اليهود الذين فتكوا بأتباع عيسـى ﷺ رجل اسمه «شاءول»[1] هذا الطاغوت أحس بأن الاضطهاد لا يفني

---

(١) واسمه الذي يشتهر به عند النصارى وفي الإنجيل المحرف هو: القديس (بولس أو بول).

الأديان، ولا يفني أتباعها، بل يزيدهم رسـوخاً وثباتاً وتصفية. لذلك بحث هو وأشرار اليهود عن طريقة للقضاء على تعاليم الله لعيسى بن مريم، فاكتشف أن محاربة الدين من الداخل أجدى من محاربته من الخارج، فأظهر لأتباع عيسى بن مريم أنه قد تاب وندم على ما قام به من قتل وتعذيب، وأظهر لهم الرهبنة والتنسك، وبعد أن تأكد من اقتناع من حوله بتوبته، وبعد مرور زمن على ذلك بدأ بتنفيذ مخططه اليهودي الخبيث. فقد ادعى أنه رأى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في البرق بين السحاب، وأنه قد منحه حق النبوة، ثم جاء بالطامة الكبرى بعد مدة، فادعى أن عيسى بن مريم ظهر له مرة أخرى وأخبره بأنه ابن الله. ثم تحول إلى تعاليم عيسى ليفسدها، فنسخ كثيراً منها: كالختان والطلاق وأكل لحم الخنزير، وغير عطلة السبت لتكون يوم الأحد، وأدخل الوثنية إلى تعاليم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام فأفسدها إلى اليوم. لذا فلا يمكن اليوم رؤية مسيحي واحد بقي على تعاليم المسيح حتى البابا نفسه[1].

فإذا كان اليهود قد فعلوا كل هذا وأكثر مع أنبياء من اليهود أنفسهم.. من إخوتهم، فهل يُتوقع أن يستقبلوا محمداً ﷺ بالأحضان والقلوب المبتسمة وهو ليس من أبناء اليهود؟

الإجابة معروفة. فاليهود ينتظرون نبياً منهم ليسحقوا به العرب وسائر الأمم، لا ليهدوا به العرب. فكيف يؤمنون بنبي قد يجعل من هؤلاء العرب سادة الدنيا وقادة العالم. حسدُ بني إسرائيل يقول: لا، وألف لا. لكن عالماً من يهود يقول عكس ذلك.

عبد الله بن سلام لا يقول: لا

رجل من بني إسرائيل.. من اليهود.. عالم، ومثقف كبقية علماء اليهود، لكن صدره أبيض كالثلج.. واسع كالمدى.. متلهف للحقيقة كالضياع كالعطش. عالم اسمه عبد الله بن سلام.. صادق اسمه عبد الله ابن سلام. كان يحدث من حوله فيقول: (لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل[2]) الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ. فجئت في

---

(١) ينفي أحد الكتاب المسيحيين أن يكون البابا يسير على خطى المسيح، فالمسيح متواضع يلبس ثيابا بسيطة ورثة، ويعيش مع الفقراء، بينما يلبس البابا الحرير والذهب ويسكن في قصر فيه أكثر من ثلاثة آلاف غرفة، قد تم تبليطه بأغلى أنواع الرخام، بل كان بعض الباباوات يحمل حملا.

(٢) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال:

يا أيها الناس: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[1].

كلمات قليلة تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر. أي مجتمع سيولد في المدينة! مجتمع تفشو بين أهله التحايا والهدايا والسلام.. مجتمع يمد يديه للمحتاج، ويشق الطرقات بين الأقارب والأرحام، وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه، وتسكن الطيور في الأوكار.. تحلق أرواحٌ مؤمنة إلى ربها تناجي، وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرحيم.

إنه لم يطالب بشيء لنفسه حتى الآن.. إنه يطالب بأن يكون الإنسان بكليته لله، ثم يطالب هذا الإنسان رحمة لأخيه الإنسان.

أيقن ابن سلام أن هذا الرجل ليس بكذاب، ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحب والسلام، لكن أين كان ابن سلام عندما قدم رسول الله ﷺ؟

أنس بن مالك ذلك الأنصاري الصغير يحدثنا عن مكانه وأنه كان في نخلٍ لأهله يخترف لهم الرطب، فجاء وأدوات الاختراف بيديه.. نسي أن يتركها من شدة ذهوله.

يقول أنس: (قيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ. فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله. فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدِّث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله.

وقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي. قال ﷺ: «انطلق فهيئ لنا مقيلاً»، فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ﷺ قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا)[2].

---

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٣١ وغيره من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة عن زرارة بن أبي أوفى تابعي ثقة عابد التقريب ٤٣٣ و٢١٥.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

إذا فقد عاد عبد الله بن سلام إلى حائط أهله بعد أن رأى وسمع. فمتى أسلم وكيف أسلم؟

يكمل أنس قصته فيقول: (فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق، ولقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم... فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ.

فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئت بحق، أسلموا» فقالوا: ما نعلمه)[1]. ترى هل أسلم هذا العالم المثقف لمجرد رؤيته رسول الله ﷺ دون استفسار.. دون سؤال، أو حصول على علامة وبيان؟ هذا ما لا يفعله عادة المثقفون والعلماء، وعبد الله بن سلام منهم، فهو لم يسلم مباشرة. فبعد أن (سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ... فأتى النبي ﷺ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة[2]؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

وما ينزع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟

قال ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً».. قال ابن سلام: جبريل؟! قال ﷺ: «نعم». قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾. أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولد.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٢/٥٢٨).

(٢) علامات الساعة، وعلامات الساعة كثيرة... منها بعثة رسول الله ﷺ لكن لها علامات كبرى عجيبة مفاجئة للعالم هذه أولها ومنها خروج اليهودي المسيح الدجال ونزول المسيح عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من جهة المغرب...

قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت[1]، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسلهم عني بهتوني.

فجاءت اليهود إليه، قال ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا.

قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا.. وتنقصوه[2]. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[3].

هذا هو الفرق بين اليهود والنصارى، بل وغير النصارى غالباً، فالنصارى ضحايا اليهود فسماهم الله (الضالين)، أما اليهود فهم يعرفون الحق ويتركونه، ولذلك وصفهم الله بـ: (المغضوب عليهم) والتاريخ يحدثنا عن اليهود كثيراً، وعن رفضهم وقتلهم الأنبياء والمصلحين، بل إنهم سبب ضلال النصارى[4] وبعدهم عن الحق، فلا غرابة ولا عجب أن رفضوا رسالة الإسلام، وغبي كل الغباء من يظن أنهم غير ذلك، والتاريخ شاهد والواقع على طرقاتنا يتلو علينا كل صباح مؤامراتهم.

فلننصرف عنهم كما انصرفوا عن رسول الله ﷺ، ولندخل مع رسول الله ﷺ إلى دار أبي أيوب، الذي أصبح مقراً مؤقتاً لرسول الله ﷺ ريثما يجد له منزلاً مستقلاً.. له ولزوجته القادمة سودة رضي الله عنها.

فتحنا الباب فوجدنا أبا أيوب رجلاً من كرم.. رجلاً من شعور.. مهذب وحساس، ومحب لله ولرسول الله ﷺ وللإسلام أكثر من نفسه.. كان صدره أفسح من بيته، وكانت يداه غيمتين.

جدران بيت أبي أيوب تحكي لنا هذه القصة.. تروي لنا كم كان أبو أيوب مسلماً.. كم كان عظيماً..

---

(١) أقوام يفترون ويكذبون ويلصقون في المرء ما ليس فيه.

(٢) عابوه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٢-٥٢٩.

(٤) كما معر معنا في قصة بولس أو شاءول.

يقول أبو أيوب: (لما نزل عليَّ رسـول الله ﷺ في بيتي نزل في السـفل، وأنا وأم أيوب في العلو. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشـانا أن أكون في سفل البيت». فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب[١] لنا فيه ماء، فقمت أنـا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشـف بها المـاء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نصنع له العشـاء ثم نبعـث إليه، فإذا رد علينا فضلـه تيممت أنا وأم أيوب موضع يده[٢] فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فرده رسـول الله ﷺ، فلم أر ليده فيه أثراً. فجئته فزعاً، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟

فقال ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشـجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة»)[٣].

ومـا دام ﷺ يكـره رائحتها فأبو أيوب يكرهها كذلك، لقد قال لرسـول الله ﷺ (فإني أكره ما تكره)[٤] ومع ذلك لم تسكن نفس أبي أيوب.. لم يجد للراحة مكاناً، ولم يجد للراحة طعماً رغم شدة فرحه برسول الله ﷺ داخل بيته.. لماذا؟.. لماذا؟

أبو أيوب مُحرج

لو رأيته وهو يسير في منزله لأشفقت عليه، فهو لا يتحرك إلا في مساحة ضيقة من بيته.. كأن الجن والأشـباح تنزل في البقيـة الباقية. لقد حدد له زاوية من المنزل

---

(١) وعاء يوضع فيه الماء كالزير والجرة.

(٢) أي بحثوا عن مواضع أصابعه وقصدوها.

(٣) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق سماعا من شيخه يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي حدثني أبو أيوب، ويزيد ومرثد فقيهان ثقتان وأبو رهم هو الصحابي كلثوم بن الحصين رضي الله عنه. انظر سيرة ابن كثير ٢-٢٧٧.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي ٢-٥٠٩.

يتحــرك فيهــا وينتقل وينام، أما البقية الباقية فلا.. ذلك لأن الإســلام صنع منه قلباً وحساً مرهفاً، فهو لا يريد أن يمشي فوق رأس رسول الله ﷺ.

(انتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!!

فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ يعني في ذلك؟

فقال ﷺ: "السفل أرفق بنا ". فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل)[1].

لــن تســتغرب الدنيا ما قام به أبــو أيوب رضي الله عنه، فهو ابن ســحابة هتون تحوم في ســماء الإيثار والكرم.. ابن سحابة اسمها الأنصار.. الأنصار الذين ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

هذه شهادة الله لهم تتنزل عليهم من فوق العرش.. تعبر السماوات سماءً سماءً.. يتغنّــى بها الأنصــار.. يتغنى بها بنو النجار أخوال رســول اللــه ﷺ. وأبو أيوب من الأنصــار، وأبو أيوب من بني النجار، ولإن كانت (خير دور الأنصار بني النجار)[3] فإن (في كل دور الأنصار خير)[4]. فالله جعل (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصــار)[5]. فـ (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهــم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[6].

الأنصــار الآن يتوافــدون.. يتتابعون نحو رســول الله ﷺ.. يســلّمون.. يثلجون صدورهــم بالقرب من حبيبهم.. كانوا يحملون الولاء والحب وشــيئاً من الطعام.. كلٌّ حســب ما يجد، لكــن أحد الفقراء المعدمين الذين لا يملكــون حتى ثيابهم.. كان على الباب ينتظر، وكانت هيئته رثةً تدمي القلب، وتدمع العين، ومع ذلك استطاع بعد جهد وعرق أن يحصل على شيء من طعام، لا ليأكله.. لا ليتصدق به، بل ليهديه.

---

(١) حديث صحيح.رواه مسلم والبيهقي (٢/٥٠٩).
(٢) سورة الحشر: الآية ٩.
(٣) حديث صحيح. متفق عليه.
(٤) متفق عليه وهو آخر الحديث السابق.
(٥) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٤).
(٦) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٣).

فمن هذا الشخص الغريب؟

أتذكرون ذلك المسـكين الذي قدم على رسول الله ﷺ وهو في (قباء) وقدم له صدقة من طعام، فأكل الصحابة منه، ولم يأكل رسول الله ﷺ.. قباء تذكره، وأنتم؟

هـا هو يأتي مرة أخرى.. يحمل هدية من طعام تحملها يدان تشققتا من العبودية والكدح والشقاء، وتحمله أقدامه دامية.. عصفتها الدروب والثلوج والرمضاء والرياح، وما إن وقف ذلك المسكين أمام رسول الله ﷺ حتى قال له: (إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه)[1]. فقال ذلك المسكين في نفسه: (هاتان اثنتان)[2] ثم خرج من عند رسول الله ﷺ وهو أحر شوقاً مما كان عليه.. عاد لسيده اليهودي يكدح ويكدح، وينتظر النهار بين نخيل المدينة، فمن أجل النهار جاء.. جاء من مكان بعيد.. جاء سيداً.. جاء مبتسماً وباكياً.. جاء عبداً مقيداً، ولن تضيره أيام قليلة من الانتظار، فربما طلع النهار وانزاح ليله الدامي الطويل.

أما رسول الله ﷺ فمكث ما شاء الله له أن يمكث في ضيافة أبي أيوب، ولم يكن هناك من مسجد للصلاة فـ (كان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم)[3].

لكن المدينة اليوم عاصمة للإسلام، وهي تتسع كل يوم بالوافدين والمهاجرين، فكان لا بد لها من مسجد. حيث لمح رسول الله ﷺ قرب بيت أبي أيوب حائطاً لبني النجار.. لم يرَ رسول الله ﷺ أنسب منه مكاناً لمسجده، فكانت هذه القصة:

قصة بناء المسجد النبوي

لقد جاء الأمر (ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا..؟ فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله عز وجل)[4] و(كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور

---

(١) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.
(٢) حديث صحيح سيمر معنا. رواه ابن إسحاق.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٢٨).
(٤) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع.

فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضاديته حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ يقول:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»)[1]

لم يكن رسول الله ﷺ قاعداً.. يكحل عينيه بمشهد السواعد تشتد أمامه وتعرق، بل كان يعرق مثلهم، ويحمل مثلهم.

لقد ساهم ﷺ في بناء مسجده، وبناء مسجد قباء، كما ساهم وهو شاب في بناء الكعبة في مكة التي طرد منها، وفي المدينة كان الصحابة يتدفقون نشاطاً وبناءً.. هذا عمار بن ياسر رضي الله عنه يتميز عن بقية الصحابة.

يحدثنا عما قام به عمار شاب اسمه أبو سعيد الخدري فيقول: (كنا ننقل لبن المسجد لبنة.. لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين.. لبنتين. فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار ينفض التراب عنه)[2].

ثم يقول ﷺ وحياً.. يقول غيباً.. يقول: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)[3] أما عمار فكان رغم استبشاره بهذه الشهادة.. يخشى على أمة الإسلام.. يخشى عليها فيقول: (أعوذ بالله من الفتن)[4] ثم ينصرف إلى عمله والصحابة حوله حركة نشطة. هذا أحدهم.. يغوص في الطين بمهارة، ويعالجه بطريقة مدهشة أعجبت النبي ﷺ، فقال لمن حوله ممتدحاً فعل ذلك الرجل الماهر بعمله، الوافد من اليمامة من أعماق نجد ليكتب الله له شرف المساهمة في بناء المسجد النبوي. يقول ﷺ: «قربوا اليمامي من الطين فإنه من أحسنكم بناءً»[5].

---

(١) حديث صحيح. وهو بقية الحديث السابق.

(٢) البخاري ١-١٧٢و ٣-١٠٣٥ أما الفئة الباغية فهي فئة معاوية رضي الله عنه ... والفئة المحقة هي علي رضي الله عنه وأصحابه.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) جزء من الحديث السابقه.

(٥) سنده صحيح البيهقي ٢-٥٤٢ وغيره من طرق عن ملازم بن عمرو يمامي صدوق التقريب ٥٥٥ حدثنا =

وتم بناء المسـجد كما أراد ﷺ: (مبنياً باللبن، وسـقفه الجريد، وعمده من خشب النخل)[1].

لكن ما قصة هذا اليمامي

اسمه (طلق بن علي اليمامي) وهو يحكي قصته ويرويها بنفسه.. يفخر بها وحق له أن يفخر فيقول رضي الله عنه: (بنيت مع النبي ﷺ مسجد المدينة فكان يقول: مكنوا اليمامي من الطين فإنه من أحسـنكم له مساً)[2]. ويحكي هذا الصحابي قصة قدومه فيقول: (خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ، فأخبرناه أن بأرضنا بيعة[3] لنا، واسـتوهبناه من فضـل طهوره، فدعا بمـاء فمضمض ثم صبه لنا في إداوة، وقـال: اذهبوا بهذا الماء، فإذا قدمتم بلدكم فاكسـروا بيعتكم[4]، وانضحوا مكانها من هذا الماء، واتخذوا مكانها مسجداً فقلنا: يا نبي الله.. إن البلد بعيد والماء ينشف. قال ﷺ: «فمدوه من الماء فإنه لا يزيده إلا طيباً»

فتشاحنا على حمل الإداوة أينا يحملها؟ فجعلناها نوباً بيننا لكل رجل يوم وليلة، فلمـا قدمنا بلدنا فعلنا الذي أمرنا، وراهبنا ذلك اليوم رجل من طي، فنادينا للصلاة، فقـال الراهب: دعوة حق ثم هرب فلم يرَ بعـد)[5] هذا ما حدث في أرض اليمامة أما في المدينة. فبعد أن تم بناء المسجد وعُمِّرَ بالصلاة والحياة وضع لرسول الله ﷺ جذع نخلـة يخطب عليها، لكن الوفود تكثر كل يوم، والمهاجـرون يزدادون، والناس تريد أن تسـتمع إلى خطب رسـول الله ﷺ.. إلى وحي ربها، فلا بد من بناء منبر مرتفع يمكن الحاضرين من الاستماع والرؤية. وافق ﷺ على هذا الاقتراح، لكن شيئاً حدث فأحزن من في المسجد وأبكاهم.. شيء غريب ومؤثرٌ حقاً.

= عبد الله بن بدر ثقة التقريب ٢٩٦ وشيخه قيس ابن الصحابي طلق تابعي ثقة التقريب ٤٥٧ وقصته عند الطبراني ٨-٣٩٩ وابن حبان ٣-٤٠٤ بالسند نفسه.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٤١.

(٢) سنده صحيح. وهو من السند قبل السابق.

(٣) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٤) البيعة: هي كنيسة النصارى.

(٥) هو باقي الحديث السابق الذي رواه النسائي والبيهقي وابن حبان وهو صحيح.

عند صنع المنبر

أحد الذين حضروا تلك الدموع.. صحابي اسمه: (سهل بن سعد) الساعدي رضي الله عنه يقول: (كان رسول الله ﷺ يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس وكثروا قيل له: يا رسول الله لو جعلت منبراً تشرف على الناس منه؟

فبعث إلى النجار فانطلق، فانطلقت معه حتى أتى الغابة، فقطع منها أثلاً فعمله وهيأه، ثم أتينا نحمله، فكان «درجتين» والثالثة مقعد لرسول الله ﷺ. فوالله ما هو إلا أن قعد عليه رسول الله ﷺ فتكلم، وفقدته الخشبة، فخارت كخوار الثور لها حنين حتى فزع الناس، وكثر البكاء مما رأوا بها، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة»)[1]. (فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت)[2] كأن هذا الجذع متفرع من جذور الحب.. كأنه أحد المهاجرين والأنصار.. كأنه مكة.. مكة التي تفتقد إلى وجه ابنها وحبيبها ﷺ.. كأنه تلك الحجارة في مكة التي كانت تسلم عليه ﷺ كلما مر بها، وتبادله حباً بحب، وشوقاً بشوق. هذا الجذع بكى لأن رسول الله ﷺ لن يخطب عليه بعد اليوم.. لن يحظى بدفء جسده بعد اليوم، وسوف يفتقد إلى ذكر الله يفوح عطراً وهداية من رسول الله ﷺ، لقد عبر عليه السلام عمَّا بأعماق هذه الشجرة عندما قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها)[3] إنها تغبط:

امرأة من الأنصار وغلامها تبرعا بالمنبر

فالأنصارية هي التي تطوعت وغلامها لبناء المنبر.. يحدثنا عن ذلك أحد كرام الأنصار: جابر بن عبد الله فيقول: (إن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك منبراً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً؟ فقال ﷺ: «إن شئت».

---

(١) حديث حسن. رواه أبو نعيم في الدلائل (٤٠٣) حدثنا أبو يعلى حدثنا كامل بن طلحة حدثنا ابن لهيعة عن عمارة بن غزية أنه سمع عباس بن سهل يخبر عن أبيه وهذا سند صحيح لولا ابن لهيعة لكنه لم ينفرد فقد رواه البيهقي من طريقين عن أبي بكر بن أويس عن سعد بن سعيد بن قيس عن عباس عن أبيه ٢-٥٥٩ وعلته سعد بن سعيد وحديثه حسن بالشواهد فهو صدوق سيئ الحفظ.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري والبيهقي ٢-٥٦٠.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٥٦٠/٢).

فعملـت له منبراً، فلما كان يوم الجمعة قعد علـى المنبر الذي صنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت. قال ﷺ: «بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[(١)] ثم عاد ﷺ إلى منبره.

فماذا صنع

يقول سهل السـاعدي: إن المرأة أمرت غلامها (فعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها فأرسلته إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ههنا، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها، وكبَّر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقرى، فسـجد في أصل المنبر، ثم عاد.

فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي، فعمل هذه الثلاث درجات»)[(٢)].

إذاً فمنبر رسـول الله ﷺ ثلاث درجات.. ثلاث درجات بسـيطة لا أكثر، فهنيئاً لتلـك الأنصاريـة.. هنيئاً لغلامها وهنيئاً لذلك المنبر، فمنبـر الأثل لم يعد ينتمي إلى الأثل.. لم يعد ينتسب إلى الأرض. منبر الأنصارية صار:

منبراً من الجنة

فقد التفت ﷺ إلى منبره يوماً فقال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»[(٣)].

وأما ما بين المنبر وبيت رسول الله ﷺ فمساحة من الربيع الخالد والفيض الغامر الواعد بالنعيم. فقد قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»[(٤)].

أما المسـجد فقد اكتمل بناؤه، واكتمل العقد بجوهرة ثالثة تزين صدر السـفر.. محطـة ثالثة لقوافـل المؤمنين بناها ﷺ فـي المدينة.. يزيلون فيهـا العناء والذنوب،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢/٥٦٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي ٢-٥٥٥.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي ١-١٥٠ والبيهقي ٢-٥٦٤.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ١-٣٩٩ ومسلم ١١٩٥.

وينهلون الأجر والثواب «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومســجد بيت المقدس»[1]. لا تشد الرحال من أجل العبادة إلى أي مسجد في الدنيا، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة. فمن أتعب مطاياه إلى غيرها، فقد أتعبته البدعة والغلو، والإســلام نبع صافٍ ورقراق، والشيطان يحاول تلويث النية الصافية بالبدعة . لكن لم هذه المساجد بالتحديد هي مناخ المرتحل ومستراحه؟

الإجابــة لا تأتي من الهواء.. لا تأتي من الهوى. الإجابة تتنزل وحياً، وتمطر أجراً عندما قال ﷺ: (صلاة في مســجدي أفضل من ألف صلاة فيما ســواه إلا المســجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[2].

فهم الصحابة ذلك، وأدركوا أن الســفر من أجل العبادة والصلاة لا يجوز.. مهما كان ذلك المكان المنشــود مقدساً، إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، حتى ولو كان هذا المكان جبل الطور الذي كلم الله فيه موسى تكليماً، وأنزل عليه فيه التوراة.

هذه قصة حدثت بين صحابيين.. تشهد بتفاني الصحابة رضي الله عنهم من أجل بقاء الإسلام أبيض جديداً دون تشويه أو بدع وذلك عندما (لقي أبو بصرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور، فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور،صليت فيه.

قال أبو بصرة: أما لو أدركتك قبل أن ترحل إليه ما رحلت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»)[3] وبهذه التصفية والتربية يبقى الإسلام جديداً.. دون شوائب.. دون بدع، بل كما أنزل على محمد ﷺ.

إذاً فقد ســعدت المدينة باحتضانها لمســجد يؤسسة رسول الله ﷺ على التقوى، كما سعدت مكة من قبل بتأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لبيت الله الحرام، وبعد ذلك بنى ﷺ له بيتاً ملاصقاً للمسجد عبارة عن حجرات صغيرة، فسودة قادمة قريباً من مكة، أما عائشــة فربما كانت مع هذا الركب الذي يلوح بين الســراب، وفيه

(١) حديث صحيح. متفق عليه.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع (٧١٤/٢).

(٣) حديث صحيح انظر إرواء الغليل (١٤٢/٤) وقول النبي ﷺ عند البخاري ومسلم.

امرأة شابة حامل.. شابة عظيمة تهاجر للمرة الثانية، وكانت تحمل الطعام إلى رسول الله ﷺ، وتقطع حزاماً لها نصفين ليستخدمه ﷺ في هجرته إلى المدينة، فيربط زاده وما يحتاجه.. إنها ذات التاريخ الأبيض.. ذات النطاقين.. أسماء بنت الصديق الأكبر، والصاحب الأبر (هاجرت إلى النبي ﷺ وهي حبلى)[١].

لم تبال بثقل حملها فمدينة الأنوار والحب تنتظرها، وهي لا تستطيع مقاومة ذلك الحب فيها، أما ذلك الجنين في بطنها فكان على موعد مع السبق والشرف، ليكون أولاً في سجلات الهجرة والإسلام.

أسماء الآن في قباء قد أثقلها الحمل والتعب.. لا تستطيع المشي، ولا تستطيع الوصول إلى المدينة، فآلام الوضع والولادة شديدة. إنها المرة الأولى التي تعاني فيها من هذه الآلام، فبقيت في قباء حتى تمت ولادتها بسلام، وطفلٍ كالورد.. تحدثنا عنه فتقول: (خرجت وأنا متم، فأتيت المدينة فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه. فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام)[٢].

هذا الطفل هو عبد الله بن الزبير بن العوام، وتلك هي أمه، أما خالته عائشة التي عانت بعد وصولها من مرض تساقط منه شعرها، وأي شيء أهم عند الفتاة من شعرها ومظهرها.

تقول رضي الله عنها: (قدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة)[٣] أي أنها شفيت فعاد شعرها جميمة، وهو الشعر إذا سقط على المنكبين.

فرحت عائشة بجميمتها لا سيما وهي تنتظر...

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٩).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤٢٢.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٤١٤.

فهـــي زوج رســـول الله ﷺ، لكنها كانت فــي بيت أبيها.. لم تنتقــل بعد إلى بيت الزوجية والنبوة والحب الذي ســينير حياتها وآخرتها، وتلك الحجرات الصغيرات كن يتلهفن عليها، حتى إذا جاء شــهر شــوال من تلك الســنة. وشهر شــوال محبب لدى عائشة.

إنها تقول عنه: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني، وكانت تستحب أن تدخل نساءها في شوال)[١].

ولزفاف عائشة قصة تحب أن ترويها لنا، فتقول: (أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحةٍ ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمســحت به وجهي ورأســي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين)[٢].

هذه قصة زفافها، وهكذا صار لها حجرة من تلك الحجرات المتواضعة، وصار لها نصيب في حياته ﷺ وقلبه.. يزداد مع الأيام حتى صارت أحب الناس إليه. يقول أحد الصحابة واســمه عبد الله بن شقيق: (قلت لعائشــة: أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟

قالت: عائشة. قلت: فمن الرجال؟ قالت: أبوها)[٣].

وصحابــي آخر قدم على رســول الله ﷺ فجرى بينهما حــوار عن الحب. يقول هذا الصحابي رضي الله عنه: (أتيته، قلت: يا رســول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.

قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر)[٤].

---

(١) صحيح مسلم ٢-١٠٣٩.

(٢) صحيح البخاري ٣٨٩٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٣٥٨.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤٣٥٨.

المرأة من جديد تقفز في المقدمة.. تتقدم فتسير أمام من يدخلون قلب رسول الله ﷺ، وقلب رسول الله ﷺ كان مدينةً منورةً أخرى للجميع.. سعدوا بدخولها، واطمأنوا بالعيش فيها، ومن آثار تلك الطمأنينة والحب بين المهاجرين والأنصار.. هذه الخطوات التي يخطوها حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو يتجه إلى أحد بيوت الأنصار.. إلى بيت قيس بن فهد.

حمزة يصاهر الأنصار

حمله حب مصاهرة الأنصار الكرام والتماهي بهم إلى يوم القيامة. خطب حمزة رضي الله عنه خولة بنت قيس، فوافقت، ووافق أبوها، وزفت إليه وسكنا معا في بيت تعمره السكينة والإيمان، فيزوره النبي ﷺ ليقضي فيه وقتا كأنسام البحر عند المساء.

خولة رضي الله عنها تتحدث عن تلك الزيارات التي كان يقوم بها النبي ﷺ لبيت عمه، وتتحدث عن عذوبته ﷺ في حديث ينقله أحد الصحابة فيقول: (أن حمزة بن عبد المطلب لما قدم المدينة تزوج خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بني النجار، وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، وكانت تحدث عنه ﷺ أحاديث قالت: جاءنا رسول الله ﷺ يوماً فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تحدث أن لك يوم القيامة حوضاً ما بين كذا وكذا؟

قال: أجل، وأحب الناس إلى أن يروى منه قومك. قالت: فقدمت إليه برمة فيها خبزة أو حريرة، فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت أصابعه، فقال: حس. ثم قال: ابن آدم إن أصابه البرد قال: حس.. وإن أصابه الحر قال: حس)[1].

وتقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكر الدنيا فقال رسول الله ﷺ: إن الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها. ورب متخوض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقى الله)[2].

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٦-٤١٠ وغيره من طريق يحيى بن سعيد عن يحنس عنها ويحيى ويحنس ثقات التقريب ٥٨٧ وللحديث شواهد قوية عند الطبراني في الكبير ٢٤-٢٢٧.

(٢) سندة قوي رواه أحمد ٦-٣٦٤ وغيره عن يحيى بن سعيد أخبره عمر بن كثير بن أفلح سمع عبيد سنوطا عن خولة. عمر تابعي ثقة التقريب ٢-٦٢ وسنوطا وثقه العجلي ٢-١٢٢.

كان ﷺ يـــزور أصحابــه أيضاً.. يتفقدهم ويتحســـس معاناتهـــم، ولأنهم جميعاً بين أضلاعه ﷺ فلا بد أن يدلف معهم شـــيء من الأحزان.. يشـــعر بها ويشـــاركهم معاناتها..

كان يتقاســـم معهم الأحـــزان والأفراح، فخلال تلك البهجـــة.. خلال فرح المدينة بعرس محمد ﷺ وعائشـــة.. خلال الفرح بالمهاجرين والإســـلام.. كانت قافلة الحياة الطويلة تمر.. تعبر لا تتوقف.. تحمل الفرح والأحزان والمفاجآت، وقافلة الحياة تحمل هذه المرة حزناً يتأهب لدخول بيت أحد أبطال العقبة والبيعة الخالدة:

بيت أسعد بن زرارة

الذي كان في أيامة الأخيرة يعاني من المرض، فيقول أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قد كوى أسعد بن زرارة في الشوكة)[1].

لكن سعداً مات رضي الله عنه.. مات فترك جرحاً في قلوب المسلمين، وترك دعاءً في قلب الشـــاعر الأنصاري (كعب بن مالك) رضي اللـــه عنه. كان كعب يدعو له كلما سمع صوت المؤذن ليوم الجمعة، فلماذا هذا النداء بالذات، وما هي ذكرياته؟

الإجابـــة أخذها عبد الرحمن من والده كعب بن مالك، بعد أن بلغ كعب من الكبر عتياً وشاب رأسه وذهب بصره، فيقول عبد الرحمن: إن والده (كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة. فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة؟

قـــال: لأنـــه أول من جمَّع بنا في هزم النبيت[2] من حرة بني بياضة، في نقيع يقال له نقيع[3] الخضمات.. قلت: كم أنتم يومئذٍ؟ قال: أربعون)[4] رحم الله أســـعد بن زرارة

---

(١) ســـنده صحيح. رواه أبو يعلى ٦- ٢٧٤ وغيره عن يزيد بن زريع، عن معمر عن الزهري عن أنس.. ويزيد ثقة ثبت. التقريب ٦٠١ والبقية أئمة ثقات أغنياء عن التعريف.

(٢) مكان منخفض.

(٣) يسمى هكذا لاجتماع الماء فيه.

(٤) ســـنده صحيح. رواه ابن إســـحاق ومن طريقه الحاكم (٣-١٨٧: حدثني محمد بن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أخبره. شـــيخ ابن إســـحاق ثقة ووالده اسمه: أســـعد بن سهل بن حنيف له رؤية وهو معدود في الصحابة وشـــيخه من كبار التابعين وثقاتهم وكلهم من رجال التقريب.

ورضي عنه.. ربما كان هو هذا الذي فوق الأعناق.. هاهم ينزلونه إلى قبره ويدفنونه، والنبـــي ﷺ حزين عند قبره، وهاهم الصحابة يلفهم الوجوم، ويتســـلل الحزن بينهم، ويتســـلل بينهم أيضـــاً رجل لم يعرف الحزن هـــذه اللحظة فقط، بل تشـــربته عروقه وشـــبابه، فأصبح من لحمه ودمه.. حزين تصرعه الدنيا وتشـــقيه وتحمله وترتحل به حتى أوصلته إلى هذا القبر.

فمن هذا المتسلل؟

من هذا المتأمل بين المقابر..؟ إنه ذلك الرقيق المتســـلل ليلاً إلى قباء عندما وصل رســـول الله ﷺ إلى هناك. هل تذكرون تلك الصدقة التي حملها.. قدمها لرســـول الله، فلم يأكل ﷺ منها، وجعل أصحابه يأكلون؟ إنه الشخص نفسه الذي حمل هدية من طعام إلى رســـول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري.. ذلك الشـــخص المحير.. ذلك الرقيق المليء بالأسرار، والعبودية والهموم.. هو هذا المتسلل الذي مشى إلى رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد.. قد تبع جنازة الصحابي الجليل، وعلى رسول الله ﷺ شملتان..

لن أستمر.. سأترككم معه.. يفتح لكم قلبه ودفاتره ودروبه، ليتحدث إليكم.

يقول رضي الله عنه: (جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد[١]، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليه شـــملتان[٢]، وهو جالس في أصحابه، فســـلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رســـول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي،

فألقـــى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم[٣] فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول».

فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي)[٤].

---

(١) بقيع الغرقد: هو مقبرة المدينة.

(٢) الشملة: كساء يتلفف به المرء.

(٣) خاتم النبوة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير ٢٩٦/١) ومن طريقه رواه أحمد (٤٤١/٥) فقال: حدثني عاصـــم بن عمر بن قتادة الأنصـــاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس قال: حدثني ســـلمان الفارسي – من فيه – قال: كنت رجلاً فارسياً.... =

إذاً فهذا المسـكين يبحث عن نبي، وقد وجده، لكن من هو، وما هي قصته وما هو حديثه...؟

الغريب يفتح لنا دفاتره ودروبه

مرة أخرى سـأتركم معه.. يحدثكم كما حدث رسـول اللـه ﷺ.. حديثاً مبللاً بالدموع والشـقاء والـدلال.. حديثاً طويـلاً يقول فيه: (كنت رجلاً فارسـياً من أهل أصبهـان، مـن أهل قرية يقال لها (جيء) وكان أبي دهقـان[1] قريته، وكنت أحب خلق اللـه إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسـني في بيته، كمـا تحبس الجارية -أي ملازم النار - واجتهدت في المجوسـية[2] حتى كنت قطن[3] النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو سـاعة، وكانت لأبي ضيعة[4] عظيمة، فشغل في بنيانٍ له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبسـت عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجـت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسـة مـن كنائس النصارى فسـمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس - لحبس أبي إياي في بيته - فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشـمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وشـغلته عـن أمره كله، فلما جئت قال: أي بنـي، أي كنت؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدتـه؟ قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في

= وهذه السلسلة من الرجال كالذهب، عاصم بن عمر بن قتادة وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي والبقية من الصحابة رضي الله عنهم. انظر التقريب ٢٨٦.

(١) الدهقان: هو رئيس القرية أو التاجر.

(٢) المجوسية: دين يعبد أهله النار.

(٣) أي خازن النار والمعتني بها.

(٤) بساتين وأشجار وكروم.

كنيسة لهم، فأعجبني مارأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير. دينك ودين آبائك خير منه. قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا.

فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته. وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام - تجار من النصارى - فأخبروني بهم.

فقدم عليهم ركب الشام - تجار من النصارى- فجاءوني النصارى فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني.

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف[1] في الكنيسة. فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك. قال: ادخل.

فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب ووَرِق[2]. وأبغضته بغضاً شديداً لمارأيته يصنع، ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا.

فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً. فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إني قد كنت

---

(١) رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

(٢) الورق: الفضة.

معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل[1] وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه فالحِقْ به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبمَ تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين، وهو فلان فالحق به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين[2]، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي، فقال: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وتأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمورية[2] من أرض الروم.. فإنه على مثل ما نحن عليه.. فإن أحببت فأته.. فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يافلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وبم تأمرني؟

---

(١) مدينة شمال العراق.

(١) مدينة من مدن الجزيرة.

(٢) مدينة بآسيا الصغرى (تركيا الآن).

قال: أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بـين حرتين[1] بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثـم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شـاء اللـه أن أمكث،ثم مر بي نفر من (كلب) - تجـار - فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموهـا وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجـل يهودي عبداً، فكنت عنـده ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسـي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة مـن المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلـى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام، ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق[2] لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة[3]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباءٍ على رجلٍ قدم من مكة، يزعم أنه نبي.

فلما سـمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني سـاقط على سـيدي، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول.. ماذا تقول؟

فغضب سـيدي فلكمني لكمة شـديدة، ثم قال: مالك ولهـذا!! أقبل على عملك. فقلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء)[4].

---

(١) الحرة: أرض ذات أحجار سوداء.

(٢) العَذق - بفتح العين - النخلة بحملها.

(٣) اسم جدة الأوس والخزرج.

(٤) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق (ابن كثير ٢-٢٩٦) حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي هو عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (التقريب ١-٣٨٥).

إذاً فرسول الله ﷺ يعرف وجه هذا الغريب، ويتذكر قصته معه في قباء.. عندما قدم لرسول الله ﷺ صدقة من طعام، فلم يأكل منها. ولكنه أكل من هديته التي قدمها له في بيت أبي أيوب، وهاهو يرى خاتم النبوة على ظهره ﷺ بعد أن دفن صاحبه.

ثــلاث علامات ذاق من أجلها ســلمان ألوان المر والترحال، والتغرب والتشــرد.. تشــققت يداه من الكد والكدح، وهو ابن النعيم والدلال.. حياة طويلة ترسف في قيود الحديــد والعبوديــة والرق.. كان في غنى عنها، لكنه ليس فــي غنى عن التوحيد، ولا البحث عن الحقيقة. لأنه إن عثر عليهما ســيعثر على نفسه، التي لم يجدها بين رماد نار المجوس، ولا بين تصاليب النصارى، ولا وســط أحقــاد اليهود ولكماتهم.. وجدها بين يدي محمد ﷺ، فهدأت نفسه الثائرة، وارتاحت روحه المتعبة، ووجد الجدار الذي يسند إليه ظهره بعد طول العناء، والنبع الذي روى عطشه.. عثر على من يمسح دموعه وعرقه في طيبة الطيبة.. بين إخوة له في الشقاء والبحث والانتظار والوصول، فقص عليهم ما وجده وما عاناه (فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه)[1].

ولــم يكتف ﷺ بإبداء الإعجاب والرضا والابتســام، فالرجل ما زال يلهث، ويداه تنزفان وقدماه داميتان من صخور اليهود وأشواك حقولهم.

رَقَّ ﷺ لحاله وضياعه فقرر كســر هذا الطوق الذي يخنق أنفاســه، فالتفت ﷺ إليه وقال: «كاتب يا سلمان»[2] أي تعاقد مع سيدك اليهودي على شيء تقدمه له مقابل حريتك.

لم يكن لدى ســلمان شيءٌ يقدمه، لكن كلمات النبي ﷺ كانت نوافذَ مفتوحةً على الحرية والحرية. نهض سلمان من بين المقابر، وتوجه إلى ذلك اليهودي.. نهض سلمان وقــد انتزع القلوب من حوله، وغادر ونظرات الإشــفاق والعطــف تتابعه حتى اختفى، ونهض النبي ﷺ وأصحابه وقد أثقلهم الحزن على صاحبيهم. ولم يكتفِ ﷺ بالحزن على صاحبه الذي دفنه منذ قليل، فأســعد بن زرارة ملء السمع والبصر، وعائلته من بعده أصبحت بين حناياه ﷺ.

(١) ســنده صحيح. رواه ابن إســحاق ٦٦ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد عن بن عباس وهذا السند فيه صحابيان وتابعي ثقة عالم بالمغازي.

(٢) سنده صحيح. وهو الحديث السابق.

رحل أسعد بن زرارة وترك زهرتين صغيرتين.. هاهو ﷺ يمشي متوجهاً نحوهما في دار أبيهما أسعد. نبي الله ﷺ يحمل في يده هدية جميلة لهاتين الصغيرتين، إنها أقــراط ذهبية مرصعة باللؤلؤ، وليس هناك ما يدخل الســعادة على الفتاة مثل الحلي والزينة.

تحدثنا عن هذه الزيارة حفيدة لأســعد بن زرارة اسمها زينب فتقول: (إن رسول الله ﷺ حلى أمها وخالتها - وكان أبوهما أســعد بن زرارة - أوصى بهما إلى رســول الله ﷺ، فحلاهما رعاثاً من تبر ذهب فيه لؤلؤ)[١].

لبســت الفتاتان تلك الأقراط وتزينتا به، وبقي عندهمــا زمناً لدرجة تقول معها زينب: (وقد أدركت الحلي أو بعضه)[٢].

هدية من نبي رقيق المشاعر.. يحاول تخفيف اليتم والحزن عن أهل بيت من بيوت الأنصار الكريمة التي تستحق الكثير.

غادر عليه الســلام بيت اليتيمتين، وبعد أيام عاد الغريب.. عاد ســلمان الفارسي إلى رســول الله ﷺ ليقول له: (كاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة، أحييها له بالفقير وأربعين أوقية)[٣].

فرح ﷺ بما سمع، وهتف بأصحابه من حوله وقال لهم: «أعينوا أخاكم»[٤] فامتثل الصحابــة وتفرقوا يبحثون.. يفتشــون عن شــيء يزيلون به بقايا المعانــاة عن أخيهم الفارســي، الذي تداولته السنون والشقاء و(تداوله بضعة عشر من رب إلى رب)[٥] وقد آن الأوان أن يستريح بفيء الإسلام.

---

(١) سنده حسن. رواه الحاكم ٣-١٨٧ من طريق محمد بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن محمد بن عمارة، عن زينب بنت نبيط. وهي زوجة أنس بن مالك، التهذيب ٩-٣٥٩ وتلميذها صدوق يخطيء وحديثه حسن التقريب ٤٩٨ وحاتم حسن الحديث من رجالهما وقتيبة ثقة ثبت التقريب ٤٥٤ وتلميذ ثقة من شيوخ البخاري.

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم (١٨٧/٣) وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٤) هو بقية حديث سلمان الطويل الصحيح.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٤٦.

الصحابــة اليوم حركة وعطاء إلا كبيرهم إلا أولهم.. إنه ليس في الســوق، وليس مع رســول الله ﷺ الذي يعود إلى بيته فيجد زوجته عائشة رضي الله عنها بانتظاره، وهي قلقة على أبيها.

كانت تنتظر زوجها ﷺ لتســتأذنه في الذهاب للاطمئنان على أبيها، فمالذي حدث للصديق الأكبر..؟ ماذا حدث لحبيبنا أبي بكر رضي الله عنه؟

ماذا حدث لأبي بكر

لم يكن أبو بكر وحده يحتاج إلى الرعاية والمواساة.. بلال بن رباح كان مثله، وعامر بن فهيرة أيضاً، فقد (كانوا في بيت واحد)[1].

وصل الخبر إلى عائشــة فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم، وعندما وصلت وجدت حمى المدينة الملتهبة تشــتعل في أجسادهم، وحمى المدينة شديدة فلقد (قدم رســول اللــه ﷺ المدينة وهي أوبــأ أرض الله)[2]، لكن الله يجعل مــن الضيق منافذاً وأبواباً، ويجعل من المعاناة بشــائراً ووعــوداً. قال ﷺ لأصحابه: «لا يصبر على لأواء المدينة وجهدها أحد، إلا كنت له شــفيعاً أو شــهيداً»[3]. ويقول لهم: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[3] وما دامت الحمى من القدر، فعلاجها من القدر أيضاً، فالقدر يعالج بالقدر.

أرشد ﷺ أصحابه إلى الصبر، وأرشدهم أيضاً إلى العلاج فقال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»[3].. «الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد»[3].

هــذه هي حال الحمى فكيف كانت حال أبي بكر وصاحبيه رضي الله عنهم؟ لقد كانوا مزيجاً من:

---

(١) ســنده صحيح. رواه ابن إسحاق حدثني هشــام بن عروة وعمر بن عبد الله بن عروة عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها - انظر ما بعده.

(٢) سنده رواه البيهقي ٢-٥٦٧: الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. الأصم إمام وثقة معروف وسماع شيخه للسيرة صحيح، ويونس أحد رواه السيرة وهو حسن الحديث. والبقية أئمة ثقات.

(٣) أحاديث صحيحة. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

الحمى والحنين.. والشعر والهذيان

وصلت عائشة فكان حوارها معهم حنيناً وشعراً وهذياناً.. عائشة رضي الله عنها تحكي ما جرى في تلك الزيارة فتقول: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال - موليا أبي بكر - في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم - وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبت؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه ... كالثور يحمي جلده بروقه

فقلت: والله ما يدري ما يقول. وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مِجنةً ... وهل يبدون لي شامة وطفيل)[1]

كان بلال يحترق من الحمى لكنه أشد احتراقاً بشوقه المستعر إلى مكة.. إلى سوق مجنة في أسفل مكة، وإلى جبلي شامة وطفيل، اللذين يطلان كالحب على ذلك السوق. كان يحن إلى مراتع الصبا بين تلك النبتات.. بين الإذخر والجليل، ثم يزفر بأنفاسه الملتهبة بالحمى فيقول والحسرة في صدره: (اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا إلى أرض الوباء)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، وقدر واه البخاري ٢٦٦٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٦٦٧.

تأثر النبي ﷺ بهذا الشوق والحنين، وأخذته الشفقة بأصحابه، وبالمدينة التي تسكن قلبه.. عندما سمع شكوى حبيبته عائشة التي تقول: (ذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة[1]»[2].

وفي ليلة من تلك الليالي المحمومة.. كان ﷺ في فراشه وعيناه نائمتان.. في تلك الليلة رأى شيئاً مخيفاً ومفرحاً في منامه، فبشر به أصحابه وبشر به المدينة وقال: (رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة، فأولتها: أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة، وهي الجحفة)[3] وارتحل الوباء، وارتحلت الحمى عن أبي بكر وبلال، وعن عامر بن فهيرة، ليعودوا حول رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار، ويكحل عينيه بهم، لكن تلك المجالس الطيبة تفتقد إلى أحد عظماء الأنصار. ورسول الله ﷺ لا يعيش في أبراج بعيداً عن أصحابه.. إنه منهم وبينهم.. يصافحهم ويبتسم في وجوههم.. يمشي في أسواقهم، ويأكل من طعامهم، ويزورهم في منازلهم، ويسأل عن غائبهم، ويتفقد أحوالهم.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من الصحابة، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده، بين يديه فقال له النبي ﷺ: «تحبه؟»

فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه.

فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: «ما لي لا أرى فلاناً»؟ فقالوا: يا رسول الله، بنيه الذي رأيته هلك.

فلقيه النبي ﷺ فسأله عن بنيه، فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال ﷺ: «يا فلان أيما كان أحب إليك: أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة

---

(١) الجحفة.

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٦٨.

إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: يانبي الله، بل يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي، لهو أحب إلي.

قال ﷺ: «فذاك لك». فقال رجل من الأنصار: يا رسـول الله جعلني الله فداءك، أله خاصة أو لكلنا؟ قال ﷺ: بل لكلكم)[1].

مـا أجمل الحب والبراءة فـي هذه القصة.. ما أجمل العـزاء النبوي.. ما أجمل الطفولة في مجلس النبي ﷺ، وما أجمل هذا النبي وهو يسـأل الرجل عن حبه، وما أروعه وهو يحرضه على البوح بشيء من أعماقه، وهو يعزيه، وهو يعده بعينين بريئتين تتلهفان له عند باب الجنة.

هذه البشرى ليست للرجال فقط، وهذه العناية ليست للرجال فقط. يحدثنا صحابي آخر فيقول: (كان ﷺ يتعهد الأنصار، ويعودهم، ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مـات ابنها وليـس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعاً شـديداً، فأتاهـا النبي ﷺ ومعه أصحابه، فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل: يعزيها. فدخل رسول اللـه ﷺ فقـال: «أما إنه بلغني أنـك جزعت على ابنك، فأمرها بتقـوى الله وبالصبر»، فقالـت: يا رسـول الله، ما لي لا أجزع وإني امرأة رقـوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب: الذي يبقى ولدها». ثم قال: «ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسـبهم إلا أدخله الله بهم الجنة»، فقال عمر وهو عن يمين النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي، واثنين؟ قال ﷺ: «واثنين»)[2].

إذاً فالنبي ﷺ (كان يتعهد الأنصار، ويعودهم ويسـأل عنهـم)[3].. كان يتفقدهم رجالاً ونسـاءً.. أغنياء وفقراء.. كان يفرح معهم، ويواسـيهم في مصائبهم وأحزانهم.. كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة وهمومها.

هاهـو يتهيأ للخروج مـن منزله ليعود مريضاً، وهذه المـرة لم يكن المريض رجلاً عادياً. إنه أحد كبار الأنصار وأبطالهم، فقد سـمع ﷺ بأن (سـعد بن عبادة) طريح

---

(١) سـنده صحيح. رواه الطبراني ١٩-٣١ وغيره من طرق عن معاوية بن قرة عن أبيه، ومعاوية ثقة التقريب ٥٣٩ ووالده صحابي وصححه الإمام الألباني في الجنائز (١٦٢) .

(٢) سنده على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجنائز ١٦٤ رواه الحاكم ١-٥٤٠.

(٣) سنده حسن على شرط مسلم وهو الحديث السابق.

الفراش، فتحركت مشـاعره نحـو أخيه وحبيبه، وتحركت دابتـه نحو هذا الأنصاري الكريم.

دعونا نمشي خلف رسول الله ﷺ فسوف يصادف في طريقه.

شجرةٌ غريبةٌ

رآها ﷺ في المدينة.. نبتة مشـوهة تظهر لأول مرة.. أثارها غبار دابة رسول الله ﷺ المتجهة تحمل حباً نحو سـعد بن عبادة.. أثارها ذلـك الغبار، فاهتزت وتطايرت أشواكها، فجرحت مشاعر رسول الله ﷺ.

ما هذه الشجرة، وهل وصل ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة..؟

لا أحد يستطيع وصف ما حدث مثل الطفل الأسمر أسامة بن زيد، حبيب رسول الله ﷺ، فقد كان يركب خلف رسـول الله ﷺ فوق تلك الدابة.. هاهو أسـامة يحدثنا فيقول: (إن رسـول اللـه ﷺ ركب حماراً عليه إكاف[1] علـى قطيفة فدكية[2]، وأردف أسـامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سـلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسلمين ومن المشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[3]، خمَّر[4] ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا.

فسـلم رسـول الله ﷺ، ثم وقف فنـزل فدعاهم إلى الله عز وجـل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسـول الله، فاغشـنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

---

(١) سرج الحمار.

(٢) نسبة إلى فدك وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.

(٣) غبارها.

(٤) غطى.

واستب المسلمون والمشـركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون[١]، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.

ثم ركب رسـول الله ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له رسول الله ﷺ: «أيا سـعد، ألم تسـمع ما قـال أبو حباب - يريد عبد الله بـن أبي؟» قال: كذا.. وكذا.

قال سـعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[٢] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة[٣]، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شـرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت.

فعفا عنه رسـول الله ﷺ، وكان وأصحابه يعفون عن المشـركين وأهل الكتاب كما أمـره الله عز وجل، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٤].

وقال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٥].

وكان رسـول اللـه ﷺ يتأول في العفو مـا أمره الله عز وجل بـه..)[٦]، لأنه ظل وارف للجميع.. حتى لهؤلاء المشركين واليهود، ولولا ذلك لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس، وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول (ابن سلول) إلى كهفٍ للأصنام والمشركين، وجحر لليهود.. لقد تحول إلى كهفٍ لمشـروعٍ يحـاك في الظلام، لتقويض هذه الدولة الجديدة.

---

(١) يتواثبون للقتال.

(٢) أي القرية أي المدينة المنورة.

(٣) أي يجعلوه زعيماً للأوس والخزرج.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٦٦.

عبد الله بن أبي لم يتأذَ من غبار الدابة، ولم يخمر أنفه من أجل سلامة رئتيه، فهو ليس غريباً على الغبار، والغبار ليس بغريب عليه. لكنه خمر عقله وقلبه عن الحقيقة.. هو يضيق براكب الدابة، وبكل ما يفعله ويقوله. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها نبي الله ﷺ على كل بيت.. إنه يرى نكسته في فرح الرجال والنساء، وابتسامات الأطفال وهم يلتصقون برسول الله ﷺ.

لا أدري ما مصير المدينة لو توج عبد الله بن أبي بن سلول أميراً عليها، وإلى أي قاع سوف يرسو بها؟ لكن من المؤكد أنها لن تكون المدينة المنورة التي تهفوا إليها الدنيا، بل ستظل يثرب.

إن زعامة عبد الله بن أبي ليست - في حالة نجاحها - سوى تأجيل لوقت انفجار قنبلة موقوتة، فالجاهلية هي الجاهلية، والثأر لا يطفئه سوى الثأر، ما دامت الأصنام رابضة في البيوت والأندية.

عبد الله بن أُبي بن سلول المشرك ضاق بهؤلاء الأضياف المهاجرين، وطار صوابه لهذا الكرم الأنصاري. لقد فقد صداقاته وزعامته، فقومه يحبون المهاجرين أكثر مما يحبونه، ويتماهون بهم وينفصلون عنه.. إنهم يلتقون في ذلك المسجد خمس مرات في اليوم. كيف ذلك؟ أليس من سبيل إلى استعادة أحد منهم؟ أو استعادة شيءٍ منهم؟ أليس من سبيل إلى إعادة هؤلاء المهاجرين وطردهم مع نبيهم من المدينة؟ أليس من سبيل إلى تشريدهم خلف جبال المدينة؟

المدينة تجيب.. تقول: لا يا ابن أبي بن سلول.. ليس هناك من سبيل، فلقد تغيّر أصحابك.. غيّرهم نبي الله، وغيّر نفوسهم، وغيّر بلدتك وغيّر اسمها، وإن لم تكن تحتمل هذا التغيير وهذا الحب الذي تكرهه، فاذهب إلى دار أنس بن مالك لتنظر مايفعله نبي الله ﷺ هناك.. ومايفعل معه المهاجرون والأنصار. اذهب إلى دار أنس بن مالك فهناك أمرٌ خطير لا أظنك سوف تحتمله.

ماذا يحدث في دار أنس

نبي الله ﷺ الآن في دار أنس، والمهاجرون والأنصار من حوله يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوانحهم.. يتطلعون إلى هديةٍ للجميع.

هاهو أنس بن مالك بين المهاجرين والأنصار.. سألناه: ما الذي يحدث في داركم يا أنس؟ أخبرنا.

أجاب أنس إجابة كالعيد فقال: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[1] يا الله.. ما أروعه من خبر.. هنيئاً للدنيا.. هنيئاً لك يا أنس، وهنيئاً لداركم.

هاهم الصحابة يخرجون من الدار، وقد صاروا أخوة.. فوق أخوة الإسلام، فالمسلم أخو المسلم، لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد.

إنها غيمة وحي.. أمطرتهم حباً ثم ارتحلت، ولم تمطر أحداً سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة، وهو يحدثنا عنها فيقول: (كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)[2].

لقد آخى ﷺ بين صحابته، فماهت الأرواح بالأرواح.. هاهو أبو عبيدة يمسك بيد أخيه. نسأل أنساً مرة أخرى؟ فيجيب أن رسول الله ﷺ قد (آخى بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة)[3].

ونسأل أنساً مرة ثالثة: من هذا الذي يلح ويلح على عبد الرحمن ابن عوف؟

فيقول رضي الله عنه: (إن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق.

فدلوه، فذهب، فاشترى وباع فربح، فجاء بشيء من أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث، فجاء وعليه ودع زعفران، فقال رسول الله ﷺ: «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة.

قال ﷺ: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأحمد واللفظ لأحمد (٣/١١١).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٩٦٠ (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

قال ﷺ: أَوْلِمْ ولو شاة. قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً، لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)[1].

إن أخوة النسب تركض وتركض، وتلهث وتتعب فلا تستطيع الإمساك بما أمسكت به أخوة عبد الرحمن بن عوف وسـعد بن الربيع. لقد حولت دار أنس سعد بن الربيع ربيعـاً يتقلب فيه عبد الرحمن بـن عوف.. ربيعاً أنصارياً.. يتنقـل فيه عبد الرحمن ويسـافر فلا يجد له حـدوداً.. يبحث عن أطرافه، فلا يرى سـوى الربيع أينما حل.. أينمـا اتجه. وعندما يحاصـره هذا الكرم يتوجه بقلبه المتيم المأخوذ إلى رسـول الله ﷺ.. يشـتكي مـن هذا الحب، ومن هذا الكرم.. يتوجه هـو والمهاجرون، ويقول هو و (المهاجرون: يا رسول الله: يارسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسـن بذلاً من كثير. لقد كفونا المؤونة، وأشـركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؟

قال ﷺ: «لا .. ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[2].

يحق للمهاجرين أن يشتكوا، ويحق لهم أن يحتاروا، فلقد تساءلت الدنيا: من لهؤلاء الهاربين الهائمين المشـردين؟ من ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3].

فأجابـت طيبة، وأجابت الأنصار، وتسـابقت الأيـدي إلى أحبابهـا المهاجرين، وأشرعت الأبواب.

لـم يكن هناك ازدحام من المهاجرين على أبواب إخوانهم الأنصار، لكن كان هناك ازدحام بـين القلوب الأنصارية علـى أحبابهم المهاجرين. كانت الأنصـار أمواجاً من الرحمة.. تغمر إخوانهم المهاجرين وتنعشـهم، بعد طول مسير وطول حرمان وعذاب، حتى بلغ الحب أن (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

---

(١) سـنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٧١ حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن أنس. عفان وحماد وحميد ثقات أثبات مروا معنا. وهو للبخاري دون آخر الحديث (٥٠٧٢).

(٢) سـنده ثلاثي صحيح. رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد، وشيخه حميد ابن أبي حميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس .

(٣) سورة الحشر: الآية ٨.

(٤) البخاري ٢٦٢٥ ومعنى اقترعت أي قاموا بإجراء القرعة لشدة تنافسهم على إكرامهم.

أي طوفان من الحب هذا؟! كانت أيدي الطواغيت في مكة تتخطفهم بالسياط واللكمات، وكانت ألسنتهم تعكر كل صباحاتهم، وهذه هي الأيدي الأنصارية المتوضئة تمسح آثار السياط وتمسح الدموع والجراح، وتحمل هؤلاء الغرباء إلى حيث الرحب والسعة.. كان الفقراء من الأنصار أسرع من الأغنياء.. ينافسونهم، ويطلبون القرعة أيضاً، فالحب والكرم في قاموس الأنصار ليس حكراً على أحد، والصدور أفسح من المنازل، والكلمات ألذ من أطايب الطعام، والشهادة تنزل من فوق سبع سماوات شرفاً للأنصار يفخرون وأبناؤهم بحمله.. الشهادة لهم لم تأت من بيت شعر مدفوع الثمن، أو خطبة من فصيح يبتغي بها قربى.. الشهادة جاءت من الكريم الذي يعطي ولا يعطى.. من أكرم الأكرمين.. من خالق الكرماء، ومعطي الأغنياء والملوك.. آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو[1] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]

المرء يُمدح إذا كان كريماً، ويُمدح أكثر إن كان يقدم للآخرين كل ما عنده، لكن أن يكون محتاجاً أشد الحاجة فيقدم للآخرين حاجته الملحة، فذلك كرم انتزعه الأنصار وحدهم، وهذا أحدهم.. يشهد له الله.. يشهد له سراجه. وهذه امرأة أنصارية سخية يشهد لها الله، ويشهد لها سراجها.. في ليلة جاع رسول الله ﷺ فيها، وجاعت عائشة وجاعت سودة، ولم يكن في تلك الحجرات الكريمة سوى قطرات من الماء.. تعكس لمعان النجوم وكرم الأنصار مع ذلك القادم من بعيد. تلك الليلة تقول لنا: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه؟

فقلن: ما معنا إلا الماء.

فقال رسول الله ﷺ: «من يضم، أو يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي[3] سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.

---

(١) سكنوا.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) أي أوقدي مصباحك وأشعليه.

فهيــأت طعامها، وأصبحت ســراجها، ونومــت صبيانها، ثم قامــت كأنها تصلح ســراجها، فأطفأته، فجعــلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويــين[1]. فلما أصبحا غدا إلى رســول اللــه ﷺ فقال ﷺ: ضحك اللــه الليلة، أو عجب[2] مــن فعالكما! فأنزل اللــه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ [3]﴾[4].

ضحــك الله وعجب من بيت من بيوت الأنصار.. ليس فيه ســوى طعام الصغار.. ليس فيه ســوى الإيمان والكرم.. أي شيء حزته أيها الأنصاري أنت وزوجتك الكريمة! أي شــيء فعلتمــاه بأخيكما وأي كــرم كان هناك عندما ردد الأنصار: يا رســول الله: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5].

عرق السنين، وحصاد العمر والجهد يبذله الأنصار كالماء البارد.. كالبسمة العذبة لإخوانهــم المهاجريــن. من يلوم الدنيا في حب الأنصار.. مــن يلوم المهاجرين في حب الأنصار.. من يلومه ﷺ عندما يعلن حبه للأنصار على الطرقات.. على النساء، وعلى أطفال كالزهور؟

ذات يوم (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رســول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي... والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي»)[6].

يا طيبة.. يا عاشــقة الأنبياء والمرسلين.. يا حاضنة الوحي والمهاجرين.. يا أرض الأناشــيد والنخيل.. حاصرت القادمين بحبك حتى استسلموا، فأعلنوه من أعماقهم. هــا هو ﷺ ذات يوم جميل جالسٌ على دروب أطفــال الأنصار فلم يصبر.. قام معلناً

---

(١) جائعين.

(٢) ضحك الله وعجب ضحكاً وعجباً يليق بجلال الله وعظمته ليس كضحك المخلوق ولا كعجب المخلوق وليس كمثله شــيء... نؤمن به ونســلم كماء جاء من عند الله ورسوله وصدق الله ورسوله... فالله ليس كمخلوقاته وصفاته ليست كصفات مخلوقاته.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٦.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٥.

حبه.. حباً رآه أنس ورواه فقال: (رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال من عرس[1] - فقام النبي ﷺ ممثلاً[2] فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي»[3].

إن بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه، وإنهم والله ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم، ولم يفعله أحد بعدهم. لقد تمادى حب الأنصار وتجاوز الكرم.. لقد تمادوا إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

تألق الأنصار فأوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها، ثم تركوها تنطلق للأجيال.. أوقفوا شمس التاريخ عندما توجهوا إليه ﷺ بقلوب كالسحاب، فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5] لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي، ولا يحب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود. أدرك الأنصار ذلك فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر. قالوا: سمعنا وأطعنا)[6].

وبدأ المهاجرون بالعمل، وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف، وبدأ المهاجرون والأنصار صفاً واحداً.. صفاً يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء والأرض، بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يبتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوباً يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً.

---

(١) الذي قال: حسبت ليس أنس ولكنه أحد الرواة عنه.

(٢) أي مكلفاً نفسه... وجاء في رواية (ممتناً).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٧٩، لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٢٩ بلفظ: قرعت.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٧٧٤.

(٦)حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).

الفهرس

هذه القصة ٧
جده عبد المطلب ٩
كان يحلم بعشرة وذبيح ١٦
الزواج ١٧
الفيل يمزق السكون ١٨
أساطير ومولد ٢٠
طلوع نجم أحمد ٢١
التسمية ٢٢
رضاعته وحضانته ٢٣
محمد في هوازن ٢٣
إن محمداً قد قتل ٢٤
نعم شق صدره ٢٤
إلى بيت عبد المطلب ٢٨
في بيت أبي طالب ٣١
بحيرى والقافلة ٣١
الأمين والغنم ٣٢
الشباب والنساء ٣٣
خديجة ٣٥
بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود ٣٦

النداء الأول لمحمد ﷺ ٣٧
يشتغل بالتجارة ٣٩
بنات محمد ٤٠
حتى الحجارة تحبه ٤١
لا أصنام ٤١
غرباء ٤٣
لا تحدث إلا لنبي ٤٥
ليلة الحياة والقرآن ٤٦
ثورة في السماء ٤٨
كاهن وجنية ٤٩
توقف الوحي ٥٠
عودة الوحي ٥٠
سرية ٥١
الوحوش ٥١
إسلام أبي بكر ٥٢
إسلام علي ٥٣
سابقون سابقون ٥٤
للدعوة أسرارها ٥٥
حر وعبد ٥٧
الجهر بالدعوة ٥٨
أبو لهب أول مكذب ٦٠

دعوة بني عبد المطلب فقط ٦١
الله وحده لا شريك له ٦٢
يؤذون رسول الله ﷺ ٦٣
تعذيب الصحابة ٦٥
أول الشهداء امرأة ٦٦
يسرقون الفقراء ٦٧
لقد كان معظمهم مجرمين ٧٢
عمر بن الخطاب ٧٢
دعوة نبي مضطهد ٧٣
إلى الحبشة ٧٥
عبد الله بن مسعود ٨٠
إسلام حمزة ٨١
المفاوضات بعد إسلام حمزة ٨٢
لا تنازل ٨٥
ما حدث لركانة ٨٧
لا يأس مع الدعاء ٨٨
عمر يلقي آخر السياط ويسلم ٨٩
محاولة قتل عمر ٩٤
الذهاب إلى أبي طالب ٩٥
الاضطهاد من جديد ٩٦
الهجرة إلى الحبشة ثانية ٩٧

أما في مكة ١٠٥
إسلام أبي ذر الغفاري ١٠٧
أبو بكر يهاجر ١١٠
دماء رسول الله ﷺ ١١١
عبس وتولى ١١٢
الوليد بن المغيرة مؤمن فكافر ١١٤
انشقاق القمر ١١٥
مواساة ١١٦
اعتراف أبي جهل بالحقيقة ١١٧
الجنون تهمة جديدة ١١٨
وحيد في حرة يثرب ١١٩
معركة بعاث ١١٩
سعد والفقراء ١٢١
معجزة الذهب ١٢١
مجاعة في مكة ١٢٣
الرسول ﷺ والتعجيز ١٢٥
فتى قريش لا ييأس ١٢٥
من حطم الأصنام؟ ١٢٦
الاتفاق على اغتيال النبي ﷺ ١٢٧
حصار جماعي في الشعب ١٢٨
عام الحزن ١٢٩

أبو طالب ١٣١
بطل إلى النار ١٣٢
الفتى الحزين علي ١٣٤
إلى الطائف ١٣٥
الجبال تنتقم ١٣٨
الإسراء والمعراج ١٣٩
شق للسقف شق للصدر ١٤٠
البراق ١٤٠
المسجد الأقصى ١٤١
ترتيب الأحداث ١٤٤
- في بيت رسول الله ١٤٤
- في المسجد الحرام عند بئر زمزم ١٤٤
- شق صدره ﷺ ١٤٤
- إحضار البراق ١٤٥
- ركوب البراق ١٤٥
- المرور بقبر موسى ١٤٥
- الوصول للمسجد الأقصى ١٤٥
- الخمر واللبن ١٤٦
العروج للسماء الدنيا ١٤٦
مَنْ مِنَ الأنبياء في السماء الدنيا ١٤٦
في السماء الثانية ١٤٧

السماء الثالثة ١٤٧
في السماء الرابعة ١٤٧
وفي السماء الخامسة ١٤٧
وفي السماء السادسة ١٤٨
في السماء السابعة ١٤٨
«سدرة المنتهى» ١٤٩
صريف الأقلام ١٥٠
فرض الصلوات ١٥٠
آيات من تحت العرش ١٥٠
تفضل آخر ١٥١
هل رأى ربه وسمعه ١٥١
دخول الجنة ١٥٢
حوار بين الأنبياء ١٥٢
المسيح الدجال ١٥٢
خازن جهنم ١٥٣
أما في الجنة ١٥٤
وصية ١٥٥
العودة للمسجد الأقصى ١٥٥
رسول الله ﷺ حزين معتزل ١٥٥
لكن أبا بكر لا يقول: كذبت ١٥٦
قريش تطلب الدليل ١٥٦

الصلاة المفروضة ١٥٧
أبو جهل يمنع الصلاة ١٥٩
يضعون السلا على ظهره ١٦٠
لم يبق إلا الدعاء ١٦١
البحث عن الأنصار ١٦١
في عكاظ ١٦٤
همدان ١٦٥
فتاة وحرير ليالي الحج ١٦٦
الزواج بعائشة وسودة ١٦٦
لكن عائشة مخطوبة ١٦٦
عروس ولكن ١٦٨
في خيام ربيعة ١٦٩
وعند مفروق وقومه ١٧٠
لقاء الأنصار ١٧٣
العقبة الأولى ١٧٤
مصعب بن عمير في يثرب ١٧٦
غربة مصعب ١٧٦
حيرة بين الأقصى والكعبة ١٧٨
العقبة الثانية ١٧٩
الشيطان يصرخ ١٨١
رؤيا ١٨٣

هجرة عمر بن الخطاب وعياش وهشام ١٨٤
مأساة هند ١٨٦
رسول الله ﷺ يؤمر بالهجرة ١٨٨
دار الندوة ١٨٩
علي بن أبي طالب على فراش الموت ١٩١
ماذا دهاك يا أبا بكر؟ ١٩٢
قريش غاضبة ١٩٥
الله ثالثهما ١٩٧
مطلوب حياً أو ميتاً ١٩٧
على دروب السواحل ٢٠٠
سراقة يتحدث ٢٠١
سراقة يبحث عن الدماء والدية ٢٠١
أبو معبد ٢٠٥
خيمتا أم معبد ٢٠٥
عودة أبي معبد ٢٠٦
محطات ٢٠٩
النبي ﷺ يودع مكة ٢٠٩
اسم جديد ٢١٠
ماذا حدث.. ماذا حدث؟ ٢١١
كيف كانت قباء؟ ٢١٢
مشاعر.. مشاعر ٢١٥

توقفت الناقة ٢١٧
عبد الله بن أبي بن سلول ٢١٧
أسد وأسيد وثعلبة ٢١٨
يوشع يرفض الإسلام ٢٢٠
قصة إبراهيم وأبنائه ٢٢٢
عبد الله بن سلام لا يقول: لا ٢٢٣
أبو أيوب مُحرَج ٢٢٧
فمن هذا الشخص الغريب؟ ٢٢٩
قصة بناء المسجد النبوي ٢٢٩
لكن ما قصة هذا اليمامي؟ ٢٣١
عند صنع المنبر ٢٣٢
امرأة من الأنصار وغلامها تبرعا بالمنبر ٢٣٢
فماذا صنع؟ ٢٣٣
منبر من الجنة ٢٣٣
تنتظر أسعد أيام حياتها ٢٣٦
حمزة يصاهر الأنصار ٢٣٧
بيت أسعد بن زرارة ٢٣٨
فمن هذا المتسلل؟ ٢٣٩
الغريب يفتح لنا دفاتره ودروبه ٢٤٠
ماذا حدث لأبي بكر؟ ٢٤٦
الحمى والحنين والشعر والهذيان ٢٤٧

شجرة غريبة ٢٥٠
ماذا يحدث في دار أنس؟ ٢٥٢
الفهرس ٢٥٩

• • •